فقه الدعوة عند

الدكتور فريد الأنصاري

قراءة في مشروع الفطرية

من التأصيل القرآني إلى التمكين العمراني

تنسيق

د. محمد البركة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

فقه الدعوة عند

الدكتور فريد الأنصاري

قراءة في مشروع الفطرية

من التأصيل القرآني إلى التمكين العمراني

تنسيق

د. محمد البركة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

فقه الدعوة عند الدكتور / فريد الأنصاري : قراءة في مشروع الفطرية من التأصيل القرآني إلى التمكين العمراني / تنسيق محمد البركة . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٢م .
١٨٤ ص ؛ ٢١ سم .
تدمك ٢ ٠٦٠ ٢١٤ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الإسلام - دعوة .
٢ - البركة ، محمد (منسق) .
٢١٣

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

مدخل قرآني:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[يوسف: ١٠٨، ١٠٩].

في الحاجة إلى التعريف

« إن كتابنا هذا - الفِطرية - الذي نقدمه لأحبتنا وقرائنا الكرام عامةً، ولأهل الشأن الدعوي منهم خاصةً، عبارة عَن رؤية متواضعة في **فقه الدعوة الإسلامية**، تتضمن تأصيلات منهاجية، نظرية وتطبيقية ».

[فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٥)]

فِهْرِسُ ٱلْمُحْتَوَيَاتِ

* ملاحق الكتاب:

* * *
* *
*

إهداء

- إلى نجم أهل الفضل والصلاح، صاحب العالمية وتدارس الكلمات..
- إلى حادي دعاة الخير والفلاح، صاحب مجالس القرآن وتلقِّي الرسالات..
- إلى زهرة النور ودمعة الروح، صاحب الفطرية وتدبر الآيات..
- إلى رائد مدرسة القرآن، ولمعة فطرية الإنسان، وأمل بناء العمران..

كلمات عنوانها الوفاء

محبه ومحبكم

د.محمد البركة



تقديم

قليلةٌ هي الكتابات التي توجهت بالنقد للعمل الإسلامي من داخل صفه لترشيده، وقليلةٌ هي الأقلام التي تنبَّهت إلى علة العطب في العمل الإسلامي وسعت إلى تصويبه، لكنها كثيرةٌ هي المؤلفات التي تحدثت عن الدعوة وطرق تبليغها(١)، إلا أن النادر منها من جمع بين النقد والتصويب، بين هدم الأوثان وبناء سبل العودة إلى صفاء وفطرة دعوة الإسلام، في بناء متكامل يجمع بين العلم والدعوة في فطرتهما، بغاية تحقيق التلقّي للقرآن الكريم والتزكية والبلاغ على منهاجه، وبغرض بناء الإنسان، وإقامة العمران الذي تكمن هندسته المذهبية الحضارية في فكر الإنسان وتصوُّره للحياة(٢).

والمشروع الدعوي للدكتور فريد الأنصاري لا يمكن فهمه إلا بفهم أركانه الثلاثة، التي هي: الفطرية، والعَالِمِيَّة، ومجالس القرآن، وهي أركان متداخلة لا يمكن فهم الواحدة منها أو مدارستها إلا باستحضار الركنين الآخرين، وأي محاولة تسعى لمدارسة المشروع بعيدًا عن هذه الأركان أو عن واحد منها، لا تكتمل جوانبها ولا تصل إلى عمق رؤيتها حتى لو نظرت إلى باقي كتابات الدكتور الأخرى، مما يجعل فكر الدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللَّه - المعبر عنه من خلال مجموع كتاباته عامة ومن خلال كتابه الفطرية، يمثل فقهًا منهجيًّا جديدًا للدعوة، فقهًا

---

(١) من هذه الكتابات هناك كتاب « الخلاصة في فقه الدعوة »، وكتاب «المفصَّل في فقه الدعوة إلى اللّـه» لعلي بن نايف الشحود، وكتاب « فقه الدعوة فيما انفرد به الإمام مسلم - رحمه اللّـه - في صحيحه » لمحمود جابر مبارك الحارثي، وكتاب « فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري » لسعيد بن علي بن وهف القحطاني، وكتاب « النقد الذاتي » لخالص حلبي، وكتاب « الحركة الإسلامية بين الجهود والترشيد » ليوسف القرضاوي.

(٢) انظر: « التجديد الفطري وقضايا العمران البشري »، فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٦٨ - ١٨٣).

يخلص - عبر قراءة منهجية سطَّرها - إلى أن الفطرية إنما هي ضرورة ونتيجة يمليها التاريخ وقوانين العمران البشري[1].

لقد أجاد - رحمه اللَّه - في الدفاع عن قضية العودة إلى الفطرية، بما عبر عنها القرآن الكريم، وتمثلتها التجربة الأولى وجيلها الفريد، من خلال العديد من القضايا، حيث استطاع أن يسطِّر منها منهجًا فطريًّا وطريقةً واضحة المعالم لبناء نظري متكامل شامل، يسهل تنزيله عبر خطط وبرامج جعلها ملاحق في كتابه، وأساسًا في بعضها الآخر، إنه مشروع « الفطرية: بعثة التجديد المقبلة »، الذي تنبني أركانه وفق تديّن سليم، جاءت معالمه واضحةً في كتاباته الأخرى مثل: « جمالية الدين »، و« مجالس القرآن » أو غيرهما[2].

وكتاب « الفطرية، بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام »، واحدٌ من أهمِّ الكتابات التي صدرت في مطلع القرن الواحد والعشرين، يجمع بين النقد والبناء، بين التأصيل لفكرة الوجهة والتنزيل لبناء الإنسان والعمران، عبر مشروع دعوي يعبر - بحسب صاحبه - عن تصور كلي للعمل الإسلامي، مشروع نحت بمهارة معالمه المؤطرة لمنطلقاته وأهدافه من خلال ثلاث مجموعات من التصانيف، هي: « تجديد العلم ومفهوم العالم »، و « التأصيل النظري للعمل الدعوي »، و « مجالس القرآن وتلقِّي رسالاته ».

ذلك أن الكتاب يحاول عبر مدخل الفطرية الإجابة عن الكثير من الأسئلة، هل الإنسان في الزمن الراهن زمن الاسترقاق العولمي فقد كثيرًا من خصائص فطرته؟ أم أن المستهدف في زماننا الراهن هو جوهر الإنسان وفطرته في البدء، حتى يصير جزءًا من منظومة الآخر؟ لماذا التركيز على أن يكون دور العمل الإسلامي اليوم

---

(١) انظر: « الفطرية دراسة في الأركان والمسالك »، فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٥ - ١٢٠). وكذا الملحق الأول من هذا الكتاب.

(٢) محمد البركة وسعيد بنحمادة، فقه التاريخ عند الدكتور فريد الأنصاري (ص ١٢).

هو تحرير الإنسان والعودة به إلى فطرته؟ لماذا يركز كتاب الفطرية على تحرير العمل الإسلامي والعودة به إلى فطريَّته، بما هي وعي بعدم الانخراط في المسالك التنظيمية والسياسية... للآخر؟ هل انحرف العمل الدعوي عن الفطرة، وسلك مناهج الآخر، وانخرط فيها حتى أنتج مسالك حادت به عن فطرته؟ وهل واجب الوقت بالنسبة للعمل الإسلامي يفرض العودة به إلى فطرية الدين والدعوة؟ هل هناك من سبيل منهاجي يوضح معالم المنهاج الفطري الذي يعيد للوحي دوره التربوي والاجتماعي في النفس والمجتمع، بعيدًا عما سماه فريد الأنصاري بمضايق الجماعات والتنظيمات وحرج الأسماء والمصطلحات، وما يترتب عن ذلك من تصنيفات وتعقيدات؟

وإذا كانت هذه الأسئلة وغيرها قد حاول كتاب الفطرية الإجابة عنها انطلاقًا من رؤية موجهة لفقه الدعوة، رؤية تبسط لبعض التأصيلات المنهاجية (نظرية وتطبيقية)[1]، فإن تفكيك هذا النص، ومحاولة فهمه في سياقه بما يجلي طبيعة مضامينه وآفاق دعواته، خطوة تحتاج إلى أقلام متعددة ورؤى متنوعة سعيًا إلى التعبير عن الممكن وغير الممكن في النص، بما يضمن له الحضور، ويضمن لأفكاره التتويج والعبور في الزمن القريب المنظور.

لقد استطاع كتاب « الفطرية، بعثة التجديد المقبلة » - سواء على أهمية ما فيه أو ضآلة ما حواه - أن يثير انتباه العديد من الفاعلين في العمل الإسلامي، وأن يحرك الكثير من الأقلام النائمة للكتابة نقدًا أو دفاعًا، وهذا يعني أن أفكاره وصلت، فحركت المياه الراكدة عند البعض، وسرَّعت من أخرى عند البعض الآخر.

لذلك انبرت بعض الأقلام في محاولة منها لإبراز بعض من معالم هذا النص وأهميته، محاولة تسعى إلى تقديم قراءة كتاب الفطرية بما له من آفاق تحاول معانقة الراهن والممكن من العمل الإسلامي، آفاق قد تكون مؤيدةً أو مخالفةً

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٥).

لكنها بالنتيجة مهتمة بالنص، لا تملك إلا أن تناقش أفكار صاحب الفطرية ومجالس القرآن؛ لأن الرأي الذي لقي ويلقى اهتمامًا من لدن المهتمين، سيظل رأيًا مُرحَّبًا به، لطبيعة أفكاره وجرأة مواقفه وحدة استنتاجاته، على أن هذه القراءة لا يمكنها أن تكتفي بمقاربة المقروء واقعه وكائنه، ولكنها تهدف كذلك إلى عرض متوقعه وممكِنِه، والدفع به إلى أقصى آفاقه المثمرة، إنها قراءة غير عاطلة عن أداء واجب وقتها وزمانها.

وإذا كانت هذه الأقلام المناقشة لنص الفطرية قد حاولت ملامسة أغلب عناصر المشروع كائنه وممكنه، فإن ذلك مبرر كافٍ لجمعها في كتاب موسوم بـ « فقه الدعوة » عند الدكتور فريد الأنصاري (قراءة في مشروع الفطرية من التأصيل القرآني إلى التمكين العمراني)؛ نظرًا لكون « فقه الدعوة » هو اللفظ الدعوي المبسط الجامع لمشروع الدكتور. فإذا كان الفقه في تقديره هو الحركة العقلية، والنشاط الذهني بالقصد الأول، فإن الحاجة الماسة في العصر الراهن إلى فقه - يستمد من الأول المنهج بقصد تبعي لازم - في كل المجالات التي منها مجال الدعوة، إنه فقه الدعوة الذي يحتاج في تجديده - بحسب الدكتور - إلى أعمال منهجية[1] قادرة - بإذن اللَّه - على أن تُنزل الدعوة في بعدها التأصيلي القرآني مكانتها، وفي أفقها العمراني تمكينها.

ولأن نص الفطرية لم يكن عالةً لعلة وجوده، بل لعلة فهمه، فقد لقي منذ صدوره مواقف مؤيدةً ومعارضةً، ومقالاتٍ متباينةً ومختلفةً، كان لبعضها سرعة الردة دون تأمل، ولبعضها الآخر خفة التنطع دون تريُّث، ولبعضها الثالث سهم

---

(١) (- بعثة الثقافة الفقهية التراثية، فهماً وتداولاً، وذلك ببعث المفاهيم والمصطلحات الضرورية في العلم، وتجديد تداولها.

- تجديد أصول الفقه بعمقه المقاصدي.

- تجديد أصول الفقه السياسي باعتباره كليات وقواعد، تختلف عن البرنامج السياسي الذي هو فقه جزئي تطبيقي). فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٧٦ - ١٨٣).

التأييد دونَ تمعن، وبين أحكام الرجم والردم من جهة، ودعائم التأييد والنصر من جهة ثانية، كان حضور فكرة هذا الكتاب، بما هو مسعى يحاول الجمع بين الكائن والممكن من القراءة لنص الفطرية.

إن جرأة ما يدعو إليه الدكتور فريد الأنصاري في كتابه الفطرية - برأينا - لم ينل - رغم كل ذلك - ما يستحقه من النقاش والقراءة، ليس لأنه صدر عن عالم عامل، بل لأن مضمون الكتاب كان بمثابة ثورة سلمية توجيهية على المشاع من فعل العمل الإسلامي، أو على الثابت من ركائز العمل الإسلامي كما راكمها واقعًا، لا كما ينبغي أن يسير عليها فعلًا، حيث جاء الكتاب عبارة عن بناء نظري وإجابة فكرية هادئة لما أثارته بعض كتاباته السابقة من انتقادات. فهل ما يزال العقل الإسلامي - ومنه عقل دعاة العمل الإسلامي - حبيس الردود الجزئية، لا يستجيب إلا للكتابات الصادمة، وغير قادر على ممارسة فعل التعقل الهادئ لمواجهة القضايا الفكرية؟ أم أن العجز عن القيام بالمراجعات الفكرية والنظرية تحت طائلة قدسية الاجتهاد، قد سيَّج فعل الكثير من مظاهر العمل الإسلامي، وأحدث حالة من التعايش معها، ووصلت إلى درجة عدم القدرة على التخلي عنها حتى وإن انتهت مدة صلاحيتها؟[1].

ودفعًا لهذه الحالة التي تمنع تداول الأفكار والرؤى، وتعوق خطوة الوصول إلى حلول مرتبطة بقضايانا الفكرية من أجل تحقيق انطلاقة حقيقية لاستعادة الأمة لدورها الحضاري في مساحة التدافع الإنساني الحالية والمستقبلية، يأتي هذا الكتاب الذي هو عبارة عنْ قراءات يمثل بعضها مدخلًا لنقاش - نتمنى أن يكون مثمرًا - حول بعض القضايا التي يثيرها الكتاب، بما هو خلاصة تجربة تفاعلت خلالها ولسنوات أبعاد متنوعة تزاحم فيها السياسي بالفكري، والشرعي الأصولي بالاجتماعي، وتماست أثناءها ميولات تبدو متغايرة تجاذبتها كل من الرؤية

---

(١) يحيى رمضان، خطاب الفطرية (عِلّة العالَم وعودة العالِم)، الفصل الثاني من هذا الكتاب.

السلفية الحديثية العلمية، والرؤية الروحية التراثية في بعدها السني والنورسي، وكذا الرؤية الحركية العملية.

إن هذه القراءة -التي أسهم بها ثلة من الدكاترة والأساتذة في هذا الكتاب - لقضايا متعددة من نص الفطرية، تسعى إلى مقاربة بعض معالم الرؤية الدعوية التجديدية عند الدكتور فريد الأنصاري - رحمة اللَّه عليه - فهي مجرد قراءة محكومة - شاءت أم أبت - بطبيعة كاتبها وثقافته ومؤثرات محيطه وزمانه؛ لأنها قراءة لا تعدو أن تكون خطابًا على خطابٍ يختلف فيه الأول عن الثاني من حيث المصدر والسياق والانشغالات، قراءة رغم كونها جاءت استجابةً لطلب الدكتور فريد الأنصاري عندما يقول: (تلك قضايا حاولنا مدارستها في هذه الورقات، عسى أن يقيِّض اللَّه لها من يخرج من تبنها حبًّا نافعًا)[1]. إلا أنها استجابة تظل في نظر كُتابها دون المرغوب، فهي مجرد محاولة دون النص، نرجو أن تتلوها محاولات أخرى بإذن اللَّه.

وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه.

د.محمد البركة

مكناسة الزيتون - المغرب.

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٦).

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الفطرية من التأصيل إلى التنزيل
المفهوم والمنهاج والبرنامج

ويشتمل على ما يلي:

* مفهوم الفطرية من القرآن إلى العمران.

د. سعيد بنحمادة

* التأصيلات المنهاجية لنص الفطرية.

د. محمد البـركة

* الفطرية من نحت المصطلح إلى صياغة البرنامج.

د. حسن بـوكيـر



مفهوم الفطرية من القرآن إلى العمران

د. سعيد بنحمادة

باستقراء النصوص الشرعية، وملاحظة تجارب التاريخ الإصلاحي، يتبين أنه لا تجديد لحال الأمة إلا بتجديد فقهها، ولا تجديد للفقه إلا بتجديد مناهجه[١]، ومتى كانت الحاجة ماسةً إلى تجديد منهاج العلم أكثر من تجديد قضاياه لتأطير بعثة التجديد الحضاري، بإحياء الصناعة الفقهية المقاصدية بضوابطها الشرعية، كانت الوجهة راشدةً نحو تحقيق بعثة التجديد المقبلة، وهذا يعني أن مفهوم الفطرية لدى الدكتور فريد الأنصاري، قد اكتسى أبعادًا حضاريةً وتجديديةً، انتقل فيها من المعنى اللغوي البسيط إلى المفهوم القرآني، ومنه إلى منظور البناء العمراني، مما يجعل الفطرية ركنًا هامًّا من أركان ثلاثة للمشروع الدعوي المتكامل الذي قدمه الدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللّه -. فكيف صاغ الدكتور هذا البناء؟ وما هي الوظائف العمرانية له؟

١ - البنية المصطلحية للفطرية:

العلم في التحديد الإبيستيمولوجي هو: (معرفة المعلوم على ما هو به)[٢]، وهو ما يجعل العلم عبارة عن تصورات وقضايا وإشكالات؛ لذلك كان المصطلح بوابة العلم، بل هو عين العلم[٣]، وأن علمية العلم لا تتحقق إلا بالمصطلح والقاعدة والمنهج[٤]. فالمصطلحات لم تعد - بهذا المعنى - أسماء لمفاهيم

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٧٤، ١٧٥). محمد البركة وسعيد بنحمادة، فقه التاريخ عند الدكتور فريد الأنصاري (المفهوم والمنهج والقضايا) (ص ٧٧، ٧٨).

(٢) أبو الوليد الباجي، رسالة في بيان حدود الألفاظ الدائرة بين المتناظرين - مخطوط بالمكتبة العامة بتطوان تحت رقم (٣٥٣)، (ص ١١٨).

(٣) فريد الأنصاري، المصطلح الأصولي عند الشاطبي (ص ٢٧).

(٤) نفس المرجع (ص ٦٠).

فحسب، توظف في دراسة القضايا والمشكلات، بل صارت أسماء لهذه القضايا نفسها والمشكلات، فالإشكالات قضايا، والمصطلحات تصورات، ولكن لشدة ارتباط هذه بتلك صارت كأنها هي؛ إذ لا يمكن في العلوم لمّ أجزاء المفهوم لتركيب تعريف المصطلح جمعًا ومنعًا، إلا باستقراء جميع مكونات الإشكال أو الإشكالات المبنية عليه. ومن هنا كان مآل المصطلح تسمية مشكلات العلم، من خلال تسمية مفاهيمه؛ لذلك فتوليد المصطلح يتم بارتقاء الدلالة أو تحولها لمناسبة الكلمات لمقتضى العلم، ومن ثم كان التعريف في الدراسات المصطلحية من أهم المحطات العلمية في مجال دراسة المصطلح؛ لأنه يشكل أداة الربط العلمي الدقيق بين المصطلح والمفهوم(١).

والمصطلح مفهوم يمتد إلى عدة مصطلحات فيكون منها ما هو بمنزلة الجذع أو الأصل، ومنها ما هو بمنزلة الفروع والأغصان والثمار. والدراسة الحقيقية للمصطلح هي استقراء مفهومه المبثوث في كل ذلك، رغم اختلاف الصيغ المصطلحية وتعددها للوصول إلى الصورة الشاملة له، التي يكون - بناءً عليها - التعريف الجامع المانع حقًّا(٢).

والمتأمل في النشأة الطبيعية للعلوم النسقية، من حيث كونها كذلك - حسب الدكتور فريد الأنصاري رحمة اللَّه عليه - يجد أنها تنبني على ثلاثة أركان، هي: المصطلح، والقاعدة، والمنهج. والركنان الأخيران ينطلقان من المصطلح ويعودان إليه، فأول ما يولد عادةً من العلوم هو « المفهوم » أي المعنى العلمي المبسط، الذي يشكل نواة المصطلح ومضمونه في مرحلته الجنينية(٣).

وإذا كانت الحاجة العلمية تدعو إلى وجود المفهوم، فإن المصطلحات هي أوصاف لمفاهيم بسيطة، يتراكم توظيفها، حتى إذا انتقلت الضرورة العلمية

---

(١) فريد الأنصاري، المصطلح الأصولي (ص ٢٨، ٢٩، ١٧٣، ١٧٤).

(٢) نفس المرجع (ص ٣٩). (٣) نفس المرجع (ص ٦٠، ٦١).

من مستوى البساطة إلى مستوى التركيب المعقَّد، حدث تطور في استعمالها، ووضعها في نسق مركب، هو المسمى بالقاعدة.

والقاعدة هي تركيب نسقي من المصطلحات، وظيفتها حل إشكال ما، لا وصف مفهوم معين، ولا يكون هذا إلا بعد وصول العلم مرحلة متقدمة، تتجاوز مرحلة المصطلحات. ومن ثم إذا كانت المصطلحات أوصافًا لمفاهيم تصورية، فإن القواعد مفاتيح للقضايا؛ فالقاعدة تضمين لازدحام مصطلحي منطوق ومفهوم. والبنية الأساس للقاعدة هي المصطلح، وقبل تفسير النسق الكلي المركب منه لا بد من تفسير المصطلح[1].

وإذا كان المصطلح يمثل طفولة العلم، فالقاعدة تشكل شبابه، فهي بذلك مرحلة متقدمة من العلم، واستعمالها يتراكم بالتقعيد، حتى يحصل نوع من التركيب على التركيب السابق؛ نظرًا لبروز إشكالات أخرى، أعقد من الأولى، أي أنه يولِّد نسقًا مركبًا من الإشكالات الصغرى التي وُجدت القواعد لحلها.

وإذا كانت القاعدة نسيجًا مركبًا، بالنظر إلى بساطة المصطلح، من حيث المفهوم، فإنها بالنظر إلى ما تركب من إشكال كبير مبني على نسق من الإشكالات الصغرى، تظل بسيطةً على سبيل المجاز، لا يمكنها التطاول إلى حله، أو معالجته منفردة؛ ولذلك تتضافر القواعد ذات النسق الواحد، فتشكل نسقًا مركبًا من ذاتها، هو المسمى المنهج، فالمنهج إذن ليس سوى تركيب نسقي أعلى لمجموعة من القواعد ذات الطبيعة المشتركة، أو المجتمعة على قاسم مشترك معين، وتلك هي مرحلة كهولة العلم، واكتماله، لا من حيث موضوعه وقضاياه،.ولكن من حيث علميته[2].

ولدراسة المنهج - بهذا المعنى - لا بد من دراسة إحصاء قواعده أحادًا ونسقًا. ودراسة القاعدة مشروطة بإرجاعها إلى مكوناتها المصطلحية في صورها الفردية،

---

(١) فريد الأنصاري، المصطلح الأصولي (ص ٦٢). (٢) نفس المرجع (ص ٦٣ - ٦٥).

قبل دراستها في نسقها المنهجي، من خلال دراسة تلك المصطلحات في صورها الفردية قبل دراستها في نسقها التركيبي المنهجي. وهذا ما يؤكد القول بأن: أركان العلم الثلاثة (المصطلح، والمنهج، والقضايا) إنما تنطلق من المصطلح وتعود إليه[١].

وبناءً على ذلك يقيم الدكتور فريد الأنصاري حكمًا كليًّا جامعًا يقيّم من خلاله علمية العلم، على أساس القيمة الاصطلاحية التي يتضمنها خطابه، فإذا خلا من المصطلحات على التمام، فهو بالضرورة خالٍ من القواعد والمناهج، وبقدر نضج المصطلحات في الخطاب العلمي، تكون علمية ذلك العلم والعكس صحيح[٢]. وتبعًا لذلك ميز الدكتور بين « العلم البسيط » و « العلم الإشكالي ».

والقول بأن: المصطلح يمثل مرحلة طفولة العلم. أي ما قبل ظهور مرحلة التقعيد، لا يعني ضعف أهمية البحث المصطلحي، بل إن هذا الأخير يتطور هو الآخر مع تطور العلم؛ ذلك بأن المصطلحات عندما تولد لا تتركب في النسق القاعدي إلا بعد نضج اصطلاحي متين وصلابة استعمالية شديدة، فكلما ازداد العلم تركيبًا، ازدادت المصطلحات دقةً وتعقيدًا، بحيث تتعدد وظائفها الاستعمالية في مجالات العلم الواحد، سواء في أشكالها الفردية البسيطة أو في أشكالها التركيبية عبر القواعد والمناهج[٣].

والسيماء المميزة للعلوم الإسلامية - في تقدير الدكتور فريد الأنصاري - هي: « البنية المصطلحية » التي منها تكتنز صفتها العلمية. ومن ثم كانت أهمية الدراسة المصطلحية[٤].

ذلك بأن الدراسة المصطلحية هي غير المعجمية، أو الدراسات الإشكالية الموضوعية المتعلقة بما ينبني على مصطلح ما من قضايا، فهي وإن كانت تدخل

---

(١) فريد الأنصاري، المصطلح الأصولي (ص ٦٣ - ٦٥).

(٢، ٣) نفس المرجع (ص ٦٥). (٤) نفس المرجع (ص ٦٧، ٦٨).

فيما يسمى بـ « النظرية الخاصة » لعلم المصطلح أو المصطلحية، فإنها تستفيد من ذلك كله، ثم تتميز بمفهومها الخاص، فهي بحث في المصطلح لمعرفة واقعه الدلالي، من حيث مفهومه، وخصائصه، وفروعه، ضمن مجاله العلمي المدروس به. إنها منهج للبحث في المفهوم العلمي وما يتعلق به من أغراض، يمكن تطبيقه على المصطلح مهما اختلفت المجالات العلمية[١].

إن اضطراب التصورات والمناهج هو في الأصل اضطراب حاصل في المفاهيم، وعلاقة المصطلح بالمنهج علاقة تتأسس على التفكير والترتيب، ذلك بأن بناء المفاهيم يبدأ منهما[٢]. فعندما تضطرب المفاهيم وتختلف التصورات بين المشتغلين في المجال الواحد، أو ربما تتناقض، نكون مضطرين إلى العودة إلى المنطلقات الأولى للمجال الذي نشتغل فيه، لإعادة تجديد السؤال حول ما نعتبره عادةً من البديهيَّات)[٣]؛ لذلك كانت الحاجة ملحةً (إلى إعادة تأسيس جديد للمفاهيم المؤسسة للحياة العمرانية على الأرض في شتى صورها الحضارية)[٤].

والدراسة المصطلحية تقوم على المنهج، الذي يعد أم القضايا حسب الدكتور؛ إذ تنقسم المناهج المتعلقة بالدراسة المصطلحية إلى منهجين رئيسيين، هما: المنهج الوصفي والمنهج التاريخي، يضاف إليهما ثالث مركب منهما، ورابع أضافه الدكتور فريد الأنصاري بنَفَسِه التجديدي[٥].

وبناءً على هذا السياق المصطلحي انتقل مفهوم الفطرية لدى الدكتور فريد الأنصاري، وتدرجَ من المعنى اللغوي إلى مفهومه القرآني ومقاصده العمرانية.

---

(١) فريد الأنصاري، المصطلح الأصولي (ص ٦٩).

(٢، ٣) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٨٧). (٤) نفس المرجع (ص ١٠٠).

(٥) عن تلك المناهج، راجع: فريد الأنصاري، المصطلح الأصولي (ص ٧٨).

٢- المفهوم القرآني للفطرية:

الفطرية في معناها اللغوي هي: الخلق والبدء والخِلقة. جاء في لسان العرب: (فَطَرَ اللَّه الخلق يفطرهم: خلقهم وبدأهم. والفِطرة: الابتداء والاختراع...، والفِطرة، بالكسر: الخِلقة...، والفطرة: ما فطر اللَّه عليه الخلق من المعرفة به. وفطره يفطُرُه - بالضم - فطرًا: أي خلقه،... والفطرة: الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه،... يعني الخلقة التي فُطر عليها في الرحم من سعادة أو شقاوة،... والفطرة ابتداء الخلق. الفَطر الابتداع والاختراع)[١].

وبالرجوع إلى كتب التفاسير نلحظ المعاني التي اكتسبتها « الفطرة »، فقد فسرت بـ« دين اللَّه » و « الملة »، وهي الإسلام والتوحيد، التي خلق اللَّه المؤمنين عليه[٢]. كما اعتبرت (أنها الخلقة والهيئة في نفس الطفل التي هي معدة مهيأة لأن يميز بها مصنوعات اللَّه - تعالى - ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به، فكأنه قال: « فأقم وجهك للدين » الذي هو الحنيف، وهو « فطرة اللَّه » الذي على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرضهم العوارض). كما قيل: (الفطرة الدين وتأول قوله: « فطر الناس » على الخصوص أي المؤمنين. وقيل: « الفطرة » هو العهد الذي أخذه اللَّه تعالى على ذرية آدم حين أخرجهم نسمًا من ظهره، ونحوه حديث معاذ بن جبل حين مر به عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: يا معاذ، ما قوام هذه الأمة؟ قال: الإخلاص وهو الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها، والصلاة وهي الدين والطاعة وهي العصمة. فقال عمر: صدقت)[٣]. وبالمثل فُسرت الفطرة بالخلق، فهي (صنعة اللَّه التي خلق الناس عليها)[٤].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت (٥/ ٥٦ – ٥٨).

(٢) الطبراني، المعجم الكبير. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم. الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.

وأساس هذا المفهوم قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٢٩ - ٣٢].

والفطرية كذلك مصدر مستمد من الفطرة ببعده الدعوي؛ إذ الواقع في الفطرة ومن أجلها في النفس والمجتمع، هو ما يؤسس لمشروع دعوي عام، وتصور كلي للعمل الإسلامي. ومن ثم فمفهوم الفطرية - في بعده المصطلحي - يقوم لدى الدكتور فريد الأنصاري على حدٍّ، وستة أركان، وثلاثة مسالك. فأما حدّها فهو إقامة الوجه للدين حنيفًا خالصًا للّه، وذلك بمكابدة القرآن ومجاهدة النفس به تلقيًا وبلاغًا؛ قصد إخراجها من تشوهات الهوى إلى هدى الدين القيم، ومن ظلمات الضلال إلى نور العلم باللّه[1].

وبناءً على هذا الحد تكون الفطرية بمثابة إصلاح وجداني، يقوم على تصحيح ما فُسد من فطرة الإنسان، المجبول على التوحيد، وإصلاح ما شابه من تشوهات تصورية وسلوكية في شتى امتداداتها العمرانية.

أما من حيث المنهج فالفطرية مرتبطة بتلقِّي رسالات القرآن من خلال تلقي آياته، ومكابدة حقائقه ومنازله، وهو ما يشكل المدار التربوي للفطرية ومحورها الأساس، ويجعل القرآن الكريم عصبها؛ (إذ هو كتاب الفطرة التي عليه استقامت يوم قامت، وعليه يجب أن تستقيم كلما انحرف بها المسار، ولا يكون ذلك إلا بأن تستأنف تلقي حقائقه الإيمانية مرةً أخرى، وتتغذى من روحه العظيم تخلقًا وتحققًا، ثم تشتغل ببلاغ ما تلقته بالمنهج نفسه أي بتلقين ذلك للآخرين

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٥).

عبر مجالس القرآن، التي هي المحاضن التربوية للفطرة، وأحد أهم مسالكها الإصلاحية)[١].

والبعد المصطلحي للفطرية يرقى بها إلى أن تتحول إلى مدرسة للتعامل مع القرآن الكريم، مفتاحه «التلقي» التربوي لرسالات الآيات تخلقًا وتحققًا، وصلاحًا وإصلاحًا؛ واستقبال القلب للوحي إما على سبيل النبوءة (وهو شأن الرسول ﷺ)، وإما على سبيل الذكر (وهو عام في كل مؤمن بمنهج وصورة شهودية)[٢].

وأما أركان الفطرية فهي ستة مصطلحات مفتاحية، وهي: الإخلاص مجاهدة، والآخرة غاية، والقرآن مدرسة، والربانية برنامج، والعلم طريقة، والحكمة صبغة[٣].

وأما المسالك التربوية للفطرية، ويقصد بها مجموعة المسالك التعبدية التي تقود العبد إلى اللَّه، فتُقَوِّم ما انحرف من أخلاقه وطباعه، وتصلح ما فسد من مزاجه وأفكاره، ليستقيم على خالص فطرته، وصفاء سريرته، ثم ترتقي به عبر مدارج الربانية، إلى أن يتخلق بمقام الصِّديقيَّة، ويتحقق به. فقد أجملها الدكتور فريد الأنصاري في: مجالس القرآن لتلقي حقائق الإيمان (التلاوة بمنهج التلقي، والتزكية بمنهج التدبر، وتعليم الكتاب والحكمة بمنهج التدارس)، والتخلق بمقتضياتها، وبلاغ رسالات اللَّه بدعوة الناس إليه، ورباطات الفطرية، بما تتضمنه من صلوات وأوراد معنوية للتغذية الفردية[٤].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٦).

(٢) نفس المرجع (ص ١٠٧ - ١١٠). لمزيد من التفاصيل عن معاني التلقي للقرآن، راجع: فريد الأنصاري، مجالس القرآن (مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ)، الجزء الأول والثاني.

(٣) نفس المرجع (ص ١١٠ - ١١٥).

(٤) نفس المرجع (ص ١١٥ - ١٤٤). وقد فصل الدكتور - رحمه اللَّه - في هذه المسالك، وجعلها في =

ومن ثم نلحظ أن الفطرة هي الرجوع إلى الطبيعة الأولى، وإلى الهيئة الأصلية التي كانت للأشياء قبل خضوعها للتغيير والتبديل، فالفطرة بهذا المعنى هي الدين، وما الدين إلا وحي من الله، وما الوحي إلا نص من كتاب الله أو نص من سنة رسول الله ﷺ. وارتباط الفطرية ببعثة التجديد - وفق ذلك المعنى - يجعلها ذات عتبات اصطلاحية، وبُعد مفهومي توليدي مرتبط بوظائف عمرانية.

٣- الوظائف العمرانية لمفهوم الفطرية:

الفطرية مدخل للتحول الحضاري للعمل الإسلامي المعاصر، من خلال تجديد نفسه بالرجوع إلى فطرته في الدين والدعوة؛ (لأن الفطرة المسلوبة أو المخرومة، لن تعالج أو لن تسترجع إلا بمنهاج فطري)[1]، ومن ثم فالمقصود بالفطرة ذلك المنهاج الدعوي، القائم على أصول الفطرة المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، لاسترجاع الأثر التربوي والاجتماعي للوحي في النفس وفي المجتمع.

وحينما يدعو الدكتور فريد الأنصاري العمل الإسلامي إلى العودة إلى الفطرة، فإنما ينبهه على ضرورة الرجوع إلى مجال عمله، والانكباب على صلب وظيفته، وجوهر موضوعه ومناط خطابه، وهو الإنسان في علاقته العمودية بربه أصلًا وما يلحق ذلك من صلة الإنسان بأخيه الإنسان؛ لأن الانحراف الذي يطبع العصر في المجال الإنساني والاجتماعي إنما هو انحراف في الفطرة، مما يقتضي ضرورة العودة إلى الفطرية لإعادة إنتاج الإنسان وتشكيله على موازين القرآن الكريم، وذلك هو جوهر بعثات التجديد الإسلامي عبر التاريخ، وتلك هي وظيفتها المقبلة.

= ثلاث خطوات، بصيغة: « اغتنام المجالسات، والتزام الرباطات، وتبليغ الرسالات ». راجع كتاب مجالس القرآن، فصل الخطوات المنهجية الثلاث لتدارس القرآن (ص ٦٤ – ٧٥).

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٣).

لذلك فالإنسان المقصود بالدعوة الفطرية - في نظر الدكتور فريد الأنصاري - (على المستوى القيادي نوعان: إنسان فاعل، وإنسان متفاعل. فالإنسان الفاعل هو العالم الرباني الحامل لرسالة القرآن، الفقيه المجدد، الداعية الحكيم،... فخطابه هو على وزان خطاب القرآن عام شامل، يحمل إلى المجتمع - بكل شرائحه وطبقاته - كليات الدين، وأصوله الإيمانية والعلمية، وقيمه الأخلاقية، تلاوةً وتزكيةً وتعليمًا، ولذلك كان هو الإنسان المركزي في دعوة الفطرية. وأما الإنسان المتفاعل فهو الإنسان المتلقي لخطاب الدعوة عن الإنسان الفاعل، ليحملها باعتباره فاعلًا أيضًا، لكن في مجال متخصص محدد)[١].

وإذا كان الإسلام هو الدين، فإن الدين هو الفطرة؛ ولذلك كان للفطرية صلة وطيدة بقضية الدين والتدين، وما يتفرع عن ذلك مما له صلة بالروحانيات والجسمانيات. (ولذلك فإنك ترى كيف يمتد معنى الفطرة في الإسلام، من المنطلق الأول للدين، في بيان هيئة المؤمن النفسانية الباطنة، ابتداءً من حقيقة التوحيد بما هو إخلاص العبادة للّه وحده، وانتهاءً ببيان هيئة المؤمن الجسمانية، مما يتعلق بخصال الفطرة الظاهرة في تجلياتها الجمالية)[٢]، باعتبارها إحدى حقائق الخلق الإنساني الممثلة في المواقف السلوكية الاجتماعية، بما تتضمنه من سلامة الأذواق، وصلاح العادات، وسائر ضروب التصرفات البشرية في العمران والحياة.

وتتمثل أسس العمران البشري - في تقدير الدكتور - في التعليم والإعلام والاقتصاد والسياسة، مع تمايز في وظائفها؛ لذلك تستند الفطرية إلى الأسس الثلاثة الأولى باعتبارها عملًا بنيويًّا قاعديًّا، بينما ترتكز على السياسة لكونها عملًا فوقيًّا له علاقة جدلية مع الركائز الأخرى السالفة.

على أن مفهوم الفطرية يرتبط - في بنية الكتاب خاصةً ومشروع الأنصاري

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤١). (٢) نفس المرجع (ص ٩٧).

عامة - بـ « بعثة التجديد » - والبعث يرد في القرآن والسنة بمعنيين: الأول بمعنى إحياء الموات؛ فالبعث هنا فعل قدري تكويني يرجع إلى إرادة اللَّه - جلَّ علاه - بإحياء الميت، وتجديد الحياة فيه؛ ليخرج من عالم الفناء إلى عالم البقاء، أو من دائرة العدم إلى دائرة الوجود. وأما المعنى الثاني فيرجع إلى معنى الإرسال، وهو تكليف الرسل بوظيفة البلاغ، فالبعث هنا على خلاف المعنى الأول يرجع إلى معنى تكليفي، وأمر تشريعي تعبدي، إلا أنه يستصحب المفهوم السابق من الناحية السيمائية، فلا يمكن تجريد اللفظ من إيحاءاته الإحيائية، فكأنما ورود المبعوث على الأمة الضالة نوع من الغيث يحيي منها الموات، ويبعث فيها الحياة، بما يعني تجديد البعثة بالمعنى الإرسالي، أي إرسال العلماء لا الأنبياء، وهذا لا يعني ابتداء وحي، وإنما هو تعليم الوحي إعادةً وتجديدًا، وهو دال بالتبع على معنى الإحياء، فبعث المجددين إنما هو إحياء للأمة، ونفخ لروح القرآن فيها من جديد حتى تعود إليها الحياة، وتنخرط من جديد في صناعة التاريخ؛ لذلك فـ (البعثة بمعناها التجديدي إنما هي « دعوة إسلامية » أكثر مما هي « حركة إسلامية »،... هي دعوة كلية تعيد صياغة الإنسان من خلال استعادة إنتاج التنزيل القرآني بمنهجيته التربوية الربانية الشاملة، بوعي علمي راشد، قوامه « الفقه في الدين » بمعناه الكلي، يؤمه جيل من العلماء الحكماء)[١].

وبناءً على ذلك، لم يعد المقصود بالعمران - ارتباطًا بالفطرية والتجديد الفطري لدى الدكتور فريد الأنصاري - هو تخطيط البناء المادي وهندسته فحسب، وإنما يعني الهندسة المذهبية الحضارية الكامنة في الإنسان، فـ (العمران إذن: هو بناء الإنسان بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس ونسيج اجتماعي)[٢].

والتجديد الفطري يجعل للقرآن عمرانًا له قضايا رئيسة في بناء النفس

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٧١، ٧٢). (٢) نفس المرجع (ص ١٦٨).

والمجتمع، إليها تستند هندسته، وعليها يقوم بناؤه، فهي التي كانت تمثل اللبنات الكبرى في بناء البعثة المحمدية وعمارتها، عليها كانت تدور أولوياتها الثابتة بالأمصار والعصور، وهي: التوحيد، والعبادة، والمجتمع، وعلم الدين.

أ - **التوحيد**: ويقصد به في المنهج الفطري الدعوة إلى عقيدة السلف الصالح للتعرف على اللَّه والتعريف به، بالمعنى التربوي القرآني تعليمًا وتزكيةً، (وذلك من خلال استغلال المقاصد التعبدية، والأهداف التربوية للأسماء الحسنى والصفات العلى)؛ إذ البناء القرآني للتوحيد من شأنه تكوين شخصية الإنسان المسلم الفاعل في التاريخ، بحكم جمعه بين سيماء القوة والأمانة[١].

ب - **العبادة**: وأهم رموزها الصلاة. وتجديد الصلاة معناه بعث مضمونها في الأمة وإحياء دورها الواصل باللَّه، وإحياء بعدها العمراني من المساجد والجوامع، وإبراز مقاصدها المجتمعية؛ فالصلاة مفتاح صلاح المجتمع، وأول عتبات تجديده[٢].

جـ - **المجتمع**: ونواته الأولى الأسرة بمفهومها الإسلامي؛ لأنها - هي الأخرى- مفتاح كل تجديد، بتماسكها يتماسك المجتمع، وباختلالها وانحلالها يختل وينحل؛ ولذلك حظيت بالأولوية في التشريع القرآني. وهو خطاب منهجي لتجديد العمران بفعل قيمتي الأسرة في الإسلام: قيمة العِرض، وقيمة الرحم. فأما قيمة العِرض فتدخل ضمن أصول الضروريات الخمس، وهي قيمة خلقية مرجعها الحياء والغيرة. وأما قيمة الرحم فيقصد بها الدلالة الاصطلاحية التي تجعل للرحم مفهومًا كليًّا تتفرع عنه مفاهيم منظمة للحياة الزوجية الضامنة لاستمرارها وانتسابها الديني، فإذا كان المعنى اللغوي للرحم يدل على أنه ذلك الغشاء البطني الداخلي الذي يحتضن الجنين في بطن أمه. فإن المقصود به في السياق التشريعي هو مجموع العلاقات الشرعية التعبدية، التي تنشأ عن الزواج

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٦٩). (٢) نفس المرجع (ص ١٧٠).

الشرعي، وعما يترتب عنه من نسل، وهي علاقات تعبدية راجعة إلى اعتبار الشرع لها بالدرجة الأولى.

ومن ثم فالعلاقات الرحمية إحدى شعائر الإسلام، يُعبد اللَّه بها إنتاجًا شرعيًّا أولًا، ثم برًّا وتوقيرًا، ثم خدمةً وصلةً؛ لأن في تأسيسها وإنتاجها تأسيسًا للدين، وإنتاجا لمفاهيمه في النفس وفي المجتمع، وفي صلتها صلة لآصرته الإيمانية في الأجيال. ومن هنا قرنها اللَّه ﷻ بأصل التوحيد، الذي هو أصل الأصول في الإسلام[1]، في قوله عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء: ١].

د - **علم الدين:** العلم هو إحدى قضايا « بعثة التجديد »، وركن من أعظم أركان البعث والإحياء غاية ووسيلة. والسبيل الفعلي إلى ذلك يكون ببناء أمرين: التأهيل والتأصيل. فالتأهيل يقصد به تكوين نُخَبٍ في العلوم الشرعية، ممن ظهرت فيهم مخايل العبقرية في طلب العلم، حتى يتحققوا بمفهوم العالِمية، على مستوى المَلَكة الفقهية، والربانية الإيمانية، والقيادة التربوية الاجتماعية. وأما التأصيل فمعناه تحقيق قضايا العلوم الشرعية، وخاصةً الأحكام الفقهية منها بربطها بأدلتها، وبناء مناهج استدلالها، ومقارنة مذاهبها، وتوجيه خلافها العالي والنازل، بقصد إحياء الثقافة الفقهية الأصلية، وتجديد المَلَكة الاجتهادية في الأمة، وإعادة بث أدب الخلاف. فغياب الثقافة الفقهية تجديدًا واجتهادًا - حسب الدكتور فريد الأنصاري - أدى بالأمة إلى الجمود عند الظواهر من النصوص، أو إلى التجرد من الأدلة كليةً، وكلا الأمرين خروج عن حد الاعتدال في العلم، بل وكلاهما أيضًا مؤدٍّ إلى الجمود والتقليد.

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٧١ - ١٧٤).

التأصيلات المنهاجية لنص الفطرية

د. محمد البركة

لقد كان الدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللَّه - وفيًّا لرؤيته عندما قدم لكتابه « الفطرية بعثة التجديد المقبلة » بسبع مقدمات بمفهومها المنطقي، مقدمات الداعي إلى اعتمادها ما أشار إليه من أن الكتاب سيكون (رؤيةً في فقه الدعوة الإسلامية، تتضمن تأصيلات منهاجية، نظرية وتطبيقية)[1]، وبما أن البناء المنهجي يقتضي التقديم بمقدمات[2] تؤطر الرؤية، فهذا يعني أن قارئ الكتاب إذا لم يراع تلك المقدمات، ولم يعرض خلاصاته من الكتاب عليها، انحرفت قراءته، فكانت شاردةً عن سياق ورودها ومراد صاحبها.

كما أن التقديم بمقدمات منهجية في بداية الكتاب، يعتبر إضافةً جديدةً عند الدكتور فريد الأنصاري، الذي اعتاد أن يقدم لكتابه بمدخل مفهومي يساعد على تأطير الفهم، وتوظيف المصطلحات التي يستعملها، إنه انتقال من تحديد المفهوم في مقدمة المؤلفات السابقة إلى تحديد المفهوم في مقدمة فصول الكتاب الواحد، بل زيد عليه بأن مهَّد للمفهوم بمقدمات لفهم مقصوده، وفي ذلك استنتاج ضمني منه لما قد يؤول إليه فهم بعض بنات فكره في الكتاب من نقاش، أو في توجيه الفهم لما يخالف أصلها، وتلك من الحكمة الثابتة عند العلماء نظرًا لتعدد القراءات المختلفة للنص، وهو أمر وجدناه عند بعضهم مثل ابن خلدون في مقدمات مقدمته وغيره كثير. وفي ذلك يقول الدكتور فريد الأنصاري: (نستعمل مصطلح المقدمة، بما يقارب المعنى المنطقي للكلمة، أي باعتبارها منطلقًا منهجيًّا، وأصلًا استدلاليًّا، لتوجيه الأدلة وبناء الحجاج)[3].

إن ما قرره الأنصاري من قضايا متعددة في الكتاب تفصيلًا، جاء بها من

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٥).

(٢، ٣) نفس المرجع (ص ١٩).

خلال المقدمات تمهيدًا، وهذا يعني أن قراءة المقدمات وتصنيفها يشير في أحد معانيها لأغلب القضايا التي تناولها الكتاب، وهي ليست في التمهيد على سبيل الاختصار أو حتى عناوين لقضايا فقط، بل هي على سبيل إعلان التأصيلات المنهاجية للرؤية مُقدمًا، مما يعني أن عرضها هو عرض للرؤية التي حكمت الكتاب وصاحب الكتاب.

لقد أشار التمهيد وبشكل واضح إلى عناوين المقدمات، وكل عنوان من هذه العناوين إلا ويشير - برأينا - إلى قضية أو موضوع مفصّل فيه بعد، في علاقته بالدعوة من جهة، وفي علاقته بالمنهاج المقترح من جهة ثانية؛ إذ المقدمة الواحدة هنا تحمل أمرين اثنين هما القضية والمنهاج، قضية من قضايا فقه الدعوة والعناصر المنهاجية لها، وفي ذلك يقول الأنصاري: (فالقضية ليست متعلقةً بمصطلح ما فحسب، بل هي قضية متعلقة بجهاز مفاهيمي كامل، وبنظام تصوري شامل، في إطار عمل منهاجي يرمي إلى الإسهام في تأصيل العمل الإسلامي في الكتاب والسنة، بين يدي بعثة تجديد الدين المقبلة)[1].

فإذا كان الفقه - مثلًا - بمعناه المصدري للفظ لا الاسمي هو حركة عقلية، ونشاط ذهني بالقصد الأول، ينتجها العقل المسلم[2]، منه فقه الدين وفقه الدعوة...، فإن فقه الدعوة - مثلًا بحسب الأنصاري - لا يكون متينًا إلا إذا تحقق بالربانية برنامجًا[3]، انطلاقًا من رؤية جامعة في فقه الدعوة بمعناه المنهجي المؤصل[4]، وهذا يعني أن فقه الدعوة جامع بين القضية والمنهج، أي عرض الموضوع بصورته المنهجية، وهنا تكمن قيمة كتاب الفطرية.

على أن هذا التأصيل المنهاجي للقضايا التي عرضها الدكتور في كتابه، يستمد قوته من تمكنه العميق من الدرس الأصولي الفقهي، بمناهجه الاستصلاحية

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٨).
(٢) نفس المرجع (ص ١٦٧).
(٣) نفس المرجع (ص ١١٣).
(٤) نفس المرجع (ص ١٥).

والاستحسانية المنضبطة إلى قواعدها الشرعية وتحقيقاتها الاجتهادية[1]، وإعمال كل ذلك على العمل الإسلامي، إنه الدافع بتأصيلاتها المنهاجية إلى تسمية فقه الدعوة.

فما هي التأصيلات المنهاجية التي أعلنت عنها رؤية الفطرية؟ أو ما هي القضايا الإشكالية في العمل الدعوي منهاجيًّا، التي سعى الأنصاري إلى تسطيرها في مستهل كتابه الفطرية؟ بل ما هي علاقة التأصيلات المنهاجية بباقي فصول الكتاب؟ وكيف استطاع أن ينضبط لها أثناء الكتابة؟

١ - التأصيل المنهاجي الأول: فقه الواقع:

إن قضية فقه الواقع أو كما يسميها الدكتور: « بين يدي هذا الزمان »، هي قضية فقه السياق الذي تعيشه الدعوة؛ إذ لا يمكن الاجتهاد للدعوة بتحديد مداخلها وفقه أولوياتها وتجديد آلياتها، إلا بمعرفة واقع تحركها، ووقت وجوبها وضرورتها، طلبًا للتوفيق والسداد، الذي لا يتم إلا بالتوكل على اللَّه الذي منه فهم الواقع. ذلك بأن تحديات زمن العولمة على الأمة الإسلامية والتحكم المطلق في السياسات، قد أصاب الأمة بداء التآكل الداخلي الذي أدى إلى انهيار وجودها المعنوي، مما يدعو العمل الدعوي إلى تجديد النظر في طريقة عمله وبرامجه التربوية ومنهاجه الدعوي، وتمحيص مدى قربه أو بعده من القرآن. والبصير بزمانه هو من كسب حظَّ فهم السياق أو الواقع، فمن لا حظَّ له في السياق لا حظ له في الفهم، بل لا حظَّ له في التنزيل.

وموجات التدافع الحضاري[2] - حسب الدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللَّه - تقتضي فقه الواقع المتغير الذي لا يمكن أن يتحقق فهمه إلا بوضع موجهات منهجية، أبرزها:

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٤). (٢) نفس المرجع (ص ٢٠).

- **المراجعة** بقصد « فقه تحقيق المناط »[١]، ذلك بأن الدكتور حين يعرض لسؤال: أين نتائج حركات العمل الإسلامي بعد البرامج والخطط والاستعدادات؟ فهو يدعوها إلى المراجعة ومقابلة الجهود بالنتائج، بقصد البحث عن الخلل والابتعاد عن وهم معارك زمانها إذ أن الزمان الراهن (زمان نهاية الجغرافيا واختفاء الحدود، زمان انبعاث حركة التاريخ، واستشرافها لدورة حضارية أخرى)[٢].

- **اليقين** بقصد النصر، ذلك بأن الدكتور الأنصاري حين يعرض لسؤال: أين الحركات الإسلامية من المبشرات النصية والمنهاجية بعالمية الدين؟ فهو يدعوها إلى ترك الخوف، والاجتهاد فكرًا وعملًا من داخل بنية النص الشرعي ومنظومته الاستدلالية لتجديد مفاهيمه وقيمه في المجتمع[٣]، بل يدعوها إلى وضع الإستراتيجيات الدعوية وليس الخطط التنفيذية المرحلية فقط، و (الدعوة الإسلامية إذا هي دخلت المعركة بشروطها الإيمانية، وبتميزها الحضاري وهويتها الإسلامية الصافية، فإنها - بإذن اللَّه - تنتج... عمرانًا حضاريًّا جديدًا، وأمنًا وسلامًا للعالمين)[٤]، إنها يقينية من يرى أن الدعوة الإسلامية بصيغتها الفطرية ستجد مكانها، وتصنع تيارها، لأن ما كان للَّه عاد فضله على كل عباد اللَّه[٥].

- **التجديد** بقصد البعثة المقبلة، إذ حين يعرض الأنصاري لسؤال: ألم يحن الأوان عند الحركات الإسلامية لتجديد مفاهيم بنية النص الشرعي وقيمه في المجتمع؟ ألم يحن الوقت لديها لتجديد النظر في الأساليب التربوية، والمنهجيات الدعوية؟ متى ستجدد الحركات الإسلامية نفسها بعد أن أصبحت غير قادرة على إعطاء ما لا تملك؟[٦]، فهو في الجوهر لا يلغي الحركات الإسلامية، بل يدعوها إلى أن تجدد نفسها؛ لأن الوقت وقت الضرورة.

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١٤).
(٢) نفس المرجع (ص ٢٣).
(٣) نفس المرجع (ص ٢٤).
(٤) نفس المرجع (ص ٢٣، ٢٤).
(٥) نفس المرجع (ص ٤٣، ٤٤).
(٦) نفس المرجع (ص ٢٤).

وإذا علم أن الواقع متغير، فإنه فقهه يحتاج إلى مراجعةٍ وتجديد شرط حضور اليقين بالنصر، وهو ما يمنع الذوبان في الواقع، ويحمي من الانتقال في فهمه إلى الوقوع فيه؛ إذ الدعوة مرتبطة بكل (ما تعلق بصحة الفعل الواقع في سياقه أو بطلانه)[١].

٢ - **التأصيل المنهاجي الثاني: فقه المصطلح:**

وقضية فقه المصطلح أو كما يسميها الأنصاري: «بين يدي هذا المشروع»، هي قضية فقه الجهاز المفهومي الذي تشتغل به الدعوة، ذلك بأن أزمة العمل الإسلامي هي أزمة تصور ومنهاج، أساسها ما وقع للعمل الإسلامي من أزمة في القاموس الاصطلاحي الذي تشتغل به، جهاز (كان له الأثر البالغ على توجهات التنظيمات الإسلامية، وعلى ميزان أولوياتها، فالألفاظ ليست بريئةً من الخلفيات الحضارية والمذهبية)[٢]، بل لها (آثار كبيرة على مستوى المنهاج والتصور للعمل الإسلامي)[٣].

وانطلاقًا من هذا التأصيل المنهاجي الذي يعرض له الدكتور، حاول أن يقف عند الفارق بين الحركة والدعوة، وأيهما المصطلح المعبر عن فطرة العمل الإسلامي. (وإنما فطرة العمل الإسلامي أنه دعوة لا حركة، وبين هذا وذاك فرق كبير، فمصطلح الدعوة لفظ قرآني أصيل، ومصطلح الحركة لفظ سياسي دخيل)[٤]. لذلك كانت الدعوة هي فعل تجديد الدين، ووظيفة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وفق التعبير القرآني والنبوي، إذ الدعوة عين المصطلح المستعمل في البيانات النبوية باطِّراد تام[٥] لا ينبغي العدول عنها؛ لأنها من مفاهيم الدين.

والقول بمفاهيم الدين يعني أن العبرة بالمفاهيم وليس بظاهر الألفاظ فقط، فقد يكون من التنظيمات أشكال تسمَّت باسمٍ هو من الألفاظ الشرعية الأصيلة

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٢).
(٢ - ٤) نفس المرجع (ص ٢٦).
(٥) نفس المرجع (ص ٢٦، ٢٧).

مثل الدعوة، ولكنها في الواقع حبيسة مفهوم الحركة، بحسب ما طبع تصوراتها المنهاجية والعملية لمفهوم العمل الإسلامي وطبيعته[١].

لذلك فإن من مقتضيات التدافع الحضاري فقه قيمة المصطلح في مفهومه، وهذا أمر إذا كان الدكتور قد عرض له من خلال كتابه « المصطلح الأصولي عند الشاطبي »، فإن عرضه لمصطلح الدعوة جاء من خلال بعض الموجِّهات المنهجية، أبرزها أن لفظ الدعوة لفظ:

- **جامع** لكل المعاني المشروعة، فهو تركيب اصطلاحي استعمل عند أهل الحديث، وكتَّاب السيرة، وعلماء الفقه، وسائر ضروب الإصلاح، فهو لفظ دال (في معنى تبليغ دعوة التوحيد، وأصل الدين الكلي،.. كما أنه مستعمل في الدلالة على الإصلاح الداخلي، والتجديد الديني لما انحرف من مفاهيم الدين وأحكامه في المجتمع الإسلامي أصالة)[٢].

- **مانع** من (دخول كل الإحالات المنحرفة والدلالة المختلة، التي قد تتسرب إلى العمل الإسلامي مع التعبير الدخيل)[٣]؛ إذ (الألفاظ ليست بريئةً من الخلفيات الحضارية والمذهبية)[٤]، وهذا يزيد العمل الإسلامي أصالةً ليس في تعابيره فقط، بل حتى في أفكاره وخلفياته ومذهبيته، ويحميه من الانزلاقات التي قد تحملها دلالة وحمولة الألفاظ الدخيلة.

- **قصدي** في دلالته، ذلك بأن (تميزه وتفرده بالمقاصد التعبدية)[٥]، تجعله دائمًا موجِّه لحامله ابتداءً ولمتلقِّيه انتهاءً، إذ ليس بعد ذكره من وضوح أكثر منه، فهو تعبير إلهي منزل وحيًا، دالٌّ (على طبيعة الرسالة القرآنية في الأرض تأسيسًا؛ وتجديدًا،... وما أرى العدول عن كلمات الرحمن إلى عبارات الإنسان، في مجال ديني تعبدي محض، إلا ضربًا من التحريف المفهومي لمقاصد القرآن)[٦].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٢).
(٢، ٣) نفس المرجع (ص ٢٧).
(٤) نفس المرجع (ص ٢٦).
(٥) نفس المرجع (ص ٢٧).
(٦) نفس المرجع (ص ٢٨).

وإذا تبين أن مصطلح الدعوة لفظ جامع مانع متفرد بالمقاصد التعبدية، فإن اعتماده قد يمحو عنه ما (ناله من التحريف المفهومي والتجزيء الدلالي، بحيث جعله مقصورًا لدى كثير من المستعملين له اليوم في الحقل الإسلامي الإصلاحي، على معنى الوعظ بمفهومه الخطابي ليس إلا)[1]، وهذا يعني أن المقصود بالتأصيل الاصطلاحي كأحد العناصر المنهاجية ليس (مقارنة ألفاظ، وتقليب معانٍ ودلالاتٍ، وبيان دقائق إشكالات، من أجل أمور لا تزيد ولا تنقص من أمر العمل الإسلامي شيئًا، أو ربما قيل فيها ما يقال أحيانًا في سياق الخلاف الفقهي، إذا اكتُشف أنه راجع إلى مجرد اختلاف لفظ، لا إلى مجرد حقائق الأحكام ومفاهيم العلم)[2]، بل الأمر عميق الارتباط بالمفاهيم الأساسية للعمل الإسلامي والدعوي، سواء من حيث مفاهيمه، أو من حيث أحكامه، أو موازين أولوياته، وكل ما تعلق بصحة الفعل الواقع في سياقه أو بطلانه[3].

٣ - التأصيل المنهاجي الثالث: فقه النص[4]:

وقضية فقه النص الشرعي أو كما يسميها الأنصاري: « النص الشرعي بين الحركة الإسلامية ودعوة الإسلام » هي قضية مركزية، والتصدير بها في المقدمات يعني أن لها من التأصيل المنهاجي الشيء الكثير، ذلك بأنه إذا كانت الفطرة - بحسب الدكتور - هي (الدين، وما الدين إلا وحي من اللَّه، وما الوحي إلا نص من كتاب اللَّه أو نص من سنة رسول اللَّه ﷺ، فآل أمر الدين كل الدين إلى أنه نص)[5]، وأن الدعوة بالمفهوم الشامل هي (الدين، والدين واضحةٌ معالمه، أصيلةٌ وسائله خاصةً على المستوى المنهاجي الكلي)[6]، فهذا يعني أن الفطرة

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٢٧). (٢) نفس المرجع (ص ٣١).

(٣) نفس المرجع (ص ٣٢).

(٤) انظر: كتاب (أبجديات البحث في العلوم الشرعية، محاولة في التأصيل المنهجي)، وكتاب (مفهوم العَالِمِيَّة من الكتاب إلى الربانية) وغيرهما.

(٥) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٣). (٦) نفس المرجع (ص ٣١).

هي الدعوة إلى الدين بأمر الدين، بل هي دعوة إلى النص والاشتغال بالنص، وفي النص لا حول النص[١].

والقول بكون الدعوة تنتسب إلى مدرسة النص، يعني (أن القرآن لم يترك المجال الدعوي هملًا بلا بيان، بل كان من أكبر المجالات التي اعتنى ببيانها وتدقيقها)[٢]، مما يستوجب فقه النص من أجل فقه الدعوة، ويكفي في ذلك ذكر وظائف الدعوة كما بينها القرآن في الكثير من الآيات، وهي وظائف (التلاوة والتزكية والتعليم) التي جُمعت في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢].

لذلك كان فقه الدعوة عند الأنصاري مرتبطًا بفقه النص، استنادًا على موجهات منهجية، أبرزها أن يكون:

- **النص غايةً ووسيلة**، ذلك بأن عمل الدعوة (مرتكز أساسًا على التعامل المباشر مع الوحي، تخلقًا بأخلاقه، وتحققًا بأحكامه وحكمه، ودعوةً للناس إلى الدخول في فلكه واستثمار مقاصده، فالنص مدار، يؤدي الدخول في محيطه إلى ابتلاء عملي للنفس، وسلوك تطبيقي في المجتمع)؛ لذلك تقرر أن (الاشتغال للدين في المجال الدعوي لا يكون إلا بالدين، إذ لا يتم التوصل إلى غايته إلا بوسيلته، فهو الغاية والوسيلة معًا)[٣].

- **الوسيلة مقيدةً بالنص**، ذلك بأن حرية الوسائل في المجال الدعوي ليست على إطلاقها أبدًا، بل هي مقيدة بالاشتغال بالنص اجتهادًا وتأصيلًا، وعدم ضبط هذا قد يؤدي إلى الانحراف عن منهاج الدين، وإلى الضرب بعيدًا عن أهدافه ومقاصده، بما يجعل بعض الحركات تتحول من مشروع ديني تجديدي إلى مجرد مشروع مدني لا يرتبط بالدين إلا قليلًا[٤].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٣).
(٢) نفس المرجع (ص ٣٤).
(٣) نفس المرجع (ص ٣٣).
(٤) نفس المرجع (ص ٣٤).

- الانفتاح على غير النص مقيدًا، إذ القول بضرورة إعمال النص في الدعوة غاية ووسيلة، لا يعني (عدم جواز الاستفادة من تجربة الآخر، ولكن بشرط ألا تكون المنقولات من صلب المنهاج وأركانه؛ لأن المنهاج هو الدين، بل يجب أن تخضع الاستفادة لمقاييس الدين استصلاحًا، حتى تصير جزءًا من الدين، وتدخل تحت سلطان النص، وتصير عملًا بالدين وتعبدًا للَّه رب العالمين)[١].

وإذا تبين أن فقه النص أمر لازم للعمل الإسلامي وللعاملين فيه، فإن هذا يعني أن (الجوهر الحقيقي والمبرر الأساس لوجود العمل الإسلامي إنما هو تجديد التلقي للقرآن الكريم رسالة اللَّه رب العالمين، القرآن من حيث حقائقه الإيمانية ومفاهيمه الشرعية مع استصحاب البيانات النبوية، لتنزيله متدرجًا على المنهاج الدعوي السليم، وتحقيق مناطاته في واقع الإنسان بما هو حركة عمرانية في الزمان والمكان)[٢].

٤ - التأصيل المنهاجي الرابع: فقه الإنسان:

وقضية الإنسان أو فقه رسالة الإنسان، بما هو مناط أو محل تنزيل الدين، أو الدعوة قضية أساس في فقه الدعوة، والتركيز عليها من بين مقدمات مشروع الفطرية، يعني أن هناك مواصفاتٍ لهذا الإنسان يلزم أن تتوفر فيه حتى يكون أهلًا لحمل رسالة الدعوة.

ذلك بأن العودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته تقتضي العودة به إلى مجال عمله، والاشتغال به في صلب وظيفته، وفي جوهر موضوعه ومحل خطابه، بما هو عمل ديني أساسًا يعبد اللَّه به أولًا وآخرًا، والإنسان هو محل هذا الخطاب في علاقته بربه، (ذلك بأن العلاقات التشريعية والتربوية الأفقية في الكتاب والسنة كلها آيلة إلى العلاقة العمودية، التي هي ربط العباد باللَّه)[٣].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٤).
(٢) نفس المرجع (ص ٣٦).
(٣) نفس المرجع (ص ٣٨).

لذلك فاهتمام مشروع الفطرية أو فقه الدعوة بالإنسان ليس اهتمامًا ثانويًّا، بل اهتمام أساس، وجب فيه الاعتبار بالموجِّهات المنهجية التالية:

- **الإنسان هو مجال الاستثمار الرئيس للدين**، إما أن يكون عبدًا للَّه أو متمردًا على اللَّه في إيمانه وعقيدته، أو عبادته وكسبه، أو تشريعه وقوانينه، أو علاقاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... (فالاستثمار الدعوي في الإنسان كفيل إذا استقامت الوسائل بضمان (نموذج عبد اللَّه)، وذلك هو المنهاج الفطري الذي جاء به القرآن)[١]، المنهاج الذي باستطاعته أن يخرج الإنسان القرآني المتفاعل مع النص فهمًا وتنزيلًا.

- **تشكيل الإنسان على موازين القرآن**، فإذا كانت قضية الفطرية هي العودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته، وأن قضية الإنسان هي العودة به إلى فطرته، فإن قضية الفطرية هي (إعادة تشكيل الإنسان على موازين القرآن، وذلك هو جوهر بعثات التجديد الإسلامي عبر التاريخ)[٢] لأن إنتاج الإنسان القرآني هو الكفيل بإنتاج كل شيء في وقته وإبانه.

- **إنسان الفطرية**، بما أن المشروع الإسلامي الشمولي هو المشروع القائم على شمولية القرآن في بناء الدين، أي القائم على بناء الأصول والكليات من الحقائق والمفاهيم، على جميع المستويات العقدية والإيمانية والعمرانية، فإن المهمة الأساس في العمل الإسلامي ليست في البرامج التفصيلية بما هي جزء من فقه مرحلة التمكين، بل المهمة تكمن في أن يكون الناس مسلمين لرب العالمين، إنه نموذج إنسان الدعوة الفطرية العالم الرباني الحامل لرسالة القرآن، الفقيه المجدد الداعية الحكيم (الإنسان الفاعل)، والإنسان المتلقِّي لخطاب الدعوة عن الإنسان الفاعل، حاملها عنه في مجال تخصصه كالمجال التعليمي، أو المجال الإعلامي، أو المجال الاقتصادي والسياسي (الإنسان المتفاعل)[٣].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٨). (٢) نفس المرجع (ص ٣٩).

(٣) نفس المرجع (ص ٤١).

إن الدعوة الإسلامية بصيغتها الفطرية المهتمة بالإنسان مجال الاستثمار الرئيس للدين، والمشكل على موازين القرآن، والمصطبغ بصبغة فطرية الدين الذي هو كله للَّه، لتجد نفسها وقد حققت جوهر الفعل الدعوي في كل مجال اشتغل فيه الإنسان لأنها أوجدت الإنسان الفطري صاحب رسالة القرآن، الذي تحل معه رسالات القرآن أينما حل وارتحل.

٥ - التأصيل المنهاجي الخامس: فقه ولاية اللـه:

وإذا كان واجب الوقت اليوم هو صناعة الإنسان وفق نموذج عبد اللَّه، فهذا يعني أن كل المشاريع الدعوية يجب أن تدور حول هذا المدار، ذلك بأنه إذا أخلص عبد اللَّه للَّه تولاه ونصره، ومن ثم كان التمكين لحركته وتدبيره، ذلك بأن العمل الذي يتولاه اللَّه يصل إلى غايته، و (تلك قاعدة كلية استقرائية تجري مجرى القوانين الراسخة في الكتاب والسنة)[١].

وبما أن (ولاية اللَّه باب الخروج الأوحد بالعمل الإسلامي من أزمته، وباب الوصول به إلى غايته)[٢]، فهذا يعني أن من ركائز فقه الدعوة - حسب الدكتور فريد الأنصاري - فقه سبل الوصول لكسب ولاية اللَّه في تدبير الشأن الدعوي، وهو أمر لا يتحقق إلا بـ:

- **الإخلاص في طلب ولاية اللَّه**، ذلك بأن كسب ولاية اللَّه لا تكون يسيرةً إلا لمن يسرها اللَّه له، إذ (اليسر فيه يكون على قدر ما أضمر العبد من الصدق للَّه في طلبه، والتجرد له في القيام بحقه ومراده)[٣]، والإخلاص للَّه دون سواه، وتوكله عليه. فإذا تحقق ذلك فإن (اللَّه يتخذ هذا الإنسان، أو تلك الدعوة، أو أولئك القوم من جنده وخاصته، بما رضي عنهم ورضوا عنه، وبما أخلصوا له العبادة والعمل، فعلًا وقصدًا، فتجردوا من كل الأهواء، وتخلصوا من كل الأدواء ظاهرًا وباطنًا، فجعلوا كل شيء للَّه)[٤].

(١، ٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤١). (٣، ٤) نفس المرجع (ص ٤٦).

- **مراقبة قصد اللَّه في التفكير والتدبير**، وتحرِّي مراد اللَّه من عباده في علاقتهم به وبدينه، بل في تحملهم لمهام الدعوة له، ثم مراعاة أولويات الشريعة كما عرضتها نصوص القرآن والسنة، ذلك بأن (آية التدافع الإصلاحي في القرآن تقضي)[١] بأن (تدبير شأن الدعوة في الأرض إنما هو من شؤون الربوبية، لا قيادة للإنسان فيه ولا ريادة، وإنما المؤمن فيه جندي من جنود اللَّه)[٢]. فمن فقه الدعوة الجمع عندها بين ثنائية الغيب والشهادة في تدبيرها؛ إذ التدبير الرباني والترتيب الإلهي لشأن الدعوة هو الأمر الثابت في القصص القرآني وفي السيرة النبوية، حتى تحوز الدعوة ولاية اللَّه.

- **اليقين بتمكين الدعوة عند ولاية اللَّه لها**، فإذا تبين مآل فقه ولاية اللَّه لعباده وأهل دعوته من خلال سيرة نبيه، حين كان يحفز أصحابه في أشد مضايق الابتلاء والاستضعاف، ويعدهم بالنصر والتمكين، وإذا اتضح مقصد ولاية اللَّه في تدبير شأن الدعوة وسبل حيازتها، سارع رواد العمل الإسلامي إلى طلب ولاية اللَّه وكسبها، وعرف حينها سبب فساد أجزاء كثيرة من العمل الإسلامي، وسبب خروجه عن مقاصده التعبدية، نظرًا لرفع ولاية اللَّه عنه تسديدًا وتأييدًا ونصرةً؛ بسبب إفساد أصحابه له، لحرصهم على تحقيق الذوات واستعراض العضلات[٣].

إن سرَّ وراثة الأرض قدر ثابت لا يتغير، وهو موقوف على عباد اللَّه الصالحين، الحاملين هَمَّ الدعوة والحائزين ولاية اللَّه لهم؛ لأن النصر والتأييد لا يكون إلا من عند اللَّه، ومن أراد عون اللَّه وَفَّرَ شروط كسبه، فتعلق قلبه وفعله به، فالإخلاص يوجب الولاية، ومن أخلص للَّه وجبت له ولاية اللَّه.

٦- التأصيل المنهاجي السادس: فقه السياسة:

وإذا كانت (الدعوة دين، والدين واضحة معالمه، أصيلة وسائله، خاصةً على

(١، ٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤٧). (٣) نفس المرجع (ص ٥١).

المستوى المنهاجي الكلي)[١]، فهذا يعني (أن المنهاج هو الدين)[٢]، وكل تصور يجب أن يخضع استفادةً لمقاييس الدين استصلاحًا؛ إذ الدين بما هو خضوع للَّه رب العالمين يتضمن تصوراتٍ ومواقف سياسية في كل شيء، من أصوله إلى أدق فروعه، إذ (السياسة سارية في الدين، سريان السمن في الحليب)[٣]، وفقهها يجب أن يكون على هذا المعنى، وأي انحراف حاصل في منهج الفهم يترتب عليه إما مقاطعة السياسة، أو (تجريد قضاياها في العمل الدعوي وعرضها على أنها هي الدين، أو أنها عمود الدين)[٤].

والفطرية بما هي (إسهام في العودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته، وأصل طبيعته)[٥]، تسعى منهاجًا إلى (إنتاج سياسة تسوس السياسة ولا تشتغل بالسياسة، أو بتعبير المناطقة: سياسة حاضرة بالقوة في كل شيء، وإن لم تحضر بالفعل في كل شيء، وبذلك تكون موجهةً لكل شيء)[٦].

وحتى يصل العمل السياسي - حسب الأنصاري - إلى مقاصده، كان لا بد أن يستند إلى موجهات منهجية، أهمها:

- **صنع السياسة بصناعة الدين**، ذلك بأن السياسة يلزمها أن تُصنع بصناعة الدين، لا أن يُصنع الدين بصناعة السياسة[٧]، والفرق بين المعنيين كبير، فإما أن يكون الدين أصلًا والسياسة فرعًا، أي أن يكون الدين مصدر إنتاج الحاكم، فيكون له الأثر البالغ في منتوجه على موازينه الشرعية ومقاصده التعبدية، وإما أن يكون الدين فرعًا والسياسة أصلًا، أي أن يكون الدين مجرد منتوج محكوم، خاضع لضرورات الفعل السياسي وأهوائه[٨].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣١).
(٢) نفس المرجع (ص ٣٤).
(٣، ٤) نفس المرجع (ص ٥٢).
(٥) نفس المرجع (ص ٢٥).
(٦ - ٨) نفس المرجع (ص ٥٢).

- **مصالح السياسة من مصالح الدين**، ذلك بأن تصور العمل الإسلامي للسياسة بالمعنى السابق ليس ضربًا من التنظير بل واقع مجرَّب، كان له (نتائج دعوية متميزة في مشروع تجديد الدين في المجتمع، وآثار واضحة في إرساء التوازن السياسي بأوطانها لصالح الدين وأهله، في سياق مشروع دعوي متدرج على موازين الأولويات الشرعية)[1]، فهو عين الفعل النبوي في بناء دعوة الإسلام، وهو قصد الفعل البشري عبر التاريخ في بناء العمل الإسلامي.

- **النظر في الكسب البشري من السياسة**، إذ الاستفادة من المكتسبات الإيجابية للعمل الإسلامي المعاصر - أثناء تفاعله مع السياسة في سياق تجديد الدين على موازين الفطرة - أمر لازم لتحقيق بعثة التجديد المقبلة. فهناك العديد من (الدراسات الواقعية والسياسية، مما أنجزه مفكرو الحركة الإسلامية الحديثة في العالم الإسلامي، وما أسهموا به من تحليل لمعطيات الواقع العالمي والإقليمي، ولما يتهدده من أخطار وأضرار، بما أنتج منهجًا متميزًا لفقه الواقع) يتوجب الاستفادة منه، إنه تراكم (لا مناص عنه للداعية في سياق تحقيق مناط الأحكام الدعوية، ومما يعتبر الإعراض عنه ضربًا من الجهل بطبيعة الدين)[2].

إن المقصود بالعمل السياسي في الدعوة الفطرية هو مخاطبة المشتغل به (بكلمات اللَّه، بعمقها الغيبي وامتدادها الأخروي، دعوةً وتوجيهًا، دون قصد إلى منافسته في غنائمه ومناصبه (...)؛ إذ المقصود في الدعوة الفطرية إنما هو الإنسان السياسي بشتى أطيافه (...)، (فهو) موضوع للعمل الدعوي، عسى أن يستعيد فطريته)[3].

لكل ذلك نقول: إذا حصل للعمل الإسلامي ذلك الاستيعاب لفقه الدعوة على الإجمال، تبينت له مظاهر وآيات التمكين؛ لأن تلك التأصيلات المنهاجية التي

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٥٣). (٢) نفس المرجع (ص ٥٤).

(٣) نفس المرجع (ص ٤٣).

سطرها الدكتور فريد الأنصاري في مقدمات نص الفطرية، لا يمكن أن يناقضها أو يخالفها أي منتسب للإسلام أو عامل له. وعدم إدراكها لا يعني قصورها، كما أن عدم إدراك بعضها لا يعني عجز العمل الإسلامي عن إدراك بقيتها؛ لأن التعطش لتمكين المشروع يقتضي المسارعة في تنزيلها، خاصةً وأنها من موجهات الدين للفرد والجماعة.

وبما أن الفطرية (لبنة جديدة في البناء الدعوي، ترمي إلى الإسهام في العودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته، وأصل طبيعته، وهي سيماء دالة على المقصود منه ابتداءً وانتهاءً، أخذًا من كتاب اللَّه وسنة رسوله اللَّه ﷺ، (... وهي) راجعة إلى الطبيعة الأولى، وإلى الهيئة الأصلية التي كانت للأشياء قبل خضوعها للتغير والتبدل، (إذ) الحاجة ملحة اليوم على العودة بالعمل الإسلامي إلى ذلك)[1]، فهذا يعني أن الأخذ بهذه التأصيلات المنهاجية، فعل مرشد للعمل الإسلامي كي يعود إلى فطرته بما هي دعوة في المبتدأ والمنتهى، فإذا تحقق للعمل الإسلامي فطرته (أي الرجوع به إلى أصل فطرته الدينية، وإلى طبيعته الشرعية الجامعة بين البساطة والعمق)، استوى ميزانه واستقامت أحكامه[2].

ذلك بأن فطرة العمل الإسلامي في المصطلحات والمفاهيم، تكمن في (إعادة الاعتبار لألفاظ القرآن الكريم، وللمصطلحات الشرعية عمومًا، بتجديد استعمالها بمفاهيمها الأصيلة، كما هي في الكتاب والسنة، لا كما هي جارية على ألسنة الناس)[3]، فـ (الدلالة الشمولية الكلية التي يتمتع بها مصطلح الدعوة، بما يتضمنه من مصدرية ربانية، وخلفية إيمانية عقدية، ومرجعية تربوية إصلاحية شاملة)[4] تعني (أن أمر الدعوة دين، والدين واضحة معالمه، أصيلة وسائله، خاصةً على المستوى المنهاجي الكلي، وليس كل الوسائل يقال فيها: إنها من

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٢٥).
(٢) نفس المرجع (ص ٣٢).
(٣) نفس المرجع (ص ٢٧).
(٤) نفس المرجع (ص ٣٠).

قبيل الاجتهاد، بل منها ما هو مرتبط بثوابت الدين، لا حاجة لنا فيه إلى أسلمة ولا استيراد أو اقتراض)[١].

أما فطرة العمل الإسلامي في المنهاج والتصور، فتكمن في إعادة الاعتبار لصلب المنهاج الإسلامي وأركانه، (لأن المنهاج هو الدين)[٢]، وكل تصور يجب أن يخضع استفادةً لمقاييس الدين استصلاحًا، حتى يصير جزءًا من الدين، ويدخل تحت سلطان النص، ويصير عملًا بالدين وتعبدًا للّه رب العالمين[٣]، فالدعوة - مثلًا - (لها مجال تداول شرعي أصيل، تحفه أحكام معينة، وأصول معينة، وآداب معينة، ونظام معين من المراتب والأولويات المقعَّدة شرعًا، والموثقة نصًّا، أو المقاربة اجتهادًا بقواعد العلم وموازين الشريعة)[٤]، وهذا من التأصيل.

إن الداعي إلى تخصيص النظر في التأصيلات المنهاجية لنص الفطرية، كونه نصًّا مؤسسًا، حرص من خلاله الدكتور فريد الأنصاري على ضبط دلالة مفاهيمه - رغم ما يظهر من بداهتها - اعتمادًا على العلم، ذلك بأن من الفقه بالعلم ضبط المفاهيم. والقصد من توضيح المراد من الأفكار التي يريد تبليغها لن يتحقق إلا بضبط المفاهيم، حتى يمنع عنها تعدد المعاني، إذ المفاهيم عندما تضطرب وتختلف التصورات في المجال الواحد، أو ربما تتناقض، تكون العودة إلى المنطلقات الأولى للمجال الذي يشتغل فيه أمرًا ضروريًّا.

كما أن تمكن الدكتور من الدرس الأصولي الفقهي، بمناهجه الاستصلاحية والاستحسانية المنضبطة إلى قواعدها الشرعية وتحقيقاتها الاجتهادية[٥]، وإعمال كل ذلك على العمل الإسلامي، هو من أتاح له عرض التأصيل المنهاجي للدعوة، وشجعنا على استخراجها واضحةً بينةً من نص الفطرية حتى لا يتبدد معناها بين التفاصيل، أو يحجب شعاعها بعض المواقف.

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣١).
(٢، ٣) نفس المرجع (ص ٣٤).
(٤) نفس المرجع (ص ٣٢).
(٥) نفس المرجع (ص ٣٤).

فهل سيختار العمل الإسلامي ما يعزز قوته ويسهم في ربط صلته بمرجعيته مصطلحًا ومفهومًا، تأصيلًا ومنهاجًا، فقهًا وفهمًا؟ أم سينفتح على تراث غيره تقليدًا واتّباعًا، لا انفتاحًا وتمحيصًا؟

* * *
* *
*

الفطرية من نحت المصطلح إلى صياغة البرنامج

د. حسن بوكير

يقوم المشروع الدعوي للدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللَّه - على ثلاثة أركان[١] هي: الفطرية والعَالِمِيَّة ومجالس القرآن. وهي أثافي متكاملة أخذًا وعطاءً، ومتناسقة نظمًا، فلا يمكن تناول أحدها بالنظر أو العمل به مجردًا عن الآخرَيْن، وهي من الأهمية العلمية بحيث تستحق المناقشة الجادة، والمداولة النقدية، والاستدراك البناء، والعمل وفق معالمها وتوجيهاتها عملًا يمحصها في مختبر الفعل الناجز، ومحك نفوس الأخيار والأبرار.

على أن التركيز سيقتصر هنا على **أُثفية الفطرية** من حيث هي مصطلح وعَلَم لمشروعه الدعوي، محاولًا مراعاة التكامل والتناسق الذي نَوَّهت به قبل، ثم سأعرض **لقضاياها، وأركانها، ومسالكها، ومعالمها، وبرنامجها** عرضًا مصحوبًا بتعليقات، وشروح، واستدراكات، وانتقادات متوخيًا الإيجاز في ذلك كله، وأختم بمختصر من **ورقة في استراتيجية العمل الفطري**[٢]، وهي من الأهمية بحيث لا يمكن فهم الفطرية - بما هي بديل من الأبدال - إلا بها ومن خلالها، فهي تؤسس لها من خلال الرسالة والرؤية، وتؤسس عليها مجالات العمل وبرامجها.

---

(١) يقول الدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللَّـه -: « إن مشروعنا هذا قائم على ثلاثِ مجموعات من التصانيف، جعلنا أغلبها ضمن سلسلتنا الدعوية (من القرآن إلى العمران)، المجموعة الأولى في منهج تجديد العلم ومفهوم العالِم، المجموعة الثانية في التأصيل النظري للعمل الدعوي، وهي راجعة إلى بيان طبيعة المنهاج الفطري...، المجموعة الثالثة في مجالس القرآن وتَلَقّي رِسَالاتِه، وهو العمود الفقري لمشروعنا الدعوي على المستوى التطبيقي خاصة...). الفطرية (ص ٥٦، ٥٧).

(٢) هذه الورقة لم ينشرها الدكتور فريد، وهي جد مختصرة، عنونها بالفطرية، أو ميثاق الفطرة رؤية في بعثة التجديد.

١- مصطلح الفطرية من الخصوص إلى العموم:

إذا كانت المدرسة المصطلحية بالمغرب رائدةً ومتميزةً وعتيقةً ودقيقةً وواضحة المنهج والمقصد..، فإن الدكتور فريد الأنصاري ركن من أركانها، ورائد من روادها، متقن لصناعتها، ومالك لمفاتيحها، بشهادة شيخه الدكتور الشاهد البوشيخي، الذي اعتبره دومًا من أبرز وأبرَّ من فهم عنه أصوله، وقواعده، وموجزاته الموجهة، فتوسع فيها - بما لم يؤتَه - بالمطولات والإسهابات، دون انحراف عن القصد ولا تجاوز للحد، قال في تأبينه: (فريد، وما أدراك ما فريد! اجتباه ربه وهداه، وأعده إعدادًا لخدمة كتاب مولاه، أتم عليه نعمة الأداة العلمية فكان حافظًا لكتاب اللّه ﷻ، متين التكوين في العلوم الشرعية واللسانية، وأتم عليه نعمة الأداة البيانية فكان من أمهر المهرة، وأخبر الخبراء باللسان العربي تبينًا وبيانًا، شعرًا ونثرًا، وأتم علَيه نعمة الأداة المنهجية فكان معلم (أبجديات البحث في العلوم الشرعية) وخريت الباحثين في المصطلح، قد محصه (المصطلح الأصولي عند الشاطبي) تمحيصًا...)[١].

فقضية المصطلح إذن هي من أهم الركائز العلمية والفكرية للراحل، إذ لم يفتأ يؤكد في كل مناسبة أن المفاهيم، والثقافات، والحضارات، إنما تتخلق في رحم المصطلحات أطوارًا، وأن مفاتيح العلوم والعقول والقلوب تثوي في لسان كل قوم، وما اللسان إلا نسق من المصطلحات، بل لا تجد له دراسةً إلا وللتدقيق المصطلحي فيها حضور وازن، يفصح من خلاله عن مراده، حتى لا تشتبه أغراضه أو يلتبس مراده على القارئ[٢].

---

(١) جريدة المحجة المغربية العدد (٣٣٠، ٣٣١)، كلمة العدد: للأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي (ص ٣).

(٢) انظر على سبيل المثال: المقدمة الثانية من كتاب الفطرية (بين يَدَيْ هذا المشروع! من « الحركة » إلى « الدعوة ») (ص ٢٥ - ٣٢)، والمبحث الأول من الفصل الأول بعنوان (« بعثة التجديد » دراسة في المفهوم) (ص ٦٣ - ٧٢)، والفصل الثاني من كتابه مفهوم العالمية (في مفهوم « العَالِم » و « العَالِمِيَّة »)، (ص ٦٢ - ٨٦)، ويعد كتابه (المصطلح الأصولي عند الشاطبي) نموذجًا واضحًا لذلك.

وهو قبل أن يختار ويسُكّ « مصطلح الفطرية » عنوانًا لمشروعه، ترددت عنده مصطلحات أخرى، وخاصةً مصطلحا: **الرسالية والقرآنية**، على اعتبار أن حضور الداعية الرسالي هو ضرورة ملحة للنهوض بواقع الأمة، وتداولية مفاهيم ورسالات القرآن هي الغاية من أي جهد تجديدي، لكنه مال عنهما؛ لما يتطلبه اعتماد أحدهما من مجهود كبير حتى يخلصهما مما علق بهما من معانٍ ودلالات تاريخية ارتبطت بجماعات وأفراد، وربما لا يفلح في ذلك تمامًا، وبعد مشاورات اطمأن قلبه إلى « مصطلح الفطرية » ذي المصدر القرآني الباعث على **الرسالية**، المقرر للمنهاج الدعوي كما هو في الكتاب والسنة.

لقد استعمل الدكتور فريد في البداية مصطلح « **التنظيم الفطري** » منتقدًا على الحركة الإسلامية تعقيدات التنظيم، وكثرة القوانين والأوراق والهياكل التي تفوق في كثير من الأحيان حجمها، وتبدد طاقتها في ما لا كبير طائل تحته، وفي المقابل تعز هذه الطاقة وهذا الوسع عند الغاية من قيامها (من دعوة، وتربية، وتعليم، وعلم، وإعلام، ومال، وعلاقات داخلية وخارجية). ثم بعد مناقشات ومُفاكرات عمم اصطلاح الفطرية من اختصاصه بالتنظيم، ليجعله نظريةً عامةً تسري في كل وحدات المشروع الدعوي الذي كان ينعته بالبعثة التجديدية.

ذلك ما بينه في مستهل كتاب « الفطرية »، مؤكدًا على أمرين اثنين هما بمثابة الدواعي والحجج الواقعية والفكرية لمنهجه الدعوي:

الأول: في أن الحرب على الأمة موجهة إلى تدمير فطرتها في كل مجالات الحياة في الأخلاق، والأذواق، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، وفي القيم، والتاريخ، وسائر أنماط العيش، إنها حرب على إنسانية الإنسان بما (لم يمر مثله في التاريخ بهذا العمق، وبهذه الإحاطة والشمول)[1].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٢).

والثاني: متعلق بمن يفترض فيهم القيام بانتشال البشرية مما يتهددها في كينونتها وفطرتها، إنهم العاملون في حقل الدعوة، الذين صار جلّهم يعانون من اضطراب في منهاج العمل الدعوي والتربوي على حد سواء؛ ولذلك هم عاجزون عن رفع التحدي العولمي، وعن تحقيق الوراثة في الأرض، (ولذلك كانت ورقات هذا البحث في تقرير « الفِطْرِيَّةِ »، بما هي منهاجٌ في العمل الدعوي، قائم أساسًا على أصول الفطرة، كما هي معروضة في القرآن الكريم والسنة النبوية، وبما هي محاولة لاستعادة دور الوحي التربوي والاجتماعي في النفس وفي المجتمع، الوحي الذي قام منهاجه الشمولي على هدف أساس، ألا وهو: تخريج نموذج « عبد اللَّه »! الذي هو مناط كل شيء في الدين والدعوة! على ما يقتضيه « مقام العبدية » الخالصة لله، من توحيد لرب العالمين في الاعتقاد، والثقافة، والاجتماع، والسياسة والاقتصاد، وفي سائر مجالات العمران البشري، بناءً على قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٢٩ - ٣٢])[1].

وبما أن الفطرية مشروع دعوي متكامل، وشامل، وموجه لكل الدعاة، فقد اعتنى صاحبه بتعريف مصطلح الفطرية في مواطن من كتبه ومقالاته بطريقة وظيفية، تسعى إلى بيان آثارها في النفس والمجتمع وجودًا وعدمًا، مستعملًا خطابًا دعويًّا قرآنيًّا نائيًا عن الطريقة النظرية الأكاديمية التي تستهدف النخبة فقط، موضحًا بأن (الفطرية مصدر صناعي أخذناه من الفطرة وهو دال بمصدريته تلك على معنى دعوي، أي على فعل واقع في الفطرة ومن أجلها سواء في النفس أو في

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٤).

المجتمع. ومن هنا سككناه مصطلحًا نعبر به عن مشروع دعوي عام، وعن تصور كلي للعمل الإسلامي)[١].

كما أعطى لهذا المصطلح معنىً جامعًا بين البساطة والعمق، واليسر والنجاعة، وتلك هي طبيعة هذا الدين، والمنهاج الذي أرساه الرسول ﷺ. يقول مؤكدًا هذه الخصيصة: « نادينا بفطرية العمل الإسلامي، أي الرجوع به إلى أصل فطرته الدينية، وإلى طبيعته الشرعية، الجامعة بين البساطة والعمق، سواء على مستوى المصطلحات والمفاهيم، أو على مستوى المناهج والتصورات؛ لأن بذلك - في نظرنا - يستوي ميزانه وتستقيم أحكامه »[٢].

ورغم تعامله الوظيفي والتبسيطي مع مصطلح الفطرية فقد حَدَّه بقوله: (الفِطْرَةُ بما هي « اسم هيئة » - كما يقول النحاة - هي الصورة النفسانية الأولى التي خلق اللَّه عليها الإنسان، بما سوَّاها عليه من توازن وكمال. أي قبل تدخل اليد البشرية العابثة فيها بالخرم والخدش)[٣].

وعلى هذا الأساس فللفطرة معنى تجريدي للوجود البشري فهي: الخِلْقة النفسانية الجمعاء، الكاملة، السوية، المتوازنة، التي خلق اللَّه عليها كل مولود، قبل أن تتدخل فيها يد المربين بالحفظ والصون أو بالعبث والخرم والتشويه والخدش. إنها (ذلك السر الكامن في قلب الروح، إنها الجوهر المكنون للخلق الإنساني، والسر المصون للوجود البشري، فهي أم اللطائف، ومرجع الأسرار في المعنى الوجودي لحقيقة « الإنسان »، بكمالها يكمل مفهوم الإنسان، وبنقصها ينقص معناه، وبانخرامها الكلي يخرج عن طبعه وحده إلى دَرَكِ المعنى البَهِمِيِّ لجنس الحيوان!)[٤].

٢ - الفطرة في نصوص الوحيين وشروح الأقدمين:

الفطرة مصطلح قرآني وحديثي معهود عند الأوائل ومَنْ بعدهم، وهو من الدقة

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٥). (٢) نفس المرجع (ص ٣٢).

(٣، ٤) نفس المرجع (ص ٩٥).

والعمق بحيث لا يسفر عن معناه إلا بعد تجريد وبيان قائمين على ثلاث زوايا للنظر، وعلى منظومة من العلاقات والقيم:

الزاوية الأولى: يُنظر من خلالها إلى ذات الوجود الظاهر والباطن، المشاهد والغيبي، في جبره واختياره، وموازين حسنه وقبحه، وفي أصل الخلقة أهو الخير أم الشر؟.. فالنظر إلى أفراد الوجود وحدةً وحدةً، وجنسًا جنسًا بتجريدها عن الفروق الشكلية اليسيرة يُمَكِّن من معرفة فطرتها، ومثال ذلك لو قلنا: إن القطط تأنس وتألف وتتودد لمن يحسن إليها فتلك فطرتها، بينها النمور فمتوحشة ولا تُؤمَن فتلك فطرتها أيضًا، على ما بين المخلوقين من تناظر شكلي، ولو قسنا على هذا المثال كل المخلوقات لصرنا إلى معرفة فطرة كل مخلوق على حدة.

الزاوية الثانية: تُرصد منها العلاقات والقوانين الفاعلة والمتفاعلة، الناظمة والمنظمة لأفراد ومكوناتُ هذا الوجود من تسخير، وتعاون، وولاء، وبراء، وسمع، وطاعة، وعداوة، وحذر، وإضلال، وإرداء، وحب، وكره...، وعلى أساس هذه القوانين والعلاقات والأحكام تختلف المجتمعات عن بعضها البعض، فالتي تسوس نفسها بالوحي تكون على الفطرة، وهي مجتمع النبيين والمرسلين وصحابتهم، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، أما ما عداه فهي مجتمعات تقترب أو تبتعد عن المجتمع الفطري بحسب تحقيق مقاصد وأحكام شرائع اللَّه - تعالى -.

الزاوية الثالثة: وهي أهم زوايا النظر، فهي تمكن الناظر البصير من فهم حقائق وأسرار كل هذا الوجود، بامتلاكه مفتاح التوحيد أصل كل وجود وكل علاقة بين الموجودات، وبينها وبين المتفضل عليها بالإيجاد في صورتها السوية البديعة، المنعم عليها بأسباب الحياة، الغامر لها برحمانيته ورحيميته، المرسل لها الرسل يهدونها إلى صراطه المستقيم، وغير ذلك مما يستحيل عده أو حصره، مما يوجب الشكر المتمثل في كل مظاهر الطاعات، وعلى رأسها إخلاص الدين له، ومخالفة الأهواء والضلالات، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣١ - ٣٤]. وقوله - تعالى - بعد أن عدّد أصنافًا من النعم الظاهرة والباطنة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

ومن خلال هذه النظرة ثلاثية الأبعاد تتجلى الفطرة في مجموع العلاقات والقيم المتولدة بين ثلاثة عناصر، هي:

الأول: اللَّه - تعالى - خالق كل شيء ومليكه.

والثاني: الخلق العاقل (الملائكة والإنس والجن).

والثالث: الخلق غير العاقل (الحيوان والنبات والجماد).

تنتج عنها ثماني مجموعات من العلاقات الحقوقية، والأحكام القيمية، تشهد لها كثير من آي الكتاب وسنة رسول اللَّه ﷺ[1].

وهذا المعنى التجريدي هو الذي دفع بالعلماء إلى تأويل كلمة الفطرة، تأويلات تختلف باختلاف ورودها في نصوص الوحي، فجاءت مرادفةً لمصطلحات أخرى كبيرة، وبعبارة أدق جاءت نسقًا من المفاهيم بينها خصوص وعموم.

ومن هذه المصطلحات: « الميثاق »، و « الدين »، و « الإخلاص »، و « خلق اللَّه »، و « السنة المحمدية »، و « الملة المستقيمة »، و « الخيرية »...

---

(١) وهي على الاختصار: حق اللَّـه على المكلفين، وحق اللَّـه على غير المكلفين، وحق المكلف تجاه نفسه، وحق المكلف تجاه المكلفين، وحق الخلق المكلفين على اللَّـه، وحق الخلق المكلف على الخلق غير المكلف، وحق الخلق غير المكلف على اللَّـه، وحق الخلق غير المكلف على الخلق غير المكلف، وحق الخلق غير المكلف على الخلق المكلف.

- فالميثاق وهو العهد الذي أخذه اللّه على بني آدم في عالم الذر، هو المقصود في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد: ٢٠]. قال قتادة: العهد الذي أخذ عليهم في صلب آدم، حيث قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

فهذا الميثاق المكنون في سر الخلق، هو أصل الفطرة التي فطر اللّه الإنسان عليها، والبقاء على أصل نقائها هو الوفاء للعهد الأول، ويحصل ذلك بحسن اتباع المرسلين، وستسأل كل نسمة استهلت في هذا الوجود بصراخ عن العهد الأول، كما تسأل عن عملها الذي عملته بعد بلوغ سن التكليف، فعن أبي مسعود، عن جويبر قال: (مات ابن للضحاك بن مزاحم، ابنَ ستة أيام، قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابني في لحده، فأبرزْ وجهه، وحُلّ عنه عقده، فإن ابني مُجْلَسٌ ومسؤول! ففعلت به الذي أمرني، فلما فرغت، قلت: يرحمك اللّه، عمّ يُسألُ ابنك؟ مَنْ يسأله إيّاه؟ قال: يُسْأَل عن الميثاق الذي أقرّ به في صلب آدم عليه السلام. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس أن اللّه مسح صلب آدم، فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، وتكفّل لهم بالأرزاق، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطي الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفَى به نفعه الميثاق الأوّل، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يفِ به لم ينفعه الميثاق الأوّل، ومن مات صغيرًا قبل أن يدرك الميثاق الآخر **مات على الميثاق الأول على الفطرة**)[1].

فالفطرة، أو العهد، أو الميثاق الأصلي الأول هو الذي يفسر هذا النظام

(١) رواه الطبري في تفسيره للآية (١٧٢) من سورة الأعراف.

العظيم في الكون وفي عالم الناس، وهذا التوافق البديع، وهذا العرف البشري الذي لا يتخلف في الزمان والمكان، فلا نحتاج - مثلًا - أن نثبت أن قيم الصدق والإتقان والأمانة... ضرورية لحياة الناس، ذلك بأن الكذّاب يكره أن يُكذب عليه، والغشاش لا يحب أن يُنصب ويُحتال عليه، والخوان يحرص أن تؤدى إليه أمانته...، فهؤلاء وأمثالهم رغم أنهم يضادون الفطرة وينكتون العهود والمواثيق بسبب أنانيتهم، لكنهم في قرارة جبلتهم غير راضين عن عملهم، وكثير منهم يخزه نداء الفطرة الذي يسميه البعض « ضميرًا »، وهو في ذاته دليل على العهد الأول والفطرة، فحيثما اطرد الشيء دل على أنه قانون وآية.

- والدين بمعنى الإسلام، من المصطلحات التي جاءت في كثير من النصوص مرادفةً لمصطلح الفطرة، ومن هذه النصوص قول اللَّه تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٢٩ - ٣٢] فإقامة الوجه للدين والاستقامة عليه، والميل إليه عن غيره من الضلالات والأهواء، يحفظ الفطرة من التغيير والجروح والخدوش، فطرة التوحيد التي جاءت الأنبياء والمرسلون بها على السواء، وختم سيدنا محمد ﷺ بناءها، فالدين الخاتم هو الفطرة وبه حفظها، وكل الشرائع فرضت لصونها. فعن أبي أيوب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **لا تزال أمتي بخير، أو قال: على الفطرة ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم** »[1]، وعن شقيق قال: إن حذيفة رأى رجلاً لا يتم ركوعه ولا سجوده، فلما قضى صلاته دعاه، فقال له حذيفة: ما صليت. قال: وأحسبه قال: ولو مت مت على غير الفطرة التي فطر

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في وقت المغرب، رقم الحديث (٣٥٤).

اللَّه محمدًا ﷺ[١] وفي رواية:...ولو مت مت على غير سنة محمد ﷺ[٢]، وعن أنس قال: كان النبي ﷺ يغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذانًا أمسك وإلا أغار فسمع رجلًا يقول: اللَّه أكبر اللَّه أكبر. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **على الفطرة** ». ثم قال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه. قال رسول اللَّه ﷺ: « **خرجت من النار** ». فنظروا فإذا هو راعي معزى[٣].

فالحفاظ على الصلاة والمحافظة عليها في وقتها، وهو الممثل له - في حديث أبي أيوب - بصلاة المغرب؛ لأن وقتها ضيق، فدلت بدلالة الأولى على غيرها من الصلوات المفروضة، وإقامتها بإحسان ركوعها وسجودها وباقي أركانها، وإتمام شروطها، وشعارها الذي هو الآذان هو إقامة للدين كله، وللفطرة ولسنة محمد ﷺ، وهو ما فقهه الصحابة الكرام، فعن مالك عن نافع مولى عبد اللَّه ابن عمر، أن عمر بن الخطاب كتب إلى عماله: (إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع)[٤].

- **والسنة المحمدية**: أي ما صدر عن رسول اللَّه ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات، ولا تعدو أن تكون أمرًا أو فعلًا يصون الفطرة ويقيمها على أساسها وجوهرها، فعن شقيق قال: إن حذيفة رأى رجلًا لا يتم ركوعه ولا سجوده، فلما قضى صلاته دعاه، فقال له حذيفة: ما صليت. قال: وأحسبه قال: ولو مت مت على غير الفطرة التي فطر اللَّه محمدًا ﷺ عليها[٥]. وفي رواية:... ولو مت مت على غير سنة محمد ﷺ[٦] فبالجمع بين الروايتين تكون الفطرة هي السنة المحمدية.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب إذا لم يتم الركوع، رقم الحديث (٧٤٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب إذا لم يتم السجود، رقم الحديث (٣٨٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سُمع فيهم الأذان، رقم الحديث (٥٧٥).

(٤) موطأ مالك، كتاب وقوت الصلاة، باب وقوت الصلاة، رقم الحديث (٥).

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب إذا لم يتم الركوع، رقم الحديث (٧٤٩).

(٦) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب إذا لم يتم السجود، رقم الحديث (٣٨٦).

فإذا كانت الفطرة هي دين اللَّه وملته القويمة، والخلقة الكاملة التامة النقية كما تحدث عنها الوحي، وبما أن الغالب على الناس إدراك المفروكات دون المعقولات، فقد بعث اللَّه نماذج مجسدةً للفطرة والدين، متمثلةً في سيرة الأنبياء والمرسلين الذين ترجموا ما أوحي إليهم، فكانوا وحيًا يمشي على رجليه، يبصره البصير ويلمسه الأعمى؛ لذلك أمر اللَّه - تعالى - كل الخلق بالاقتداء بهداهم، واتباع سنتهم ومحجتهم البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

- **والملة المستقيمة**: وهي مقابل الملل العوجاء، وهي **الصراط المستقيم** الذي فسر بالسنة المحمدية وبالقرآن وبالإسلام، ففي حديث ابن نمير عن رسول اللَّه ﷺ: « **ما من مولود يولد إلا وهو على الملة** ». وفي رواية أبي بكر عن أبي معاوية: « **ما من مولود يولد إلا على هذه الملة حتى يبين عنه لسانه** »(١). فملة الإسلام هي الفطرة التي يُخلق عليها كل المواليد.

- **والإخلاص**: عين الفطرة وسرها، فكل مظاهر الدين وأشكاله وصوره لا قيمة لها بدون إخلاص: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]. وعن يزيد بن أبي مريم قال: مرّ عمر بمُعاذ ابن جبل، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهنّ المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة. فقال عمر: صدقت.

وإخلاص الدين للَّه - تعالى - أمر لا يعلمه إلا هو؛ ولذلك أمرنا أن نحكم بالظاهر واللَّه يتولى السرائر، وهو من أهم ما ربى عليه الرسول ﷺ الصحابة الكرام، فقد نهاهم عن قتل من ألقى إليه السلام، ونطق بالشهادتين؛ لأننا لا نشق على القلوب. كما نهى عن اتهام الناس بالنفاق أو الفجور، فعن ابن عائذ قال: خرج رسول اللَّه ﷺ في جنازة رجل، فلما وُضِعَ قال عمر بن الخطاب ﵁: لا تصل عليه

(١) رواه مسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

يا رسول اللَّه، فإنه رجل فاجر، فالتفت رسول اللَّه ﷺ إلى الناس فقال: « **هل رآه أحد منكم على عمل الإسلام؟** »، فقال رجل: نعم يا رسول اللَّه حرس ليلة في سبيل اللَّه. فصلى عليه رسول اللَّه ﷺ وحثا عليه التراب، وقال: « **أصحابك يظنون أنك من أهل النار وأنا أشهد أنك من أهل الجنة. وقال: يا عمر، إنك لا تسأل عن أعمال الناس ولكن تسأل عن الفطرة** »[(١)]. أي عن الإخلاص وهو من الأسرار.

- **خلق اللَّه**: فالفطرة هي الخلقة البشرية في كمالها حين تخضع وتنقاد للدين فتصطبغ به، وتنظر من خلاله إلى الوجود كله، وتزن بموازينه الحنيفة التي لا عوج فيها ولا أمتًا، قال اللَّه - تعالى - مخبرًا عن ادعاء إبليس اللعين: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩][(٢)]. أي فليغيرن دينه وفطرته. وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[الروم: ٣٠].

وبما أن الفطرة هي الخلقة في أصالتها، وحتى لا تختلط على الناس معانيها فيظنون أن ما يتدخل فيه الإنسان من التشذيب والتهذيب لبعض الأجزاء من جسمه أو لبعض الأفعال التي قد ترى مخالفةً لها، جاءت الأحاديث النبوية مبينةً أنها من خصالها، من مثل قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق

---

(١) رواه البيهقي في كتاب شعب الإيمان، الباب السادس والعشرون من شعب الإيمان، وهو باب في الجهاد.

(٢) اختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ على قولين: القول الأول، بإخصاء الدواب والعبيد. وهو قول أنس بن مالك، وابن عباس وعكرمة وغيرهم، وذهب آخرون بتغيير دين اللّـه وفطرته، كما ثبت عن علي وابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة، فعن معاوية عن علي عن ابن عباس قال: ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾، قال: دين اللّـه. وعن عبد اللّـه بن كثير أنه سمع مجاهدًا يقول: ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾، قال: دين اللّـه. وعن القاسم بن أبي بزة، عن مجاهد وعكرمة قالا: دين اللّـه. وعن ليث عن مجاهد قال: دين اللّـه. ثم قرأ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠]. وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾، قال: الفطرة دين اللّـه. انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٢٣٠).

الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، والاستنجاء[١]، بينما اعتبر أعمالًا أخرى مخالفةً للفطرة كالتي يأمر بها الشيطان لتغيير خلق الله ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٩ - ١٢٠].

٣ - أركان ومسالك وبرنامج الفطرية:

لم يتوقف الدكتور فريد عند سَكّ مصطلح الفطرية، بل وطّأ له بمقدمات وبديهيات في أسلوب حجاجي يسعى إلى إفحام المخالفين، وإقناع المترددين، حتى يلجوا إلى قضايا الإصلاح والتجديد بكل عزم وحزم، كما هي مفصلة في الأبدال العملية في كتاب « **الفطرية** » مبينًا أركانها، ومسالكها، ومتعلقاتها، خاتمًا كل ذلك ببرنامج أشبه ما يكون بكتاب « رياض الصالحين » الذي كان معجبًا بمنهج تأليفه، وبشخصية مؤلفه أبي زكرياء النووي، بل وبطريقة كل علماء الحديث في الترجمة للكتب والأبواب والفصول، ففقههم -كما هو مقرر عندهم- في تراجمهم وحسن تبويبهم وتصنيفهم للأحاديث.

أركان الفطرية ستة وهي:

- الإخلاص مجاهدة:

الفطرة هي عين الإخلاص، كما تقدم، فاللَّه - تعالى - خلق الناس حنفاء فاجتالتهم الشياطين ولكزتهم في جنوبهم؛ لذلك وجب مجاهدة النفس للحفاظ

---

(١) عن عائشة - رضي اللّه عنها - قالت: قال رسول اللّه ﷺ: « عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء». يعني الاستنجاء، قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. رواه مسلم. وفي رواية « الختان » بدل « إعفاء اللحية »، لم أجد هذه الرواية في « الصحيحين » ولا في كتاب الحميدي، ولكن ذكرها صاحب « الجامع » وكذا الخطابي في « معالم السنن ».

على نقائها الأصلي، بإخلاص التوحيد لله رب العالمين قبل أي عمل وأثناءه وبعده، ووجب تحرير القصد له في كل الأعمال، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

(ولذلك وجب أن يُجعل الإخلاصُ - كما جعله الله في كتابه، وبَيَّنَهُ الرسولُ في منهاجه - مدارَ الدين والدعوة جميعًا، وإلا صار العمل الإسلامي كله إلى انحراف وضلال. إلا أن إخلاص التوحيد ليس مجرد معلومات تُلَقَّن، ولا منظومات تُستظهر، بل هو حقيقةٌ إيمانيةٌ عظمى، وخُلُقٌ قرآنيٌّ عميق، لا يُنال إلا بمجاهدة ومكابدة!)[1].

- الآخرة غاية:

إن الإيمان باليوم الآخرُ رديف للإيمان بالله - تعالى - في عشرات الآيات القرآنية ومئات الأحاديث الصحيحة، على نحو ما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]. وقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ١٢٦]. وقول الرسول ﷺ: « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلةٌ وضيافته ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة ولا يحلُّ له أن يثوي عنده حتَّى يحرجه** »[2]، وعن أم حبيبة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر تحدُّ على ميِّتٍ فوق ثلاثٍ إلَّا على زوجٍ أربعة أشهرٍ وعشرًا** »[3].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١١).

(٢) موطأ مالك كتاب الجامع، باب جامع ما جاء في الطعام والشراب، حديث رقم (١٤٥٤).

(٣) صحيح البخاري كتاب الجنائز، باب إحداد المرأة على غير زوجها، حديث رقم (١٢٠٢).

لأن الإيمان باليوم الآخر هو القائد للمؤمن في كل أعماله، وعلى قدر هذا الإيمان تصلح أعمال الفرد والجماعة أو تفسد. (ولذلك كان هذا البيان النبوي العجيب في رسم طريق الآخرة للمؤمنين، قال - عليه الصلاة والسلام -: « **من كانت الآخرة همَّه جعل اللَّه غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدُّنيا همَّهُ جعل اللَّه فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدُّنيا إلاَّ ما قدِّر له** »[1] فالحضور الأخروي الدائم في وجدان المؤمن يجعله آمنًا من فتن الشهوات، ومن بريق الإغراءات، التي تفسد الدعوات وتدمر الحركات!)[2].

- القرآن مدرسة:

وما أدراك ما مدرسة القرآن! ما من داخل صادق لها إلا اصطبغ بصبغة اللَّه، ومن أحسن من اللَّه صبغة، صبغة جلية في حياة أهل اللَّه وخاصته، والقرآن كلام اللَّه المنزل على رسوله، المعجز لفظًا ومعنى، المتعبد بتلاوته، المحفوظ من التغيير والتبديل؛ وقد بين الحق سبحانه ثلاث طرائق لتلقِّي أنواره ورسالاته، وهي: التلاوة والتعليم والتزكية قال - سبحانه -: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال جل من قائل ممتنًّا على المؤمنين: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. (إن هذه المدرسة تشتغل بالقرآن كما اشتغل به رسول اللَّه ﷺ فهو الصبغة العامة للفطرية، بما هي قائمة أساسًا على تلقّي رسالات القرآن، سواء عبر برامج الربانية أو عبر مجالس القرآن. وقد تبين ألا إمكان لإصلاح الفطرة الإنسانية إلا بالقرآن؛ لأنه إنما أُنزِلَ أساسًا لهذا القصد الرباني العظيم)[3].

---

(١) أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعًا، وصححه الألباني، حديث رقم (٦٥١٠) في صحيح الجامع.

(٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١١، ١١٢).

(٣) نفس المرجع (ص ١١٣).

- الربانية برنامجًا:

الربانية صفة العلماء الحكماء الفقهاء الأتقياء، الذين يربون الناس ويصلحون شأنهم بتعليمهم الخيرَ ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، ويلون أمورهم ويسوسونها بالقيام فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. ولتخريج الربانيين لا بد من برنامج كفيل بتخريجهم، وصفه الدكتور فريد بقوله: (لذلك جعلنا لها برنامجًا قرآنيًّا خاصًّا، استقريناه من مجموع الآيات الدالة على أخلاق الربانيين، وخصوص منازلهم الإيمانية، وما تقتضيه من العلم والحكمة، معزَّزًا بالبيانات النبوية، الرامية إلى تخريج أئمة الهدى في الدين)[١].

وبرنامج الربانية من حيث هيكله يحاكي كتب الحديث (الجوامع الصحاح والسنن والمستدركات) في تبويبها وتراجمها، يبدأ بالترجمة لكل باب بما يناسب من الفقه التربوي الرفيع، المستنبط من الأصلين سماه **رسالة**، ويجمع لكل رسالة من الكلمات القرآنية ما بها يصح إدراك التراجم، ثم يبين **الكلمات القرآنية بالبيانات النبوية**، وهكذا دواليك في أربع وعشرين بابًا باحتساب البيان الجامع[٢]، وهو من حيث مضمونه ورسالاته لا يخرج عن أركان الفطرية الستة.

كان الدكتور فريد رجلًا عمليًّا لا يكتفي بالنقد وعرض النظريات الدعوية ومحاولة الإقناع، بل جهَّزها ببرامج الربانية، كما حاول تجهيز مجالس القرآن بتفسير منهاجي للقرآن، وقد كان يسابق فتك المرض بعافيته لكتابة تفسير للقرآن

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١٣).

(٢) وهذه الرسالات هي: (الإخلاص، اليوم الآخر، واجب الوقت وهو التبليغ، المنهاج وأن مَدَارِجَ « الربانية » الحقة أساسُ الإمامة الدعوية، الرَّبَّانِيَّة، بيوت اللّـه، حقوق اللّـه المالية، الدَّعْوَة دِينٌ، الوظائف الدعوية، مَجَالِسِ القُرْآنِ، الإخلاص الدعوي، الدعوة خُلُقٌ، البلاغ الحكيم، التفويض الدعوي، الاعتصام بالكتاب والسنة، الابتلاء، فتنة الزعامات، فتنة العُجْبِ التنظيمي، فتنة النساء، فتنة المال، الاقتصاد في العيش، المكفِّرات المطهِّرات، دعاء الأمان وكاشف الأحزان، وأخيرًا البيان الجامع).

الكريم من فاتحته إلى سورة الناس[١]، وفق منهج التدبر والتدارس الذي بيَّن معالمه في كتيب مجالس القرآن، لكن المنية عاجلته فلم يفسر سوى جزء منه[٢].

- العلم طريقة:

والعلم المقصود هو العلم الشرعي الذي يحقق وراثة النبوة، قال ﷺ: « **من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك اللَّه به طريقًا من طرق الجنَّة. وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، رضًا بما يصنع. وإنَّ العالِم ليستغفر له من في السَّموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء. وإنَّ فضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء. وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ..** »[٣].

ولا ينال ذلك إلا من جرد القصد للَّه - تعالى -، وكان ذا عزيمة قوية لا تلين قناتها، وشمر لذلك، واسترخص كل شيء من أجل طلب العلم الشرعي بمنهجية علمية رصينة، مبلغة إلى أعلى الدرجات، فالدعوة التي لا يقودها العلماء تزيغ بها الأهواء وتسيطر عليها الخرافات. فـ (العلوم الشرعية أساسًا، ومناهجها

---

(١) تردد - رحمه اللَّـه - في اختيار أي المسالك سيبدأ منها تفسيره، هل يبدأ من الفاتحة فالبقرة إلى أن يصل إلى الناس؟ أم سيركز على المفَصَّل لأنه الأكثر تلاوةً في الصلوات؟ لكنه عزم في الأخير على البدء بتفسير الطوال، لكنه لم يدرك ما أراد فلا حول ولا قوة إلا باللَّـه العظيم، وإنا لنرجو من اللَّـه أن يقيض لهذا التفسير رجلًا أو رجالًا علماء ربانيين حكماء، يكملون ما شرع فيه الدكتور فريد وفق منهجه وأسلوبه، فيكوِّنون مدرسة رأسها الدكتور الشاهد البوشيخي ولسانها المبين الدكتور فريد الأنصاري، وهم تمام منتهاه، تمامًا كما فعل الشيخ رشيد رضا لما سعى إلى إتمام تفسير المنار الذي بدأه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

(٢) فسر - رحمه اللَّـه - سورة الفاتحة والبقرة، وآيات من فواتح سورة آل عمران إلى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٣٠]. وسور: الفرقان، ويس، والحجرات، والذاريات، والنجم، والطور، وق. انظر ذلك في: كتاب مجالس القرآن الجزء الأول والثاني.

(٣) رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، عن أبي الدرداء. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم (٦٢٩٧).

الاستدلالية والاجتهادية، وقواعدها النقدية والتأصيلية، هي المسلك الأساس لبناء علم الناس بالله وبدينه، عقيدةً، وشريعةً، وتربيةً، وسلوكًا. فلا مكان في الفطرية للخرافية، ولا للأهوائية الشخصانية. ومن هنا وجب أن تحمل رسالات الفطرية - لكل المسلمين - الحد الأدنى من العلم الشرعي، الذي لا يُعبد الله إلا به عقيدةً وشريعةً)[1].

- الحكمة صبغة:

والحكمة هي وضع الشيء في محله، واتخاذ الموقف الصواب في الوقت المناسب بالقدر المناسب لمن يناسب، فالعلم بالأحكام لا يغني عن التصرف بالحكمة، الموفَّق هو من كانت الحكمة له صبغةً، ولكم عانى العمل الدعوي وما يزال يعاني المصائب والطامات التي أوردته موارد الهلاك بسبب افتقاد قياداته للحكمة، نعم قد تكون مُخلصةً، بل وعالمةً بالحكم الشرعي، لكنها تضل بسبب افتقادها للحكمة، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. **والسبيل إليها يكون بأمرين؛ وهبي وكسبي:**

(**فأما الكسبي** فهو: الفقه في الدين بمعناه المنهجي، وخاصةً منه ما يسمى عند الأصوليين بفقه « تحقيق المناط » عَامِّهِ وخاصِّه، ويدخل فيه فقه الأولويات، وفقه الموازنات، وما يندرج فيهما من قواعد التدرج والتلطف والتترس.

وأما الوهبي فهو: راجع إلى التخلق بمقامات التقوى والورع؛ إذ هي سبب وضع المؤمن في منـزلة التعرض لنفحات الله، التي تفتح البصائر وتنير السرائر. وهو معنى الفرقان في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وكذا قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢][2]).

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٣١).

(٢) نفس المرجع (ص ١١٣).

وقد كتب فقيه الدعوة المعاصرة الأستاذ أحمد الراشد موسوعةً تفيد في هذا الباب، ومنها كتابه « أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة »، وهو جدير بالمدارسة في صفوف العاملين في حقل الدعوة.

أما مسالك الفطرية المؤدية إلى فيحائها فثلاثة، وهي:

- التزام مجالس القرآن باعتبارها محاضن تربوية لتخريج العلماء الربانيين، وإصلاح ما فسد أو اعوج من الفطرة.

فقد ثبت أن للقرآن أثرًا فعالًا مجربًا في العودة بالمسرفين على أنفسهم إلى خلقتهم الأولى، مهما نأت بهم المعاصي عن اللَّه، وطوحت بهم الأهواء في سديم الحيرة والتعاسة، ولا أدل على ذلك من واقع حال التائبين الآيبين، بدءًا من جيل الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - وصولًا إلى زمن الحيرة العولمية...

إن محاضن القرآن دائمة العطاء والتأثير، تؤتي أكلها كلما دخلها أو جاورها أهل اللَّه وخاصته، والفقراء المحتاجون لرحمة اللَّه من عامة الناس؛ لذلك وجب أن تنبت في كل شبر من الأرض حتى لا يحرم خيرها أحد تقريبًا لها منهم.

- دعوة الناس إلى اللَّه والعيش مع كلامه، وتأسيس وتوسيع مجالس القرآن.

لأن الدعوة هي وظيفة الأنبياء: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. ولأجلها اصطفاهم اللَّه وأوحى إليهم، وجعلهم حجته على الخلق: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]. والدعوة إلى اللَّه عنوان يجب على الدعاة تحقيقه بتمحيض الوجهة للَّه دون غيره من الأفراد، والأحزاب، والتنظيمات على وفق ووزان الأحزاب والتنظيمات الأرضية، التي ترنو إلى تكثير العدد الذي يحقق لها مكسبًا دنيويًا وعرضًا زائلًا، وكثيرًا ما تختلط المقاصد وتتحول القبلة، ويحسب الناظر في المرايا أنه على شيء، وأنه يحسن صنعًا والحقيقة غير ذلك، والصوى في ذلك عرض القلوب والأعمال على كتاب اللَّه وسنة رسوله بكل

صدق وتواضع: « **وما يزال الرَّجل يصدق ويتحرَّى الصِّدق حتَّى يكتب عند اللَّه صدِّيقًا** »[١].

- التزام الرباطات:

من صلاة وذكر، وحفظ اللسان، والبعد عن المنهيات خاصةً الشركيات والخرافيات، والمال الحرام، والزنا ومقدماته ومظاهره، والمسكرات والمفترات[٢].

ففي الحديث الصحيح من رواية أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: « **ألا أدلُّكم على ما يمحو اللَّه به الخطايا ويرفع به الدَّرجات؟** » قالوا: بلى يا رسول اللَّه. قال: « **إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة. فذلكم الرِّباط، فذلكم الرِّباط، فذلكم الرِّباط** »[٣].

وسر القبول ومنهج الوصول من خلال هذه المسالك إلى رضوان اللَّه وجنانه، إخلاص الدين لرب العالمين، والتخلق، والتحقق من كل فعل اجترحته الجوارح، وكل كلمة نطق بها اللسان أو جالت بالجنان، وأن تكون موافقةً للسنة المحمدية.

٤- استراتيجية العمل الفطري:

ولم يتوقف الدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللَّه - عند هذا الحد، بل أعد ورقةً في استراتيجية العمل الفطري[٤]، ورقة بنيت على أساس من التخطيط

---

(١) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم الحديث (٤٧٢١).

(٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٤٠، ١٧٨). انظر: المسلك الثالث من مسالك الفطرية (رِبَاطُ الفطرية) (ص ١١٩ - ١٤٤).

(٣) رواه مالك في موطئه كتاب النداء للصلاة، باب انتظار الصلاة والمشي إليها، رقم الحديث (٣٤٨). ومسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم الحديث (٣٦٠).

(٤) تم التركيز على بعض عناصر الورقة هنا، في حين تركت نقطًا أخرى إلى وقت لاحق.

الاستراتيجي بتحديد الرؤية والرسالة والمجالات الاستراتيجية، والفرص المتاحة والإمكانات والتحديات والمعيقات... وهو ما يدل على أنه طُلَّعَةٌ مستوعب لما يكفي من أصول التخطيط الاستراتيجي والبرمجة العلمية.

وهي ورقة تنم عن عمق في الرؤية والتحليل، فهي شديدة الاختصار، موجهة إلى من استوعب المشروع وآمن به، وصدّق عملُه ما خالج قلبَه، فليس فيها ما في غيرها من كتبه من مطارحات وانتقادات وأدلة على الادعاءات والآراء، وتقليب لأوجه النظر.

يقول - رحمه اللَّه -: (الرؤية: العمل على إقامة الوجه للدين حنيفًا، بإصلاح النفس وتخليصها من الأهواء، حتى يقوم صاحبها عبدًا خالصًا للَّه. والإسهام في تجديد دين الأمة على أساس الفطرة، وتأهيلها لحمل رسالتها واستئناف شهادتها على الناس).

فالملاحظ أن هذه الرؤية المستوعبة لآفاق العمل الدعوي الفطري، الذي يسعى إلى إقامة الدين في النفس والأمة بالتخلية والتحلية؛ تخلية النفس من الأهواء وتحليتها بالإخلاص، وتخلية الأمة من التقليد والجمود، وتحليتها بدين الفطرة، وحملها لرسالتها على أساس الشهود الحضاري على كل الناس.

وأما الرسالة فتتحدد في تلقِّي رسالات القرآن الكريم، والتخلق بهداه على المستوى الفردي بما يرجع به إلى فطرته، ثم العمل على إنتاج تداول اجتماعي لحقائقه الإيمانية، ومفاهيمه العلمية والعملية، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا وتعليمًا.

ونهوضًا بمجالات العمل الإستراتيجي، وتطبيقًا لفكرته المقصودة، واستفادةً من إمكاناته المتاحة وفرصه المتوفرة، وتلافيًا لعوائقه الذاتية وتحدياته الخارجية، يرى وجوب القيام بالمبادرات التالية:

- بث مجالس لتدارس القرآن في كل مكان، حتى تصبح ظاهرةً اجتماعيةً راسخةً

رسوخ القرآن، وتطوير أدائها بما يحقق مفهوم **تداولية حقائق القرآن في النفس والمجتمع** لتصير خلقًا له[١].

فرياض القرآن ومجالسه سنة نبوية، ووسيلة كل إخوانه الأنبياء، بها أقاموا الشرائع، ونشروا الدين، ووحدوا المنهاج بين الأصحاب، فمن حاد عن هذا المنهج واستعاض عنه بغيره من وسائل العصر -على أهميتها- لن ينتج الطائفة المؤمنة القائمة بأمر اللَّه على هدي رسول اللَّه ﷺ.

أما القرآن فهو مأدبة اللَّه، لا يجوز الاشتغال عنه بما لا يقرب منه، فقد قال ﷺ: « **إن هذا القرآن مأدبة اللَّه، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئًا فليفعل، فإن أصفر البيوت من الخير البيت الذي ليس فيه من كتاب اللَّه - تعالى - شيء، وأن البيت الذي ليس فيه من كتاب اللَّه شيء خرب كخراب البيت الذي لا عامر له، وإن الشيطان يخرج من البيت يسمع سورة البقرة تُقرَأُ فيه** ». فكثير من أبناء وقادة العمل الإسلامي تجدهم بارعين بالسياسة الدولية، والوطنية، والاقتصاد، والمعاش، والتنظيم، وربما بفلسفة التربية... وبعضهم تجده يحفظ من جزئيات الفقه ليبزَّ رفاقه، وبعض أبواب الكلام ليفتن بها العامة... وبعضهم الآخر يحفظ حكم وأقوال الصوفية وعليه من علامات سكراتها ما يسقط عنه أهلية التفكير... لكنهم ليس لهم من الكتاب والحكمة علم، ولا حتى حفظ، وما أُرسِلَ محمد ﷺ إلا تاليًا للقرآن، مزكيًا بالقرآن، معلمًا له وللحكمة المتضمنة في سنته، قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

إن أعظم برنامج علمي وتربوي وسياسي وثقافي واجتماعي... هو القرآن الكريم، فعلى الدعاة أن يرجعوا إليه يغنموا ويختصروا الزمان ويضمنوا الخراج.

---

(١) انظر: المَعْلَمُ الأول، من المبحث الأول، من الفصل الثالث، من كتاب الفطرية (التداول القرآني) (ص ١٥٠ - ١٥٢).

وحين يمتزج المسلمون اليوم بحقائق القرآن، فيرجعون في كل أمورهم لها، ويحتكمون إليها مسَلِّمين تسليمًا، حينئذ تتحقق **تداولية حقائق القرآن في النفس والمجتمع** فتصير خلقًا له، فيسبق القرآن للقلوب والأبصار مجودًا، قبل أن تطرب له الآذان مرتلًا، وهو من معاني قول الصحابة: « أوتينا الإيمان قبل القرآن ».

- **إنتاج تفاسير ميسرة، ومناسبة لمنهج التدارس**، يستأنس بها العلماء الربانيون، وتلبي حاجيات أهل اللَّه وخاصته من حملة القرآن ومحبيه، ممن ليسوا متخصصين بالعلوم الشرعية، وما تفسير الدكتور فريد الأنصاري لبعض سور القرآن إلا محاولة منه لتحقيق هذا الهدف الكبير.

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى تفسير تربوي، حاجتنا إلى تفاسير متخصصة في إعرابه وغريبه وبلاغته.. والتي لا يستفيد منها إلا الخاصة، بينما لا تكاد تجد في حَمَلَة القرآن من يفهم جزء عم، بله المفصل منه، أو آيات الأحكام، أما تفسير القرآن كاملًا فدون الكلام عنه خرط القتاد.

ولقد كان الدكتور فريد ينوه دائمًا بتفسير الشيخ متولي الشعراوي؛ لأنه ينزل حقائق القرآن في أسلوب شائق، بالدارجة المصرية، يفهمه على حدٍّ سواء العامي والمثقف، بعمق لا تعقيد فيه، ويكثر من ضرب الأمثال وسوق القصص، غايته من ذلك كله الفهمَ المفضي إلى العمل.

- **إنتاج برامج علمية وتربوية تخرّج جيلًا من العلماء، الحكماء، الربانيين**، المؤهلين لقيادة مشروع البعثة التجديدية، وتكوّن شباب الدعوة الإسلامية فتعيدهم إلى رشدهم الدعوي، استفادةً من حيويتهم وطاقاتهم الإبداعية، في جوٍّ من الحرية المسؤولة، وبتوجيه من علماء الشريعة، لا خبراء التنظيم والسياسة الحزبية[1]،

---

(١) انتقد الدكتور الأنصاري هذه الظاهرة في كثير من كتبه مثل: الفجور السياسي، والبيان الدعوي، والأخطاء الستة وغيرهم، بقوله: (التف بعض الشباب حول من أحسن دغدغة عواطفهم النفسية الجريحة، بما يعانون من التهميش الاجتماعي، والظلم السياسي، فاختلطت في أنفسهم مشاعر التدين بمشاعر الرغبة =

وإنما العالم: هو الفقيه الرَّبَّانيُّ الحكيم، الذي يربِّي بصغار العلم قبل كباره، كما قرره حبر الأمة عبد اللَّه بن عباس - رضي اللَّه عنهما -، وقد سطر الدكتور الأنصاري - رحمه اللَّه - مشروعًا لتكوين العلماء في كتيبه « مفهوم العالمية » الذي يصلح برنامجًا للتكوين الشرعي يبلغ من تخرج عليه درجة العالمية[1].

وختامًا فإن جوهر مشروع الفطرية هو العودة بالفرد، والأمة، وكل مؤسساتها إلى صفاء الدين الذي يحافظ على صفاء النفس وصفاء العلاقات، ومن ثم سعادة الدارين، وإنما السعداء في الآخرة من سعدوا بالدين في دنياهم، وإنها لقضية كبرى تنوء بها همة جماعة أو حزب، فهي بحاجة للأمة بكل طاقاتها وقدراتها، شيبًا وشبابًا، ذكورًا وإناثًا، فقراء وأغنياء،... دون تقييد أو تعقيد أو تخصيص أو تسييس أو حصر أو قصر أو حجر... عسى أن يفتح اللَّه بالقرآن قلوبًا غلفًا، وعيونًا عميًا، ويفتح علىٰ الأمة فتحًا مبينًا، فتصير إلى خيريَّتها وريادتها.

* * *
* *
*

= في الانتقام لأوضاعهم الاجتماعية المتردية، مما أنتج أجسامًا تنظيميةً قد تتحول في بعض الأحيان إلى خلايا سرطانية، تستوعب الشباب بصورة تجميعية متضخمة، لتقتل مواهبهم الإبداعية، وتحجِّم طاقاتهم الإنتاجية، وتحصرها في اجتهادات إملائية تلقينية، لا تدع مجالًا للتفكير العلمي الحر، وهي - قبل ذلك وبعده - تشطُّ بعيدًا عن مراتب الأولويات الشرعية للأمة، الراجعة إلى موازين الشريعة لا إلى العواطف والأهواء، مما أدى إلى حصر كثير من مظاهر الصحوة الإسلامية المعاصرة في مأساة ما سميناه بآفة (التنظيم الميكانيكي). فريد الأنصاري، مفهوم العالمِيَّة (ص ١٩، ٢٠).

(١) نحن بصدد تحويل هذا الكتيب إلى برامج ومناهج تعليمية مدققة، يسهر على تنفيذها طاقم كبير من الشيوخ والعلماء، وسنعرض له مفصلًا - إن شاء اللَّـه - على موقع الفطرية الإلكتروني.

الفَصِلُ الثَّانِي

الفطرية والعالمية
العلم والعالِم والعالَم

ويشتمل على ما يلي:

* العلم والعالِم في مشروع الفطرية.

د. عبد الهادي البياض

* فطرية العالم عند الأربعين.

د. محمد برادة

* خطاب الفطرية عِلّة العالَم وعودة العالِم.

د. يحيى رمضان



العلم والعالِم في مشروع الفطرية

د. عبد الهادي البياض

إن العلم قاعدة العمران الاجتماعي، وعنوان تقدم الحضارات الآدمية عبر التاريخ، وغايته لدى الأمم الغربية تحقيق السعادة في الحياة، أما العلم في دين الأمة الإسلامية ووجدانها وعقلها يتجاوز ذلك لتحقيق سعادة العباد في الدنيا والفوز برضا اللَّه - تعالى - في الآخرة. فالعلم بالمعنى الأول مطلوب تحصيله، أما العلم الشرعي فهو أوجب وآكد؛ لأن به تضبط خارطة التمكين والصلاح والعدالة والمساواة والحرية والتعايش والتسامح.

وتتحقق هذه الغايات إذا كان العلم الشرعي يسود ويحكم حياة الأمة، ويؤطرها علماء القبلة والقدوة من الحكماء الربانيين، وفي هذا الصدد حذر الدكتور فريد الأنصاري من ترامي أهل الأهواء والنوازع السياسية على (الإفتاء بغير علم، وما ينتج عنها من غلو في الدين كآفة التكفير، وسفك الدماء، واستباحة أموال الناس)[١]، ثم أتبع تحذيره هذا بتوضيح مقاصد العلم الشرعي درءًا لكل التباس من شأنه رسم صورٍ ضبابيةٍ للسالكين سبيل الرشاد، فكان العلم عنده علمان يشكل أحدهما وسيلةً للآخر. فـ(**العلم الأول**: ينتج عن تلقي الكتاب والسنة، وعن الفقه المستنبط منهما، وغاية هذا العلم إنما هي العمل به، فعلًا وتركًا، وهذا كله علمًا وعملًا، وإنما هو وسيلة للآتي، وهو **العلم الثاني**: هو العلم باللَّه، وإنما هو نتاج لخالص الأعمال من العبادات والمجاهدات المترتبة عن العلم الأول)[٢].

لقد شكَّل الفكر المقاصدي عمقًا إستراتيجيًّا للمسار العلمي لصاحب « الفطرية »، إذ كان لشيخه في المقاصد الإمام الشاطبي قولًا نفيسًا في هذا المعنى، إذ يقول: (العلم الذي هو العلم المعتبر شرعًا، أعني الذي مدح اللَّه

---

(١) فريد الأنصاري، مفهوم العالمية (ص ١٦).   (٢) نفس المرجع (ص ٦٨، ٦٩).

ورسوله أهله على الإطلاق هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعًا أو كرهًا)[١]، وذلك هو (العلم الذي ينير العقول، ويحيي اللَّه به القلوب، ويجدد الناس به العهد مع اللَّه)[٢].

١ - العلم وبناء مشروع الفطرية:

ركز الدكتور الأنصاري في مشروعه الدعوي الموسوم « بالفطرية » على العلم الشرعي المستنبط من أصوله، ولم يغفل تحديد صفات حماته ودعاته من العلماء الراسخين ورثة الهدي النبوي علمًا وعملًا. فكان العالم - حسب معاييره - هو الفقيه المجتهد، الرباني الحكيم الذي تحقق بالعلم، وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن اللَّه مراده، فصار يربي بصغار العلم قبل كباره[٣].

حيث كان الدكتور فريد الأنصاري من الدعاة الراسخين في العلم، ممتلكًا ناصية المنهجية العلمية في البحث وتدريس أحكام الشريعة، حتى صار يمارس ذلك بنوع من التلقائية، تجلى في حل النوازل المعقدة التي كانت تُعرض عليه، استنادًا على الجمع بين أمرين: (**أحدهما**: التلقي عن أهل الرسوخ في العلم المشهود لهم بالإمامة في الفن. **وثانيهما**: بلوغ منزلة الاعتكاف في مقامات العلم)[٤].

ولا مراء في أن للعلماء الربانيين دورًا في تنزيل أحكام الشريعة؛ لتدير حياة الأمة في معاشها ومعادها، وهو ما يعرف بتحقيق مناطات التنزيل؛ لهذا عيَّن الدكتور فريد الأنصاري ثلاثة أركان إذا ما توفرت في العالم عُدَّ من أهل العلم

---

(١) عبد الحميد الوافي، مسار باحث في الفقه وأصوله، جريدة المحجة المغربية، عدد (٣٣٠ - ٣٣١) (ص ٤٠).

(٢) فريد الأنصاري، مفهوم العالمية (ص ٢٥).

(٣) نفس المرجع (ص ٦٢).

(٤) عبد الحميد الوافي، مسار باحث في الفقه وأصوله (ص٤٠).

وصار مرجعًا للأمة في كل شيء، إنها **الملكة الفقهية**[١]، و**الربانية الإيمانية**[٢]، و**القيادة التربوية الاجتماعية**[٣]، وهي مسلك وظيفي ينير معالم الإصلاح الاجتماعي الذي يضطلع به العالِم تبعًا لحق العلم المتعلق بذمته، طبقًا لقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

إن العالم إذا جمع بين الأركان الثلاثة تحققت فيه صفة (العالم الرباني الحامل لرسالة القرآن الفقيه المجدد، الداعية الحكيم (...)؛ ولذلك كان هو الإنسان المركزي في دعوة الفطرية)[٤]، واستطاع أن يحمل وظيفةً نوَّه القرآن بها، ورفع القائمين بها درجات علا، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

والفطرية مصطلح يعبر عن مشروع دعوي، وعن تصور كلي للعمل الإسلامي[٥]، نحت الدكتور فريد الأنصاري بمهارة معالمه المؤطرة لمنطلقاته وأهدافه من خلال ثلاث مجموعات من التصانيف، هي: « تجديد العلم ومفهوم العالم »، و« التأصيل النظري للعمل الدعوي »، و « مجالس القرآن وتلقي رسالاته ». وهي أركان للمشروع الناظر إليها يلمس نفسًا علميًّا يدل على فطنة صاحبه بعقبات العمل الإسلامي في المجتمع، والاقتصاد، والسياسة والتربية، والتعليم، بل يجد الخيط

---

(١) يعرِّفها الدكتور فريد الأنصاري بقوله: (هي الصفة الكسبية التي بها يكون العالم فقيهًا في أحكام الشريعة أصولها وفروعها (...) وصار متمكنًا من المنهجية العلمية في البحث والتفكير، وهي المعبر عنها عند الفقهاء بالملكة. وإنما هي خبرة منهجية في معالجة النصوص الشرعية فهمًا واستنباطًا وتحقيق مناطاتها تنزيلًا، وهو معنى « الفقه في الدين » « من يرد اللّـه به خيرًا يفقهه في الدين ». فريد الأنصاري، مفهوم العالمية (ص ٦٢).

(٢) (هي مقاربة الكمال في مسلك التخلق بأخلاق القرآن، والتحقق من صفتي التقوى والورع من أجل تحصيل العلم باللّـه والتعرف إليه تعالى). نفس المرجع (ص ٦٥).

(٣) نفس المرجع (ص ٧٥).

(٤) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤١).

(٥) نفس المرجع (ص ١٠٥).

الناظم بين ذلك كله ممثلًا في حرص الأنصاري الشديد للوصول إلى ما ينبغي أن يكون عليه حال الأمة من الريادة؛ لتحقيق الشهود الحضاري على الناس، وذلك بأن يتبوأ العلماء المكانة في الصف الأول، فهم ورثة الأنبياء والرسل، ولمقامهم هذا كانوا هم أشد الناس خشية للَّه - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

لذلك احتل العلم الشرعي أحد الأركان الستة (الإخلاص، الآخرة، القرآن، الربانية، العلم، الحكمة) في مشروع الدكتور فريد الأنصاري الموسوم بالفطرية. حيث جعل لها حدًّا هو إقامة الوجه للدين حنيفًا، وذلك بإخراج النفس من ظلمات الضلال إلى نور العلم باللَّه[١].

ورغم ترتيب الدكتور الأنصاري للعلم في المرتبة الخامسة من مراتب الأركان الستة، فإن الدارس المتفحص يلحظ أن العلم الشرعي تبوأ فيها الصدارة، والسبب في ذلك أنه لا مكان في الفطرية للخرافية ولا للأهواء الشخصانية[٢].

كما أن العلم يبقى قطب الرحى في بقية الأركان كلها، باعتبار العلوم الشرعية هي المسلك الأساس لبناء علم الناس باللَّه وبدينه عقيدةً، وشريعةً، وتربيةً، وسلوكًا؛ لذلك وجب أن تحمل رسالات الفطرية لكل المسلمين الحد الأدنى من العلم الشرعي الذي لا يعبد اللَّه إلا به. كما أن رسالات الفطرية القائمة على نسق علمي رصين، تحرض نبغاء الشباب على التفرغ لطلب العلم الشرعي لمد الأمة بأجيال العلماء الربانيين، فذلك هدف استراتيجي وجب أن يكون عمودًا فقريًّا في كل مشروع دعوي انتصب لتجديد الدين بصدق[٣].

ورحم اللَّه الخطيب البغدادي الذي لخص علاقة العالم بالعلم الشرعي في حكمة نادرة، حكمة بقيت ناصعةً في جبين من يسره اللَّه للتفقه في الدين، فقال:

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٥). (٢، ٣) نفس المرجع (ص ١١٣).

(إن العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يعد عالِمًا، من لم يكن بعلمه عاملًا)[١]. والمنتصب لعلوم الشريعة تدريسًا وبلاغًا، يكون - ولا شك دارسًا - ومبلغًا باسم اللَّه، متصفًا بالإخلاص والخشية للملك القهار؛ لأن هذا المقام هو غاية الدين ومقصود المتدين[٢]. ذلك بأن غاية العلم والعمل إنما هي العلم باللَّه، كما أن العلم باللَّه هو منتهى السعادة في الآخرة[٣]. قال سفيان الثوري: (أفضل العلم: العلم باللَّه، والعلم بأمر اللَّه، فإذا كان العبد عالمًا باللَّه، وعالِمًا بأمر اللَّه فقد بلغ)[٤].

٢ - العالِم والبناء الفطري:

إن المشروع الدعوي رهين بوجود علماء مجددين، يضطلعون بمهمة إعادة إنتاج « الفقه في الدين بما يجدد حركة الاجتهاد، ويجدد حركة تداول النص الشرعي »، وهذا ما سماه الدكتور فريد الأنصاري **بالتأصيل**، إنه الركن الذي يبقى ناقصًا ما لم تسنده محاضن علمية شرعية تقوم بعمليات **التأهيل**، بقصد إخراج (الطاقات العلمية الواعدة (...) لبناء صرح الأمة العلمي في منهج فقه الدين وتنزيله)[٥].

على أن الإمامة العلمية تشكل مناط بعثة التجديد المنشودة ولا ريب، إنها إمامة تستقي مادتها من مشكاة النبوة، وهي رسالة ثقيلة يتحملها بقوة (جيل كامل من العلماء العاملين والحكماء الربانيين، بقصد رد البناء إلى أصله، وإعادة صياغة الإنسان على أساس موازين الوحي وعلى عينه)[٦]. ولبلوغ هذا المراد حدد

---

(١) الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل (ص ١٤، ١٥). فريد الأنصاري، مفهوم العالمية (ص ٦٨).

(٢) قال عز من قائل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

(٣) فريد الأنصاري، مفهوم العالمية (ص ٦٩).

(٤) نفس المرجع (ص ٧١).

(٥) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٥٦).

(٦) نفس المرجع (ص ١٠٠).

الدكتور فريد الأنصاري أربع معالم منهجية لبعثة التجديد الفطري، معالم يحتل فيها العلم الشرعي[١] قطب الرحى بكل وظائفه الدعوية والتربوية؛ إذ العلماء الورثة هم أهل الرسالة، وحُمَّال البلاغ القرآني[٢].

ولمواجهة السيل العارم لجحافل الفساد والانحراف الممنهج الذي ينخر جسم الأمة، دعا الدكتور فريد الأنصاري إلى بعث وظيفة العالم المنتصب. إذ (الانتصاب إنما هو تجرد لمهمة البلاغ، تمامًا كما تنتصب الجبال بين الصحاري والبطاح، أعلامًا للضالين عن الطرق، فتكون بذلك مثارات اتباع واقتداء)[٣]. وذلك من خلال تداول آي القرآن والاشتغال به تلاوةً وتعلمًا، وتدارسًا وتدبرًا وتزكيةً، بما يؤسس تجربة قرآنية تعبدية واجتماعية[٤]، إنها تجربة العمل البنائي الذي يستنهض عزائم الأمة، ويذكي خميرة النهوض فيها بصورة تلقائية، يقودها أئمة بعثة التجديد العلمي المتصفين بخصائص القوة وضوابط الأمانة؛ لأن دعوة الإسلام دين يحتاج الناس لأخذ تعاليمه عن العلماء الحكماء، مما يقتضي توجيه نبغاء الطلاب إلى تحصيل العلم الشرعي لصناعة العلماء الرواحل، ودعمهم ماديًّا ومعنويًّا. وتوجيه أصحاب الأموال والمحسنين في الأمة نحو الاستثمار بقوة في هذا المجال، عن طريق بناء المعاهد والمكتبات والخزانات والمساجد، وتجهيزها بوسائل إدارية مكافئة، وعنصر بشري فعال موازٍ لقيمة العلم الشرعي في عقل الأمة ووجودها الحضاري.

لقد نبَّه عمر بن عبد العزيز إلى دور العالم المنتصب في نشر العلم الشرعي الذي لا حياة للأمة إلا بمدارسة علومه ومناهجه، وذلك في توجيه بليغ في كتاب

---

(١) انظر: بقية المعالم الأخرى، الفطرية (ص ١٥٠) وما بعدها.

(٢) قال ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر». رواه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم (٦٢٩٧). فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٥٢، ١٥٣).

(٣) نفس المرجع (ص ١٥٣).

(٤) نفس المرجع (ص ١٥٠).

بعث به إلى واليه على المدينة أبي بكر بن حزم، ومما جاء فيه: « انظر ما كان من حديث رسول اللَّه ﷺ، فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث رسول اللَّه ﷺ: **ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا** »[١].

ولقد أجمل شيخ المقاصد أبو إسحاق الشاطبي وظيفة العالم الرباني الحكيم المنتصب، في قضايا تهم المنهج في التدبير الديني، فقال - رحمه اللَّه - على العالم أن: « لا يذكر للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهي، بل يربي بصغار العلم قبل كباره، وقد فرض العلماء مسائل مما لا يجوز الفتيا بها، وإن كانت صحيحةً في نظر الفقه (...)، وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فلم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها (...) إن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية »[٢]. وهذه منزلة من العلم الرباني وجب على الداخل في مدرسة الفطرية أن يحرص على التحقق بأسبابها، والتخلق بشروطها، عسى أن يكون من أهلها[٣].

ومشروع الفطرية عمل دعوي تعبدي بذاته، يقوم على أكتاف حُمَّال الدعوة المنتصبين للبعثة، باصطلاح الشاطبي الربانيون ورَّاث النبوة[٤]، فهم القادرون - باعتبار مستوياتهم العلمية والفكرية - على ترشيد الأمة وتصحيح مسارها، وشحذ كل الجهود المبذولة لإرجاعها إلى خيريتها. والعلماء وحدهم يتحملون مسؤولية إعادة بناء ثقافة الأمة على وزان تربوي يعتمد القواعد العقيدية أولًا لتجديد صلتهم باللَّه ﷻ.

---

(١) محمد العمراوي، يُقبض العلم بقبض العلماء، جريدة المحجة المغربية، عدد (٨٣) (٢٣رمضان ١٤١٨هـ/ ٢٢يناير ١٩٩٨م) (ص ٧).

(٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١٤، ١١٥).

(٣) نفس المرجع (ص ١١٥).

(٤) نفس المرجع (ص ١٦٣).

وبشائر تجديد التدين في النسيج المجتمعي للأمة، إنما تبدأ بتجديد العلم الذي هو منوط بأهل العلم والفقه في الدين[١]، ومنه كانت وظيفة الأنبياء التربوية والدعوية قائمةً على العلم والتعليم، وعليه كان العلم هو بدء كل شيء في الدين، وهو أساس كل حركة في الدعوة إليه، تربيةً وتزكيةً[٢]. فالعلم إذا كان خالصًا لا يُرادُ به سوى رضا الباري - تعالى - (لا يفضي بصاحبه إلا إلى السعادة، قليله ينفع وكثيره يعلي ويرفع، لا يغصبه غاصب ولا يخاف عليه سارق ولا محارب)[٣].

٣ - العلم وفطرية العالِم المنتصب:

إن الإسلام دين الفطرة، شرعه اللَّه - تعالى - لترشيد البشرية وتوجيه عنايتها لاقتفاء سبيل الحق والخلاص، باعتباره مسلك النجاة في الدارين، وبذلك يكون العلماء حملة مشعل إعادة البناء إلى أصله الفطري بالعلم الشرعي، الذي هو أحد مرتكزات استشراف الإسلام الفطري الطاهر، الذي تحيى به الأمة في واقعٍ كما حيي به الرعيل الأول.

لذلك - ورحمة بأمة الإسلام - فقد حفل تاريخها العتيد بدعاة عاملين وعلماء مصلحين، سلكوا بها طريق الرشاد، فقاموا بحق النذارة، «وظيفة العالم الإصلاحية» وبحق العلم المتعلق بذمتهم، ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فكانوا نموذجًا للقيادة التربوية الاجتماعية المنتصبة لتربية الخلق بما آتاها اللَّه من علم وصلاح في نفسها[٤]، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر.

وهكذا كان العلماء بما هم أعلم طبقة في الأمة، هم أهل الفقه في الدين الذين يحسنون تشريح النصوص بالعلم، وهم الذين يتشرفون بوراثة علم النبوة، وهم دعاة العلم والعمل والإصلاح، وعلى هذا الأصل روى أبو موسى الأشعري ﷺ

---

(١) فريد الأنصاري، مفهوم العالمية (ص ١٠).
(٢) نفس المرجع (ص ١١).
(٣) نفس المرجع (ص ٤٧).
(٤) نفس المرجع (ص ١٢٣).

عن النبي ﷺ أنه قال: « **مثل ما بعثني اللَّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير...، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع اللَّه بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ (...) فذلك مثل من فقه في دين اللَّه ونفعه ما بعثني اللَّه به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى اللَّه الذي أرسلت به** »[1].

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الحديث، فقال: « ومن المستقر في أذهان المسلمين، أن ورثة الرسل، وخلفاء الأنبياء، هم الذين قاموا بالدين علمًا وعملًا، ودعوة إلى اللَّه والرسول، فهؤلاء أتباع الرسول حقًّا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها، وزكى الناس بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة؛ ولذلك كانوا ورثة الأنبياء »[2].

وبما أن التمكين للإسلام لا يكون إلا بفقه العلم والساعد معًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. فإن الغاية المنهجية من التعليم والتعلم هو التفقه في الدين، وتوريثه إلى الأجيال خلف المستقبل، وتلك كانت منهجية العلماء المصلحين الذين ساروا على خطى المصطفى ﷺ، بحيث لم يورثوا دراهم ولا عقارات، وإنما ورثوا لأبنائهم وطلابهم علمًا يرفعهم إلى مراتب الأئمة في الدين. وهذا مضمون وصية أبي سليمان الباجي لولديه التي تمثل (ورقة مرجعية في منهج تخريج العالم الوارث الذي يكون سببًا في تجديد الدين)[3]. ذلك بأن (أفضل العلوم علم الشريعة، وأفضل ذلك أن يجود قراءة القرآن ويحفظ حديث النبي ﷺ، ثم يقرأ أصول الفقه فيتفقه في الكتاب والسنة،

---

(١) متفق عليه. فريد الأنصاري، مفهوم العالمية (ص ٩٦).

(٢) نفس المرجع (ص ٩٧).

(٣) نفس المرجع (ص ٤٥).

ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نُقل من المسائل عن العلماء، ويدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة والحجج، فهذه الغاية القصوى والدرجة العليا) من الوصية، إنها زبدة الفكر التعليمي عند الباجي، وخلاصة التجربة التي اكتسبها في منهجية التفقه في الدين[١].

لا يرفع العلم برفع مظان العلوم الشرعية من رفوف المكتبات، وإنما يرفع بموت العلماء، وتعطل وظيفة مدارسة العلوم الشرعية، فقد سأل أحدهم المصطفى ﷺ قائلًا: كيف يرفع العلم، وهذه المصاحف وقد تعلمنا ما فيها وعلمناها أبناءنا ونساءنا وخدمنا؟ فقال ﷺ - وعلامات عدم الرضا بادية عليه -: « **هذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف، لم يتعلموا منها فيما جاءهم به أنبياؤهم** »[٢]. إنه الدليل الكافي على أن رفع العلم، وإهمال سنة التعليم يكونان مرادفين لفقدان العلماء الربانيين أهل الدِراية في الفهم والاستنباط والاجتهاد. وهذا ما يشير إليه الحديث النبوي الذي يقول فيه رسول اللّه ﷺ: « **إن اللّه لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يُقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جُهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا** »[٣].

لذلك فقد تقرر، أن رفع العلم الشرعي الذي به يكون صلاح الآدميين في الدنيا والآخرة يتحقق بموت العلماء، فتضيق بذلك دائرة الصلاح وتتسع الفجوات في دين الأمة عندما يتصدر للفتوى من وصفهم بالرؤوس الجهال، ويتأكد هذا المعنى أكثر بنص الحديث الذي رواه الدارمي، قال ابن مسعود: « **عليكم بالعلم قبل أن يُرفع، ورفعه هلاك العلماء** ». كما فسر ابن عباس نقصان الأرض من أطرافها الواردة

(١) فريد الأنصاري، مفهوم العالمية (ص ٥٠، ٥١).

(٢) محمد العمراوي، يقبض العلم بقبض العلماء (ص ٧)، والحديث رواه أحمد والطبراني.

(٣) متفق عليه.

في سورة الرعد[1] بموت علمائها، حين قال: « خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها ».

لقد طبق الدكتور الأنصاري قواعد العلم التي دعا إليها في الأركان الستة التي صاغ على أساسها منهاج الفطرية في دعوة التجديد والبعثة؛ لأن العلم عنده هو (ما دل عليه سبيل **القرآن**، وأرشد إليه **منهاج النبي** - عليه أفضل الصلاة والسلام - متوسلين إلى ذلك بوسائل العلم **وقواعد الشريعة**، حريصين على الاستفادة من **تراث الأمة** في هذا المجال (...)، ما لم يخالف **نصًا قطعيًا أو إجماعًا شرعيًا**)[2]. وإعمال هذا من طرف الدكتور دليل على أنه كان (فاتحة الجيل القرآني الفريد، اجتباه ربه وهداه وأعده إعدادًا لخدمة كتاب مولاه، أتم عليه نعمة **الأداة العلمية**، فكان متين التكوين في العلوم الشرعية واللسانية)[3].

* * *
* *
*

---

(١) قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١].

(٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٥).

(٣) جريدة المحجة المغربية، عدد (٣٣٠، ٣٣١) (ص ٣).

فطرية العالم عند الأربعين

د. محمد برادة

إذا كان الوقت هو وعاء العبادة والتوبة، وهو مصدر التعرف إلى اللَّه، فإن وقت الإنسان سبب وجوده، بل هو عمر الإنسان، والإنسان إنما هو في حقيقته أوقات، فهو بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بعضه. وإذا كان الوقت هو ليالي وأيامًا، وهو رأس مال الإنسان، والدرة النفيسة عنده، فإن اللَّه ﷻ أقسم به في غير آية من القرآن فقال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر: ١، ٢]. وقال: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١، ٢]. وقال: ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر: ١، ٢].

والوقت برأي الغربيين الماديين لا يعدو أن يكون هو المال، أي شبيه بسلعة غالية الثمن تُباع وتُشتَرى، لا يهم فيم أنفقه ولا من أين اكتسبه، بقدر ما يهمه العائد منه، فالمال هو غاية الغايات.

لقد كان الوقت في حياة المسلم عبادةً ممتدةً والعبرة ليست في إنفاق الوقت، بل في استثماره؛ لأنه أغلى بكثير من المال، إذ يمكن استرجاع المال الثمين، أما الوقت الثمين فلا يمكن استرجاعه، وصدق الحكيم حين قال: (من أمضى يومًا من عمره في غير حق قضاه، أو فرض أدَّاه، أو مجد أثَّله، أو حمد حصَّله، أو خير أسَّسه، أو علم اقتبسه فقد عقَّ يومه وظلم نفسه). فالليل والنهار أوقات للعمل الدائم، فإذا فرغ الإنسان نصب من جديد، وهو كذلك يعمل ويأخذ منهما، إذ (الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، ويأخذان منك، فخذ منهما) كما قال عمر بن عبد العزيز.

وقد أكد العلماء أن الوقت إنما هو وقت الكد والجد، أما أوقات الفراغ واللعب واللَّهو فإنما هي أوقات ضائعة من عمر الإنسان، وهو قول مستمد من قوله ﷺ: « **إن مما يلحق المؤمن في عمله وحسناته بعد موته علمًا علمه ونشره، وولدًا صالحًا**

تركه، ومصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته »[1].

إن من حكمة إدارة الوقت إنفاقه فيم ينبغي على الوجه الذي ينبغي، وفي الزمان والمكان الذي ينبغي، فالأوقات هي أعمار الإنسان، وأهم هذه الأعمار عمر الشباب، ففيه القوة للقيام بالتكاليف ونصرة الدين. والشباب الطائع ربه مبشره بالجنة قبل مماته؛ لعظم ما يقوم به في شدة الفتن، فالأجر يتعاظم عند تفشِّي أمراض الأمة من فساد وظلم وهرج، وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيصير ذلك الشباب الحليم حيران لعظم ما يرى وما يسمع، وعندما يصل سن الأربعين، يضيف إلى شبابه قوة العقل والرصانة، فيبلغ أشده وهديه، ويستعد لتلقي الوحي بقلب جديد مفعم بالحيوية والنشاط.

١ - إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك:

الأربعون هذا البرزخ الزمني الذي أرَّق وحيَّر العلماء والحلماء والحكماء، فهو شبيه بالعقارب يلسع أغلب الأحياء من بني آدم، ولكن لسعاته قد تكون مميتةً وعندها لا تقبل ندامة ولا توبة، فهي سن السعادة التي تفتح شهية العيش، سن الرشد والهدى والالتزام، وسن الابتعاد عن السفه والجهل؛ لذلك قال بعض الحكماء: (من أشرف على الأربعين وازداد طيشًا وسفاهةً فكبر عليه أربعًا).
وصدق الشاعر حين قال:

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه   فلما علاه قال للباطل أبعد.

فسن الأربعين هي سن التشمير عن ساق التكليف، وسن يقظة الفكر والدعوة لإعمال العقل وإيقاظ الروح، وهو سن اكتمال العقل لظهور الفلاح - كما قال أبو حيان - وسن الدعوة سرًّا وجهارًا، وسن الصبر على الأذى والتوكل الحقيقي

---

(١) رواه ابن ماجه، باب ثواب معلم الناس الخير، رقم الحديث (٢٤٢).

على اللَّه، وسن الهجرة إلى اللَّه والجهاد في سبيل اللَّه، وسن الدعاء المستجاب والحج والاعتمار، وسن الغضب للَّه وبناء المساجد وأداء الصلوات، إنها سن المسؤوليات الجسام، وسن الفتوَّة والقوَّة، وليس سن التقليل من الحركة والاستعداد للرحيل.

وقد بعث اللَّه محمدًا ﷺ بعد بلوغه أربعين سنة، واختيار سن الأربعين له حكمة بالغة، فهو عربون اكتمال العقل، والسن الوحيد التي ذكرها اللَّه في كتابه، وجعلها سنًّا لبلوغ العقل وتمامه ورشده، فقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

يقول ابن كثير - رحمه اللَّه - في تفسيره للآية الكريمة: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي قوي وشب وارتجل. ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي تناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابن الأربعين. قال أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: « إذا بلغت الأربعين، فخذ حذرك ».

أما الآلوسي فتحدث عن « استحكام القوة والعقل » وأن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى جدًّا خلقه الذي هو عليه، فلا يكاد يزايله بعد، وفي الحديث: « **إن الشيطان يجر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب، ويقول: بأبي وجه لا يفلح** »[1]. وأخرج أبو الفتح الأزدي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا:

---

(١) انظر إحياء علوم الدين (٤/ ٢١).

« من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار »[١]. وعلى ذلك قول الشاعر:

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يهوى حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي مضى ... وإن جر أسباب الحياة له العمر

أما الفخر الرازي فقد ذهب إلى أن (أفعال المرء بعد الأربعين مودعة في الدعاء والقول: (يا رب أَوْزِعْنِي). قال ابن عباس: ومعناها ألهمني. قال صاحب الصحاح: (أوزعته بالشيء أغريته به، فأوزع به فهو موزع به أي مغرى به، واستوزعت اللَّه شكره، فأوزعني أي استلهمته فألهمني، أي ألهمه طلب ثلاثة أشياء: أن يوفقه الله للشكر على نعمه، وأن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند اللَّه، وأن يصلح له في ذريته). **وفي ترتيب هذه الأشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان:**

الأول: أن مراتب السعادات ثلاثة، أكملها النفسانية وأوسطها البدنية وأدناها الخارجية، والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاء اللَّه ونعمائه، والسعادات البدنية هي اشتغال البدن بالطاعة والخدمة، والسعادات الخارجية هي سعادة الأهل والولد، فلما كانت المراتب محصورةً في هذه الثلاثة، لا جرم رتبها اللَّه - تعالى - على هذا الوجه.

والسبب الثاني لرعاية هذا الترتيب: أنه - تعالى - قدم الشكر على العمل؛ لأن الشكر من أعمال القلوب، والعمل من أعمال الجوارح، وعمل القلب أشرف من عمل الجارحة، وأيضًا المقصود من الأعمال الظاهرة أحوال القلب (...). قال أصحابنا: إن العبد طلب من اللَّه - تعالى - أن يلهمه الشكر على نعم اللَّه، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة اللَّه - تعالى - ولو كان العبد مستقلًا بأفعاله لكان هذا الطلب عبثًا.

---

(١) مسند الفردوس للديلمي برقم (٥٥٤٤).

وقال المفسرون: إن المراد من قوله تعالى: ﴿ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ [الأحقاف: ١٥] هو الإيمان، والإيمان يكون داخلًا فيه.

إن ابن الأربعين يقوم بعملية جراحية دقيقة على حياته، ويزيل منها ورم التكبر والابتعاد عن اللَّه، فشكر النعم يقتضي فهم حقيقة العبادة: الدعاء. فيطلب من العلي العظيم أن يلهمه شكر النعم، وعمل الصالحات، وإصلاح الذرية. وأي خير هذا أفضل من إخلاص في الدعاء، وعمل صالح، وذرية طيبة صالحة، وكأن العبد جمع خيري الدنيا والآخرة، فهو مؤمن ابتداءً معترف بفقره إلى اللَّه، محاط بذرية طيبة صالحة تعينه في دينه ودنياه. وهو أيضًا - قبل هذا وذاك - مطيع لوالديه بار بهما وخادم لهما. حتى إذا رحل عن هذه الدنيا الفانية وجد لديه ذريةً طيبةً تدعو له بفعل صلاحه وبرهما، وبالتالي فهو يدعو للوالدين والأبناء ليفوز بمنحة الدارين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٦].

٢ - فريد الأنصاري وسن الأربعين:

لقد سعى الدكتور فريد الأنصاري حين بلغ أشده إلى النظر في تجديد العمل الإسلامي، بالدعوة إلى إعادته إلى فطريته، حيث أعطى أوليته للعمل الدعوي الفطري على حساب العمل السياسي. ذلك بأن إعادة العمل الإسلامي إلى سكة الصواب عنده أملت ضرورة عودة الروح إلى فطرتها، بعدما امتزجت أهدافها بالجسد الطيني الذي يحملها. إذ إعادة العمل إلى جادة الصواب يبعد العمل عن خوارم الفطرية، كما يبعده أيضًا عن حرج الأسماء والمصطلحات والألقاب[1].

وقد لطخ الفهم الخاطئ للعمل الإسلامي الثوب النقي لفطرة الإنسان المسلم، فأضحى انتماؤه للجماعة أو التنظيم شرطًا أساسيًّا لعمله الإسلامي، بل قد أصبح

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٤).

شرطًا أساسيًّا قبيل انتمائه لزمرة المسلمين. وهذا بهتان أملته العقليات المتحجرة للزعماء والشيوخ الذين يسهرون على العملية التربوية، بهتان جعل شباب الحركة الإسلامية يتيهون في طرقات السير والسفر إلى الجنة، وكأن هذا السفر لا يتم إلا بركوب قطار حركة أو جماعة إسلامية، دون القيام بِهَمِّ الدعوة الحقيقي.

إن هذا السفر من غير الزاد، جعل العمل الدعوي أو الحركي يتراجع عن بعض أهدافه، ويكتفي ببعض النتائج؛ لكونه انشغل بالرد على بعضها البعض، حيث أصبح كل حزب فرحًا بما لديه من الأتباع، مبددًا للحظات تاريخية لنصرة المظلومين والمسجونين الأبرياء خوفًا من تلفيقهم لتهمٍ هم في غنًى عنها. كما أن هذا التدافع بين « المصلحين الدعويين والحركيين » أضاع الأمة في عقود من الزمن، فأصبحت الحركات والجماعات التي ننتقدها تخرج جيلًا لا يهتم بقضايا أمته، ويعرف عن حركته ما لا يعرف عن الإسلام.

إن سن الأربعين هو سن رجاحة العقل وتغليب المنفعة العامة على الخاصة، إنه سن التدافع الحقيقي؛ ولهذا كان فريد الأنصاري فريدًا في تصوره، فبمجرد بلوغه سن الأربعين، أعاد عقارب الساعة إلى وضعها الحقيقي، وبدأ يتساءل عن سر الإنسان وسر الوجود وسر الحياة والموت. (فيا حسرة عليك أيها الإنسان! هذا عمرك الفاني يتناثر كل يوم، لحظةً فلحظة، كأوراق الخريف المتهاوية على الثرى تَتْرَى! ارْقُبْ غروبَ الشمس كل يوم لتدرك كيف أن الأرض تجري بك بسرعة هائلة لتلقيك عن كاهلها بقوة عند محطتك الأخيرة! فإذا بك بعد حياة صاخبة جزءٌ حقير من ترابها وقمامتها! وتمضي الأرض في ركضها لا تبالي. تمضي جادةً غير لاهية - كما أُمِرَتْ - إلى موعدها الأخير! فكيف تحل لغز الحياة والموت؟ وكيف تفسر طلسم الوجود الذي أنت جزء منه ولكنك تجهله؟ كيف وها قد ضاعت الكتب كلها ولم يبق بين يديك سوى هذا « الكتاب »!؟)[١].

---

(١) مجلة حراء، العدد (١٤) (يناير - مارس ٢٠٠٩م).

لقد أصبح الأنصاري عند سن الأربعين رجل الإيمان والعلم والفكر، وأصبح يرى نور القرآن بعدما أبصر آياته؛ لذلك فتح مشروع مدارسة القرآن الكريم إحياء لسنة النبي ﷺ حيث أصبح الناس يتداولون القرآن في صالوناتهم، وضيوف الرحمن يجلسون إلى موائد القرآن يتزودون بخير زاد، من أجل العودة إلى الفطرة السليمة. ولعل هذا ما جعل نظرة فريد الأنصاري الثاقبة إلى واقع الحال والمآل تعيد تعريف العمل الإسلامي من جديد، وتجدد له أهدافه الحقيقية، فبلوغه سن الأربعين أيقظ في نفسه شعورًا بالموت وبقرب نهاية المسار. (الأربعون!.. هذا البرزخ الزمني الرهيب.. أيقظ في قلبي شعورًا قويًا بالموت! وإحساسًا شديدًا بالفناء! صحيح أن الأربعين هي لحظة القوة والشدة من عمر الإنسان، ولكن أليست هي لحظة البدء أيضًا لخطوة الانكسار من مخطط عمره المحدود؟ أليست هي بدء العد العكسي في اتجاه النهاية؟ تلك هي القضية إذن! وذلك هو الأرق الشديد الذي داهمني ثم لازمني ليلًا ونهارًا.. فمن يخلِّصني..؟!)[1].

لقد علم الأنصاري علم اليقين أنه مطالب بعبادة اللَّه حتى يأتيه اليقين، فاغتنم خمسة كما أمر النبي ﷺ، وعمر عمره باعتبار العرض ناسيًا طوله على غير العادة. (ورب عمر اتسعت آماده، وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده، ومن بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من المنن ما لا يدخل تحت دائرة العبارة، ولا تلحقه ومضة الإشارة) كما قال صاحب الحكم العطائية.

إن العمر كما يعرفه الأنصاري: (هبة إلهية كبرى، وهو تجلٍّ من تجليات الحياة، فليس فيه طويل وقصير فهو قصير كله)[2]. وهو (عبارة عن طريق يقطعها الإنسان، لها امتداد طولي وآخر عرضي، والعادة أن الإنسان إنما ينتبه إلى الطول؛ لأن ذلك هو المتعلق بمفهوم الزمن، ولكن قلما ينتبه إلى العرض؛ لأن هذا إنما يتعلق

---

(١) فريد الأنصاري، آخر الفرسان (ص ١٢٨).

(٢) فريد الأنصاري، جمالية الدين (ص ١١٧).

بالأعمال والمنجزات خلال كل فترة من فترات الزمن، فالإنسان في سيره خلال عمره نوعان: نوع يخطو دون أن ينتبه إلى عرض الوقت، فيلتهم من طوله ما هو مقدر له. ونوع ينتبه إلى العرض؛ ولذلك فهو إذ يخطو الخطوة الواحدة من عمره، لا ينتقل إلى الثانية حتى يخطو مثلها على عرض الطريق لا على طولها، ليعيش باقي اللحظات التي هي من الخطوة الطولية الأولى نفسها التي خطاها)[١].

لقد توفي الأنصاري وهو على مشارف إتمام عِقْدِه الخامس تاركًا وراءه تصورًا كاملًا لمشروع قل نظيره، فقد كان عقله وفكره منهجيًّا، استمد روح أعماله من الكتاب والسنة، دون أن ينسى التأسِّي بأساتذته الذين ملأوا دنياه بفكرهم وعبقريتهم، حيث تأثر بالفكر المقاصدي للشاطبي، فبحث في المصطلح الشرعي فهمًا وتجديدًا، حتى أضحى معجبًا بالمقاصد و « مقلدًا » لتجديد الدين؛ لأن الشاطبي كان من المجددين والعلماء المجاهدين، الذين أجمع السابقون واللاحقون على أهمية فكرهم.

كما استطاع الأنصاري بملكة فهمه وسليقة لغته أن يوضح الرؤية الضبابية السائدة في العمل الإسلامي، ويجدد الفهم للدين في زمان الغيم والرؤية العسيرة، كما أن تتلمذه على يد مربي الأجيال ومصلح الشباب ومحيي الهمم بديع الزمان النورسي، جعلته يتبنى مقولته الشهيرة: « حياتي بذرة لخدمة القرآن ». كما جعلته مدققًا مؤصلًا على طريقة شيخه الدكتور الشاهد البوشيخي، إذ الرجل تعلم التأصيل والمقاصد ليبدع في زمن التقليد، وينشر القرآن كما فعل المجددون الأوائل من هذه الأمة.

إن العالِم الفطري - بحسب الأنصاري - هو الذي ينتبه إلى عرض الوقت دون طوله، وهو الرجل المتعبِّد للَّه، المتأمل في كتابه، المتفكر في مآله، العاكف على ترتيب حياته الأبدية، وهو الإنسان الذي يؤدي حق إسلامه، فيحرك (مكوك

(١) فريد الأنصاري، جمالية الدين (ص ١٢٠، ١٢١).

الشعور والحس والإرادة دائمًا من الإيمان إلى « الحركية »، ومن « الحركية » إلى الإيمان، وينسج نقوش قماش حياته ورقوشه، وكأنه يعرضها لمشاهدة أنظار اللَّه - تعالى - بكامل انشراحِ الصدر)[1]، وهو المؤمن الذي يقوم بوظائف أربعينيته بدءًا من الدعاء الخالص وانتهاءً بالعمل الصالح المصلح.

لقد كان فريد الأنصاري من الذين ألهمهم اللَّه شكر نعمه عليه، فكان شاكرًا لأنعم اللَّه عليه وعلى والديه، وكيف لا وهو الذي سهر على حياة والدته بالرغم من كثرة مشاغله، إذ ابن الأربعين الذي اشتد عوده وعقله، وكثر نفوذه، وكبرت مسؤولياته، هو الزوج والأب والعامل والمشتغل والمشغّل، فحياته مليئة بالأشغال اليومية والمسؤوليات.

لقد شكر فريد ربه عند تمتعه بالنعم، وصبر عند ابتلائه بالنقم، حيث تميزت حياته بكثرة الابتلاءات، وكيف لا والرسول الكريم كان من أشد الناس بلاءً، ثم يليه العلماء العاملون، ثم الأمثل فالأمثل، فقد ابتلاه اللَّه بمرض أحد أبنائه فخُيِّر بين إجراء عملية دقيقة أو انتظار فرج اللَّه، فاستشار واستخار (استشار الأطباء الأمناء، واستخار رب كل شيء ومليكه)، واختار أن يلتجئ إلى ربه في ثلث الليل الأخير، حيث ينزل رب العزة إلى السماء الدنيا نزولًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، فاختار الأوقات المناسبة لمناجاة ربه، إنها (أوقات تختارها بنفسك، لتناجي فيها ربَّك بالثناء والدعاء، أوقات يصفو فيها قلبُك لله ويخلص له، بليلٍ أو نهارٍ، فتعرج إليه أشواقُك في خلوات الروح رَغَبًا ورَهَبًا، عبر كلمات الذكر والثناء عليه - تعالى -، بما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، مما عَلَّمَنَا - سبحانه - من أسمائه الحسنى وصفاته العلى.. فتدعوه بما دعاه الأنبياءُ والصِّدِّيقون والأولياءُ المخلصون)[2]. فدعا مخلصًا ربه، ساجدًا خاضعًا طائعًا ملبيًا، وإذا بالدواء ينزل من سبع سموات رحمةً للعباد، ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢].

---

(١) مجلة حراء، العدد (٢٤) (مايو - يونيو ٢٠١١م).

(٢) مجلة حراء، العدد (١٢) (يوليو - سبتمبر ٢٠٠٨م).

أما العمل الصالح الذي يصلح حال الإنسان، فردًا أو جماعةً، أو يكون سببًا لسعادته، فلا علاقة له بماهية العمل نفسه، وإنما بميزان الشرع الحنيف، فهو صالح؛ لأن الشرع ثمنه، إذ الإنسان يحيى وهو ميت بعمله الصالح، ويطيل عمره ويرفع درجاته بعد مماته، يقول تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠]؛ لذلك رفع اللّٰه ذكر الأنصاري؛ لأنه اشتغل بذكر اللّٰه قبل وبعد اشتداد عوده، أحب كلام اللّٰه فأحبه أهل اللّٰه وخاصته، وسهر على تعلم وتعليم القرآن قراءةً ومدارسةً حتى فتح اللّٰه عليه من كنوز كتابه، فكان رجل القرآن بامتياز.

لقد كان العمل الصالح سببًا في تزكية النفس، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]. وقد استطاع فريد الفريد، عندما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، أن يؤلف أكثر من عشرة مؤلفات ومئات الدروس، جلها لخدمة القرآن وأهله، وأي عمل أفضل من خير جليس في الكون، ففريد « الجديد » سطع نوره بعد الأربعينيات من عمره، عندما ابتعد عن العمل التنظيمي، مما جعله يبدع أكثر، ويفكر في عمق الأشياء بعيدًا عن زخارف الكاميرات ووساوس الاجتماعات.

وهكذا استطاع الأنصاري بفعل عمليته الجراحية الدقيقة على الواقع، أن يبدع عملًا فريدًا غيَّر مجرى العمل الدعوي في بداية القرن الواحد والعشرين، حيث كانت آلام الجراحة باديةً على مشروعه ونفسه، حتى لاقى من السفهاء والجهلاء و « العقلاء » و « المنظرين » سهامًا كثيرةً، لكن المبدع يبقى فوق كل اعتبار؛ إذ المبدع الحقيقي لا يسعه لا زمان ولا مكان ولا تنظيم؛ ولهذا فبمجرد خروجه من التنظيم، نظم وقته، وفتح خزائن القرآن لاكتشافها، حتى وصل عمله الصالح إلى النفوس ثم القلوب، وأضحى عملًا صالحًا ينتفع به.

لقد كان العالم الفطري فريد الأنصاري عند بلوغه سن الأربعين شامخًا كالطود العظيم بخلقه واستقامته وورعه، وبما أنه كان على ثغرة من ثغور الإسلام، فقد استطاع أن يكون سراجًا منيرًا في زمن الظلام الكالح والضباب الكثيف، كان

خطيبًا بارعًا لا يلحن، شديد التأثير على مستمعيه، يأسر القلوب ويذهب بالألباب إلى الحياة الحقيقية الأبدية، حياة استطاع أن يرتبط بها عبر حبل اللَّه المتين، وأن يستنير لها بنور القرآن المبين (تلاوةً ومدارسةً وتزكيةً)، فكان بها شمسًا أضاءت بنور القرآن، فكُتب له الخلود والحياة في ضمائر الناس، عاش بفطرته مثلما فكر. كان أخًا للآخرة كما يقول النورسي. وكان عملاق العصر كما يقول محبوه. خرج من الدنيا وهو لا يزال يعيش فيها. ملائكة الذكر تحبه، فلطالما استمعت إلى أهازيجه السجية، وملائكة العلم تعرفه، فلطالما حملت بأجنحتها طلائعه، سيدي... أنت المجاهد حقًّا، فعليك من اللَّه السلام[1].

* * *
* *
*

(١) فريد الأنصاري، رجال ولا كأي رجال، مجلة حراء، عدد (١٣) (أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٨م).

خطاب الفطرية
عِلّة العالَم وعودة العالِم

د. يحيى رمضان

لا جرم أنه من قبيل التجنِّي المنهجي، وعدم الإدراك المعرفي العميق لأطروحة كتاب « الفطرية » حشر خطابه في زاوية الخطابات التي استهدفت الحركة الإسلامية بالنقد[١]، وقصر النظر فيه على ما ورد ضمنه من تقييم لهذه الحركة ولدورها التاريخي. ذلك بأن صاحب الفطرية وإن كان قد بنى جزءًا من أطروحته على ممارسة الفعل التشريحي على الحركة الإسلامية خطابًا، ومنهجًا، وممارسةً، وما آلت إليه في كل هذا بالمقارنة مع ما تحمله من تصورات ومسلَّمات تنطلق منها، (أو تفترض أنها منها تنطلق)، فإنه قد مارس الفعل نفسه، وبأقدار متفاوتة على مكونات أخرى من جسد العمل الإسلامي، بل إن الأنصاري قد قام بالعمل ذاته على تراث الأمة في جوانب مهمة من هذا التراث، لا سيما ما يتعلق منه بالجانب الأصولي الذي دعا إلى تجديد استيعابه وفق عمقه المقاصدي، بل وإلى تطوير قواعده الإجرائية بما يضمن قضايا العصر الحديث[٢].

١ - الخطاب الإسلامي والفعل النقدي:

إن كان الأنصاري من خلال كتابه « الفطرية » قد مارس الفعل النقدي، فإن هذا الفعل قد مس في الحقيقة الخطاب الإسلامي بعامة، قديمه وحاضره، باعتباره فهمًا وإدراكًا، وبوصفه ممارسةً وتنزيلًا.

وإن كانت الحركة الإسلامية قد نالها من الاهتمام في هذا الكتاب ما لم يتحقق لغيرها من متلقي الوحي (فهمًا وتنزيلًا)، فليس ذلك إلا لأنها تمثل المكون

---

(١) انظر: رد الأستاذ الحمداوي على كتاب الفطرية على موقع الشهاب الإلكتروني.

(٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٧٨، ١٧٩).

الأكثر حضورًا، والأكثر نشاطًا ضمن جسد المكونات المتلقية لخطاب الوحي، والمتفاعلة معه بمستويات معينة ضمن شروط الزمان والمكان، وسياق الفهم، ومقامات التأويل. بل والأوسع انتشارًا، والأكثر قدرةً على ممارسة الفعل الإقناعي، من ضمن مكونات جسد الأمة المتصارعة نخبُه على استمالة أكبر شريحة من جماهير الأمة، بكون مشروعها الأقرب لهوية هذه الأمة، والأقدر على تلبية حاجاتها دون مصادمة مع الذات، ولا خيانة لها.

إضافة إلى أن الأنصاري صاحب خطاب الفطرية هو خريج هذه المؤسسة، وأحد باني خطاباتها، في مراحل مختلفة من مراحل وجودها في الجانب الغربي من العالم الإسلامي.

محصلة القول إذن، إنه إن كان الأنصاري ابن المؤسسة قد قام بإعادة النظر في المؤسسة التي حضنته، ورعاها في الوقت نفسه لفترة زمنية تكاد تكون عمره إلا أقله، فإنه أيضا - وربما بإنارة أقل كشفًا وتبئيرًا - قد قام بالفعل ذاته مع غير هذه المؤسسة، ومع الخطاب الذي تفترض هذه المؤسسة أنها الوريث الشرعي له، ليس باعتبارها متمثلةً له فقط، ولكن محينة أيضًا: تكرِّس أصوله، وتحقق مناطاتها في الزمان والمكان، سهرًا منها على بقاء خطاب الوحي فاعلًا باستمرار هذا الزمان وهذا المكان.

إن ما قام به الأنصاري في كتابه الفطرية لا يختلف كثيرًا (إلا ما تقتضيه السياقات الزمنية وشروطها) عما قام به غيره في أوقات مختلفة من تاريخ الأمة من «نقد ذاتي»، يتجاوز جلد الذات إلى تأسيس مشروع مختلف، يرى فيه صاحبه القدرة على تجاوز الكائن الذي استنفذ ضرورات وجوده إلى ممكن يراه الأفق القابل؛ لتتجاوز الذات كبوتها لا باعتبارها « جماعةً » أو « حركةً » أو « حزبًا »، ولكن بوصفها كيانًا بحجم أمة (وقد يكون بحجم العالم). أمة تطمح للخروج من أزمتها التي ما جاءت الحركة أو الجماعة في لحظة من لحظات تاريخ الأمة

إلا لكي تحقق لها ذلك، لكنها قصرت بالإيفاء بذلك على الرغم من تباعد السنين، بسبب ما اعترضها من إشكالات، وما واجهته من تحديات لم تمنعها من تحقيق ما انطلقت إليه بداية تأسيسها فقط، بل جعلتها في أحيان كثيرة تبدو وكأنها أصبحت عائقًا أمام تحقيق هذا الهدف، مما جعل البعض من قياداتها يقوم بما يمليه عليه واجب الوقت من مراجعة أو تقييم أو نقد قصد تصويب المسار، وفي بعض الأحيان أيضًا من أجل تجديد النية.

وباختلاف هذه القيادات من حيث خلفيتها المنهجية والمعرفية، ومن حيث رؤيتها للواقع من حولها، ومدى إدراكها لهذا الواقع في بعديه المحلي والعالمي اختلفت طبيعة المراجعة، فكان أن جاءت بعض هذه المراجعات جزئية اكتفت ببعض جوانب القصور لا سيما ما تعلق بالنتائج والآثار. وجاءت مراجعات أخرى جذرية لا تتجاوز الحركة باعتبارها إحدى الأجوبة التي تعينت في الزمان والمكان، ولكنها تسعى إلى تجاوز كل المشاريع الحاصلة على الأرض، والتي لم تستطع أن تضع الأمة على سكة النهوض.

ومن هذا القبيل المراجعة التي يقوم بها الأنصاري في كتابه الفطرية، حيث يعود إلى السؤال الأصلي والمركزي الذي انطلق منه ليس المؤسسون الأوائل للحركة الإسلامية فقط، بل وغيرهم من قيادات الأحزاب والحركات التي شهدها الوطن العربي الإسلامي، إنه السؤال المتعلق بكيفية النهوض من الكبوة، من أجل استئناف الدور الحضاري للأمة باعتبارها كيانًا يملك مشروعًا يستهدف الإنسانية في مجموعها.

إن أطروحة الكتاب الجوهرية إذن - بعيدًا عن كل جدل غير منتج، أو نقاش يحوِّل القضية عن مسارها الحقيقي وهدفها الأصيل - تتمثل في « شروط النهضة » بتعبير المفكر الجزائري مالك بن نبي، أو آفاقها بتعبير الفيلسوف التونسي أبي يعرب المرزوقي، أو البعثة (كانتقال تاريخي كبير) بتعبير الأنصاري بعثة تمكن

المسلمين باعتبارهم حاملي رسالة إنسانية كونية من استئناف دورهم التاريخي الذي تنكبوا سبيله فتنكبهم.

لذلك فليس غريبًا أن تكون أول قضية يستفتح بها الأنصاري خطابه عن « الفطرية »، بل ويجعلها أحد أمرين يسعى الكتاب إلى إثباتهما: القضية المتعلقة بموقع الأمة في لحظتها الراهنة داخل حلبة التدافع الحضاري، حيث آلت الأمة في حسابات الغرب إلى مجرد رهان للابتلاع العولمي الجديد[١]، لما ظهر عليها من علامات القابلية لذلك؛ بسبب ما أصاب « الوجود المعنوي للأمة من ضعف صار اليوم إلى ما يشبه الفقدان »[٢]؛ لذلك فإن محنة الأمة اليوم - كما يؤكد الأنصاري - « هي في محاولة النهوض من تحت هذا البلاء كله بتشعباته الداخلية والخارجية »[٣].

وإذا كان من البدهي أن أية محاولة للنهوض لا يمكنها أن تتم خارج إدراك سياقها التاريخي، وطبيعة التحديات التي تواجهها، ولا من دون وعي بطبيعة العوائق الذاتية والموضوعية التي تحول دون انبعاثها، وكان من المسلَّم به أيضًا أن أية محاولة تسعى إلى ذلك لن تحقق ما تصبو إليه، من دون مراجعة شاملة وصارمة لما تعتقده السبيل الموصل إلى الهدف - تصوراتٍ وإجراءاتٍ، فقد كان لزامًا على صاحب خطاب الفطرية - وهو يحاول رسم طريق النهضة (أو البعثة) - أن يخط في الوقت نفسه إجاباته الخاصة عن كل تلك المقدمات المعتبرة ضرورية لأية نهضة.

٢ - علة العالَم أو طاغوت العولمة:

ينطلق الأنصاري من أجل بناء مشروعه النهضوي (أو البعثي التجديدي) من كون العالم اليوم يعيش علةً تهدد كيانه، وتصيب أهم مكون فيه (الإنسان) في

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١).
(٢) نفس المرجع (ص ٢١).
(٣) نفس المرجع (ص ٢٢).

مقتل، علة اسمها « طاغوت العولمة »[١] بما هي العولمة « حرب عالمية » ضد الإنسان، مطلق الإنسان. حرب تستهدف بالأساس « تدمير فطرته الإنسانية »[٢]، إدراكًا من المشعلين لهذه الحرب بكون هذا الفعل هو السبيل الأوحد والأكثر ضمانًا لاسترقاق الإنسان، وتصييره من ثم (ذرةً تافهةً تدور على الهامش! خادمًا غير مخدوم، ومستهلكًا غير منتج، ومفعولًا به غير فاعل)[٣]. يفضل بنفسه - على حد تعبير أبي يعرب المرزوقي - الاندماج الحضاري في قيم الغالب[٤]، بل ويرى - بعد عملية تصفيته الروحية - في سيده عين المثال الأعلى إلى الحد الذي يغدو فيه همه الوحيد أن يكون مثله، مع الاعتقاد بأنه لن يكون كذلك إلا بنفي كل ما يميزه عنه[٥].

إن عولمة الاستتباع الحضاري هاته، والتي يغدو فيه المستعمَرون مجرد توابع منقادة ما كان لها أن تتحقق لولا ما تعرض له هؤلاء من عمليات « لإخضاع الإرادات »[٦]، تكللت باحتلال الإنسان من حيث هو انتماء وولاء ووجدان[٧]. ففقد بذلك حريته على الاختيار، ففقد جزءًا مهمًّا من فطرته التي فطره اللَّه عليها، عبدًا حرًّا مختارًا.

وإذا كان هذا هو التحدي الذي يواجه الإنسان اليوم، فكيف السبيل إلى تحريره من « أغلال الاسترقاق العولمي » وتجنيبه أكبر عملية تصفوية لروحه شهدها تاريخه؟ وما دور الأمة بما هي حاملة لمشروع إنساني كوني من هذا الذي يجري؟ وهل لها من سبيل إلى دفع هذا الطوفان، أم أن العلة سرطان لا سبيل إلى رده؟

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٣).
(٢) نفس المرجع (ص ١١).
(٣) نفس المرجع (ص ١٣).
(٤) أبو يعرب المرزوقي، آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة، دار الطليعة، بيروت (ط ١)، (١٩٩٩م) (ص ١/ ١٢١).
(٥) نفس المرجع (ص ١٢٠).
(٦) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٧٦).
(٧) نفس المرجع (ص ٧٦).

بتعبير آخر هل العولمة بشكلها الحالي قَدَر لا مفر منه، وحتمية تاريخية متحكمة، ونهاية للتاريخ غالبة؟

لا شك أن كثيرًا من النخب التي حاولت أن تجيب عن هذا السؤال أخفقت - كما يرى أبو يعرب المرزوقي - في تحديد طبيعة العولمة، لا سيما حينما رأت فيها ظاهرةً جديدةً، خاصةً بعصرنا، ولا مثيل لها في العصور السابقة، ونظرت إليها باعتبارها ظاهرة حتمية وواقعة طبيعية لا مرد لها(١) ولا سبيل إلى دفعها؛ لأنها نهاية التاريخ الذي لا مجال إلى تعديله أو تغييره؛ لأنه تاريخ تم وأنجز، وأن هذه المرحلة منه - العولمة بشكلها الحالي - ليست سوى كمال ما أنجز، وأرقى ما أمكن أن يصل إليه الإنسان.

ولذلك تعالت أصوات بعض النخب العربية التي أصابها من « الانهزام الروحي » ما أصابها بضرورة « الاندماج » والانصهار في هذه العولمة؛ لأنها ليست الحاضر فحسب ولكنها المستقبل أيضًا، بركوب قطارها تتأهل الشعوب، وببركتها تستطيع الخروج من كل آفات العصر المصاحبة للتخلف والمؤشرة عليه.

على الطرف الآخر المقابل لهذا التصور يقف الأنصاري ليضع العولمة في إطار التدافع الحضاري، سنة الله في كونه، حيث صراع النماذج الحضارية (التي يؤمن أصحابها بأن لهم رسالةً تحدد مثال الإنسان الأعلى)(٢) ظاهرة لم يخل منها عصر، مما يجعل من العولمة (فعلًا تاريخيًّا متواصلًا لا يتوقف)(٣)، إذ هي بتعبير الأنصاري « حصان، والحصان لمن يركبه »(٤)، ومن ثم فإن أي حديث عن نهاية التاريخ إنما هو «أسطورة وأكذوبة»(٥) من أساطير العولمة المكتسحة الآن وأكاذيبها، وإحدى رسائل حربها النفسية على غيرها ممن لم يخضعوا بعد لإرادتها ولم يسلموا الروح لها بعد، وإلا فإنه إن كان هذا « زمان نهاية الجغرافية واختفاء

---

(١) أبو يعرب المرزوقي، آفاق النهضة العربية (ص ١١٨ - ١٢٦).

(٢، ٣) نفس المرجع (ص ١١٩). (٤، ٥) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٢٣).

الحدود » فإنه لن يكون مقابل ذلك إلا « زمان انبعاث حركة التاريخ من جديد، واستشرافها لدورة حضارية أخرى[١] يحددها من يستطيع أن يجعلها له، والصراع اليوم كما يقول الأنصاري هو: « **حول من يكون لها؟ أو هي لمن تكون؟** »[٢]. بمعنى أن العولمة سيحددها المستقبل بوصفه حصيلة المعركة الجارية بين الإرادات المتغايرة للنماذج الحضارية المختلفة.

٣ - عولمة مقابل عولمة:

وإذا كان الموقف الذي رأى في العولمة بمؤشراتها القيمية الأمريكية قدر الإنسانية المكتمل والمحتوم، والذي لا سبيل إلى رده قد آل - كما رأينا - إلى الدعوة الصريحة والمعلنة إلى الاندماج فيها، بدعوى أن أي موقف آخر إنما هو حكم على الذات بالانزواء على هامش التاريخ، فإن الموقف الذي تبناه الأنصاري - بما هو نقيض الأول - قد آل إلى أن الرد المناسب على العولمة بما هي تحقق أمريكي لا يكون إلا بعولمة بديلة.

عولمة مقابل عولمة هو الحل الذي يقترحه الأنصاري لمواجهة الكائن غير المنتهي (العولمة الأمريكية)، من أجل ممكن أفضل، يمكن أن يُحسم فيه لصالح عولمة إنسانية تعيد للإنسان فطرته المشوهة، يقول الأنصاري:

« **إن الدعوة الإسلامية اليوم إن هي دخلت هذه المعركة بشروطها الإيمانية، وبتميُّزها الحضاري، وهويَّتها الإسلامية الصافية، فإنها - بإذن اللَّه - تنجح عولمتها الإيمانية عمرانًا حضاريًّا جديدًا، وأمنًا وسلامًا للعالمين كل العالمين** »[٣].

فما طبيعة هذه العولمة البديل؟ وما سمات هذا العمران الحضاري الجديد الذي يبشر به خطاب الفطرية؟ وما مقوماته؟

من أهم ما يميز العولمة المهيمنة الآن، والتي يدعو خطاب الفطرية إلى

(١، ٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٢٣). (٣) نفس المرجع (ص ٢٤).

مواجهتها بعولمة حضارية جديدة، أنها عولمة « قائمة على تدمير الفطرة الإنسانية »[١]، واحتلال الإنسان من حيث هو انتماء وولاء ووجدان[٢]، إخضاعًا لإرادته، ومحوًا لذاكرته، وتصفيةً لروحه، حتى يدخل « برغبته » و « إرادته » حلبة الاسترقاق العولمي. إذا كان الأمر كذلك، **فإن التحدي الذي سيواجه العولمة البديل سيكون لا محالة قائمًا على تحرير الإنسان من استرقاقه العولمي، وإعادة فطرته التي انتُهِكت إما كليًا أو جزئيًا**، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بدين الفطرة.

من المرتكزات التي يقوم عليها الدين الإسلامي ما يسميه أبو يعرب المرزوقي بـ « قانون الحفاظ على الفطرة الإنسانية »[٣]، الساعي إلى تخليص الإنسان مما يصيب جوهر كينونته من تحريف. على هذا (المبدأ/ القانون) تقوم نظرية الفطرية للأنصاري مقدمة نفسها باعتبارها الحل الملائم الذي بإمكانه معالجة العلة التي يعيشها العالم اليوم، فبمواجهة شروط العولمة الحالية وأسبابها، وخصائصها، بأسباب وشروط وخصائص مقابلة، بل ومناقضة يمكن خلق مقومات العولمة الحضارية، التي يدعو إليها خطاب الفطرية، عولمة العمران الحضاري، وحرية الإنسان وأمنه وسلامه. « عولمة تثمر الوجود الإنساني فتثريه وتصلحه »[٤]، « لا عولمة تصحره فتفقره وتفسده »[٥].

و كما هي العولمة بشكلها الحالي الأمريكي ما تزال - كما يقول الأنصاري - في طور نشأتها، ولم يكتمل تشكلها بعد، ولا التأمت صورتها الكلية على تمامها[٦]، **فإن عولمة الفطرة أو العولمة البديل** التي يبشر بها خطاب « الفطرية » ليست هي أيضًا فعلًا منجزًا حصل في التاريخ السابق، ويكفي العودة إليه من أجل استنساخه.

إن عولمة الفطرة في خطاب الفطرية يبدو أفقًا مستقبليًا يراه « المستبصرون »[٧]،

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١).
(٢) نفس المرجع (ص ٧٦).
(٣) المرزوقي، آفاق النهضة العربية (ص ١٣١).
(٤) نفس المرجع (ص ١٢٨).
(٥) نفس المرجع (ص ١٠٨).
(٦) نفس المرجع (ص ٨٣).
(٧) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٨).

وتؤكده - كما يرى الأنصاري - « مبشرات نصية ومنهاجية تبشر بعالمية هذا الدين وظهوره على العالمين »[١]. وبهذا الاعتبار لا تكون العولمة البديل « أمرًا حاصلًا فيمكن تقديمه، وإنما هي مثال أعلى وضعه الفعل المؤسس للرسالة الإسلامية »[٢] مع بداية الدعوة وبعثتها الأولى، وتحتاج الأمة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى استئنافه في « بعثة تجديدية »[٣] تكون بمثابة « خطوة الانتقال التاريخي الكبير »[٤]. الذي يجعل الأمة تبدأ الخطوة الأولى في مسيرة الألف ميل لتحقيق عالمية البناء والحرية الإنسانية، والتي لن تتحقق إلا بإرجاع الإنسان إلى فطرته، والدفاع عنها، من أجل حمايتها من التحريف الجزئي أو التدمير الشامل، فكيف السبيل؟

٤ - العالِم رهان العولمة البديل:

تقتضي العولمة الإسلامية - بما هي بشرى وأفق مستقبلي، وليست واقعًا متحققًا - لكي تُنجز على الأرض في واقع الناس وحياتهم إعادة الروح لفعل التأسيس الأول بالعودة إلى ميراث النبوة، وبعثه من جديد وفق سياقات الإنسان المستجدة لتحقيق مناطاته في واقع الإنسان بما هو حركة عمرانية في الزمان والمكان[٥]، وذلك لا يتحقق وفق أطروحة الفطرية إلا بقيادة العالِم الرباني.

أ - في موقع العالِم وطبيعته:

العالم الرباني - كما صوره الدكتور فريد الأنصاري - هو مركز نظرية الفطرية التغييرية التي يدعو إليها وأساسها الذي تقوم عليه، إذ هو وحده الإنسان الفاعل بالأصالة؛ لأنه « الحامل لرسالة القرآن »[٦]، الداعي لها تثبيتًا وتجديدًا، بكل ما يقتضيه ذلك من حكمة وفقه، ومن ثم القائم على إيصال « كليات دين الفطرة، وأصوله الإيمانية والعلمية، وقيمه الأخلاقية، إلى المجتمع بكل شرائحه وطبقاته

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٨).
(٢) المرزوقي، آفاق النهضة (ص ١٨٢).
(٣، ٤) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٢٤).
(٥) نفس المرجع (ص ٣٦).
(٦) نفس المرجع (ص ٤١).

تلاوةً وتزكيةً وتعليمًا »[١]. وما عدا العالِم إنما هو « إنسان متفاعل » أو فاعل بالتبع والاختصاص: فهو تابع للعالم في تلقي خطاب الدعوة، فاعل بعد ذلك في مجاله الذي يشتغل به، إنسان تعليم، أو إعلام، أو اقتصاد، أو سياسة[٢]. فيكون خطاب العالِم ونصُّه بهذا الاعتبار عامًّا وشاملًا شمولية القرآن، وخطاب غيره لا يعدو أن يكون خطاب متخصص يستمد الكليات من خطاب العالِم، ويحاول تنزيلها في المجالات المختلفة (المجال التعليمي، الإعلامي، الاقتصادي، السياسي...).

ويبدو العالِم الذي يراهن عليه « خطاب الفطرية » لقيادة العولمة الإيجابية من خلال الأوصاف التي يضفيها عليه قيمًا وقدراتٍ، ومن حيث المهام المنوطة به، أفقًا أكثر منه تحققًا، فنموذج العالِم الذي أُسند إليه أمر قيادة العالَم لتحريره من مافيات العولمة الحالية، وإعادة فطرة الإنسان المعاصر التي انتُهكت وتزكيتها والمحافظة عليها لا وجود فعليًّا له على أرض الواقع. ذلك بأن الواقع الحالي بمستجداته ومتغيراته، يتطلب عالِما من نوعٍ خاص، يتوفر على قدرات ملائمة للعصر الذي يعيشه، حتى يستطيع القيام بدوره الذي تقتضيه المرحلة. إن العالم الذي تراهن عليه نظرية الفطرية في التغيير عالِم بصيغة الجمع من حيث الكيف[٣] إذا صح التعبير؛ إذ القدرات المطلوبة في العالم الذي يدعو إليه خطاب الفطرية قدرات متعددة قلما تجتمع، أو أنها بالأحرى لا تجتمع إلا في عينات قليلة، بل نادرة، قدرات متعددة بتعدد ما يقتضيه ليس كتاب الوحي من قدرات على الفهم والإدراك من حيث كونه نصًّا لغويًّا، ولكن ما يقتضيه أيضًا تنزيله من

(١، ٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤١). انظر: حديثه عن العالم القائد (الإمامة العلمية)، (ص ١٥٢ - ١٥٥).

(٣) فهو الفقيه المجتهد المجدد والداعية الرباني الورع الحكيم، والمعلم المربي الهادي، المسهم في بناء الحضارة، البعيد عن مجرد حفظ المعلومات ونقلها، بل القادر على التصرف فيها بما يناسب الزمان والمكان، بما تقتضيه هذه المناسبة من معرفة بالزمان وأهله في مختلف المجالات والعلوم، لا سيما ما تعلق منها بالعلوم السياسية والاقتصادية والإعلامية...). انظر: فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤١، ١٥٤، ١٥٥، ١٨٣).

قدرات تداولية تربط بين النص وسياقه، بل وسياقاته من أجل تحقيق مناطاته المختلفة باختلاف الزمان والمكان، قدرات عقلية تتجاوز النقل بما هو استنساخ بسيط، وتتعدى الذاكرة بما هي تجميع معلومات وحفظ مكتبات إلى أن تكوّن قدراتٍ ومهاراتٍ قادرةً على الاستجابة الحكيمة، والملائمة لمستجدات الأزمنة والأمكنة، قدرات للتحليل والتركيب، ومواجهة المشكلات والإشكالات، وتصنيف القضايا وترتيب الأوليات والموازنة بين الاختيارات.

إن العالِم الرباني ليس عالِمًا بصيغة الجمع من حيث الكيف وحسب، وإنما من حيث الكم أيضًا؛ لأنه لتحقيق العولمة البديل وإنجاز الانقلاب التاريخي الكبير لا يكفي عدد قليل من العلماء، بل يقتضي الأمر جمهرةً منهم، جمهرة تناسب العدد السكاني للأمة بل وتلائم العدد السكاني للعالم، ما دام الأمر يتعلق ببديل يستهدف الإنسان من حيث هو إنسان، بديل يسعى أن يكون حلًّا ليس للمسلمين فقط ولكن لغيرهم أيضًا، أليس « **القرآن هو رسالة الرحمن إلى العالمين!** »[١].

وعالِم الفطرية فوق هذا وذاك حامل رسالة يتناغم فيه العلم - بكل ما وصفناه - بالعمل باعتباره تصديقا للمعلوم والتزامًا به ودعوةً إليه، بما يقتضيه ذلك أيضًا من بيان في التبليغ، وحكمة في التعليم، وورع في العيش حتى يحقق بذلك من خلال علمه وعمله، سلوكًا وتزكية التوازن والاتساق المطلوب للفطرة الإنسانية في أعلى صورها، الفطرة التي جاء دين الفطرة لتأسيسها مبدءًا من مبادئ الحياة المطمئنة، بما هي الفطرة تناغم وانسجام بين جوهر الروح ورغبات الجسد والنفس معًا.

بهذه الخصائص والصفات فقط يمكن للعالِم قيادة الأمة قيادةً تمكنها من « استئناف دورها التاريخي الكوني، وتقديم رسالة الحضارة الإسلامية ذات العالمية الفريدة للإنسان، بوصفها ضربًا روحيًّا خلقيًّا من العولمة الموجبة التي لا يتنامى فيه الدنيوي على الأخروي »[٢].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٦).

(٢) المرزوقي، آفاق النهضة (ص ١٢٨).

ب - في عوائق تحقيقه وإنجازه:

لا شك أن خطاب الفطرية على وعي بالعجز الذي تعيشه الأمة في إنتاج هذه النوعية الخاصة من العلماء، بل وبالقصور النظري الذي يعاني منه بعض أهل الخير من المشتغلين بالدعوة اليوم، الذين ظنوا أن الناس قد انصرفوا إلى طلب العلم الشرعي بوفرة زائدة عن الحاجة[١]؛ ولذلك يسارع إلى اعتبار هذا الظن دعوى باطلة؛ لأن ليس كل من انتسب إلى العلوم الشرعية هو من علماء بعثة التجديد[٢]، مؤكدًا « أن أمثال هؤلاء ليس منهم في الأمة إلا الندرة! بله القلة! بله الكثرة والوفرة! »[٣].

ولا إمكان لتحقيق التغيير المطلوب من أجل قيادة العالَم إلا بإحداث الانقلاب المطلوب في تخريج العالِم، « فبعثة التجديد لن تكون إلا بقيادة علمية متميزة كمًّا وكيفًا »[٤]. ملائمة لتطور الزمان وتكاثر عدد أهله، « وقد رأيت أن رسول اللَّه ﷺ قد خرّج للناس منهم جيلًا! فما بالك بزماننا هذا؟ وقد بلغ عدد المسلمين في العالم مليارًا ونصف! هذا إذا حددنا مخاطبنا في المسلمين خاصة، وإنما الإسلام جاء لمخاطبة العالمين »[٥].

إن التساؤل الذي يمكن أن يتبادر إلى الذهن بخصوص هذا الطراز من العلماء الذين يراهن عليهم خطاب الفطرية هو: كيف السبيل إليهم؟ لا شك أن خطاب الفطرية هو مشروع نظري لما ينبغي أن يتم، وأن تحقيق ذلك يحتاج إلى خطوات عملية تتجاوز الخطاب النظري إلى الممارسة الفعلية على الأرض، غير أنه قد يكون من الملائم مواجهة الخطاب النظري لكتاب الفطرية بالأسئلة التالية:

هل تستطيع أمة تعيش الآن أعلى مستويات الهيمنة (داخلية وخارجية)،

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٥٤).
(٢) نفس المرجع (ص ١٥٤، ١٥٥).
(٣) نفس المرجع (ص ١٥٥).
(٤) نفس المرجع (ص ١٥٤).
(٥) نفس المرجع (ص ١٥٥).

وأعلى درجات التبعية، وأدنى مستويات التعليم أن تنتج مثل هؤلاء؟ هل المؤسسة التقليدية فيها - بما هي عليه من ترهُّل، وما تعانيه من غيبة عن مجريات الأحداث - قادرة على إنجاز ذلك؟ وهل تسمح المؤسسة « الحداثية » أو الجداثية - بتعبير المرزوقي - والمتحكمة في مصائر أغلب شعوب الأمة بقهر السلطان - بتحقيق ذلك؟ وكيف الإفلات من عدو - على حد تعبير خطاب الفطرية ذاته - « صار يراقب - عن كثب - برامج التعليم، وخطب المساجد، والعلاقات الزوجية، ويحصي مدارس القرآن والمعاهد الدينية ونسب الولادات؟ »(١). أليس الانخراط في العمل السياسي لجهة من الجهات التي تحمل المشروع الإسلامي بما هو العمل السياسي مشاركة، ومدافعة، أقرب إلى إمكان تحقيق هذا النوع من العلماء، دفاعًا عن الأمة في حقها في تكوين علمائها، وتأمينًا داخليًّا لمسار تكوينهم وتطوير قدراتهم؟ غير أن هذه التساؤلات تبقى مع ذلك من حيث الأهمية أدنى مما يمكن أن يثيره الموقع الذي تسنده نظرية الفطرية للعالِم من اعتراضات ومخاوف.

جـ - في جوهر مفاصلته لغيره ضمن حقل العمل الإسلامي:

إن تقدم العالِم لقيادة العالَم - بما هو العالِم أفق لتجسيد شمول خطاب الوحي - سيكون من دون شك على حساب فاعلين آخرين، ولا سيما الفاعل السياسي الحامل للمشروع الإسلامي والمنخرط به في أتون الممارسة السياسية (مقاطعةً أو مشاركةً)، هذا الفاعل الذي عليه - بحسب خطاب الفطرية الذي توجهه رؤية العالِم الرباني الحامل لهموم الدعوة في عمومها وشمولها - أن يترك ساحة الممارسة السياسية المباشرة، بما هي « منافسات انتخابية ضيقة أو تحالفات حزبية خاسرة »(٢)، تجعل إنسان السياسة المشتغل بها غير الحامل للمشروع الإسلامي، والذي ليس بالضرورة معاديًا له، يشعر بأنه منافَس في مغانمه ومناصبه وحقائبه، فيجفل كارهًا أو معاديًا ليس لممارسي الفعل السياسي من

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٢٤). (٢) نفس المرجع (ص ٤٣).

حاملي المشروع الإسلامي فحسب، ولكن لخطاب الدعوة بعامة مما يؤدي إلى محاصرة هذا الخطاب ورجالاته. والأولى ربح هذا الكائن السياسي بشتى أطيافه من « اليمين » إلى « اليسار »، ومن « المعارضة إلى الأغلبية » لصالح الدعوة؛ لأن هؤلاء جميعًا هم موضوع للعمل الدعوي يستهدف استعادة فطريتهم. من أجل ذلك ينبغي الاكتفاء في العمل السياسي - لأجل مصلحة الدعوة - مخاطبة إنسانه بكلمات اللَّه بعمقها الغيبي وامتدادها الأخروي[١].

و إنني - يقول صاحب خطاب الفطرية - « على يقين بأن الدعوة الإسلامية بصيغتها الفطرية ستجد مكانها بين أولئك جميعًا وتصنع تيارها من كل الأطياف »[٢]. لأنها بذلك فقط تستطيع أن تنأى عن السياسة الحزبية بصورتها الحالية؛ لأنها بهذه الصورة (إنما هي صنيعة بشرية « براجماتية » أشبه ما تكون بالطائفية، (...) فمصالحها إنما لبعض الناس لا لكل الناس، بينما هو الدين هو كله للَّه، وما كان كله للَّه عاد فضله على كل الناس)[٣]. ولا يستطيع « الدين » حينما يُقذف به في خضم الصراع السياسي بمؤطراته الحالية إلا أن يكون في خدمة فئة دون أخرى، ومن ثم يتحول من كونه دينًا يشمل الجميع بمقتضياته التي تستهدف علاج مسائل الإنسان بعامة، وبأبعاده المختلفة إلى مجرد أيديولوجية لا تخدم إلا مصالح من يصارعون تحت لوائها.

إن تأجيل السياسي بالمعنى المباشر هذا، من أجل إفساح المجال لاشتغال الدين باعتباره سياسة تتجاوز الظرفيات المتغيرة؛ بغية الوصول إلى سياسة تسوس السياسة ولا تنقاد إليها، أي إلى صناعة السياسة بصناعة الدين وليس العكس[٤]، صناعة تعطي للسياسة مدلولها الإسلامي باعتبار الإسلام نظرية في الوجود والقيمة، نظرية تسعى لنجاة الإنسان من التردي الذي يَقْصُر وجوده على الأبعاد الدنيا منه، فيحقق له بذلك الفلَاح المزدوج المنشود: طمأنينة الدنيا وفوز الآخرة.

(١، ٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤٣). (٣) نفس المرجع (ص ٤٣، ٤٤).

(٤) نفس المرجع (ص ٤٣).

ولعل هذا مكمن الخلاف الأقوى بين خطاب الفطرية الذي يبشر به الدكتور فريد الأنصاري وخطاب الحركة الإسلامية التي كان الأنصاري أحد قياداتها. فليس الخلاف بين الخطابين حول وجود السياسة في الدين أو عدمها؛ إذ نفي السياسة عن الدين لا يقول به عاقل. ولكن الإشكال - كما يرى صاحب الفطرية - في منهج التعامل، واستبيان الكليات، وترتيب الأولويات: (إن الذي يظن (...) أننا بهذا المنهج سنقاطع السياسة، فهو يعاني مشكلةً في مفهوم الدين! إن الدين - بما هو خضوع للَّه رب العالمين - يتضمن تصورات ومواقف سياسية في كل شيء! من أصوله إلى أدق فروعه! فأن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه سياسة! وأن تسجد للَّه سياسة! (...) إن السياسة سارية في الدين (سريان السمن في الحليب) على حد تعبير المغاربة. لكن تجريدها في العمل الدعوي وعرضها على أنها عمود الدين انحراف عن منهج التدين! وهو ما سميناه من قبل بالتضخم السياسي)[١].

إن هذا التضخم السياسي هو ما يجعل الدين يتخلف إلى الوراء، فيغيب شموله، ويتشوه كماله، ويختل من ثم توازنه، حين ينوب عنه جزؤه الصغير ليصبح الكليَّ الذي على بقية مكونات الدين وأبعاده أن تتبعه، متيممةً به متجهةً نحو بوصلته. مما تتغير معه منزلة الكلي، فيصبح ما كان كليًّا (الدين في شموله وتعدد أبعاده) جزئيًّا، وما كان جزئيًّا يتنزل منزلة الكلي. فيصبح الدين حينئذ تابعًا وليس متبوعًا، فيطغى البعد الدنيوي على البعد الأخروي، فتنخرم الفطرة، ويختل توازن الدين الذي جاء للمحافظة عليها ودفع التحريف الحاصل فيها، ومن ثم تصبح الحركة الإسلامية في منهج تعاملها (وليس في نياتها التي انطلقت منها أو مقاصدها التي تظن أنها تسعى إليها) أقرب - كما يرى صاحب الفطرية - إلى العلمانية[٢]

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٥٢)، وكلامه هنا يحيل إلى كتابه البيان الدعوي والتضخم السياسي.

(٢) نفس المرجع (ص ٧٤). (وأما المنهج « منهج الحركة الإسلامية » فمن الصعوبة أن تنفي عنه التأثر بالأطروحة السياسية بمعناها العلماني الحديث).

في تجسيدها العولمي الاستهلاكي، ذي العقيدة التأليهية لليبرالية منها إلى روح العولمة الإسلامية، بما هي جمع متناغم بين الدنيوي والأخروي.

ولذا يتساءل صاحب الفطرية متعجبًا ومستنكرًا عن جري الحركة الإسلامية في خضم تنافسها مع غيرها من تيارات إلى إثبات فعاليتها مبشرةً بجنة فوق الأرض على وفاق ما بشرت به (النظريات المادية التي تبني مشروعها كله على عرض جنة وهمية على الأرض)[١]. وقد نسيت - بسبب ذلك - (قضية الإنسان الكبرى: الآخرة)[٢]، بل طردتها بعض تياراتها من قاموسها النضالي[٣]، وهكذا غدا الدنيوي المركز وغيره هامش، فانساق خطاب الحركة الإسلامية من دون أن يشعر، وهو في خضم الأحداث مهتمًّا أساسًا بملاحقة جزئيات الحدث اليومي الذي لا يعرف استقرارًا ولا ثباتًا، إلى تبني أطروحة الدفاع عن نمط للعيش متحقق أو يُسعى إليه، تاقت إليه كثير من الشعوب الإسلامية التي فقدت قوتها على الصمود أمام الإغراء العولمي، هاته الشعوب التي حتى وإن عارضت أمريكا فهي تعارضها من أجل ظلمها فقط لا كفرًا بوثنيتها وتألهها الليبرالي، أو رفضًا لمنهج حياتها، وطبيعة عيشها.

إن التمادي في التعاطي السياسي بما هو ممارسة يومية، يدفع من دون شك في إطار حياة أصبحت مؤطرة بشكل كبير بالروح العولمية الأمريكية إلى التمادي في الاهتمام بالدنيوي، بل والاقتصار عليه دون غيره، مما يغيب معه بُعد من أهم أبعاد الدين: الآخرة، فيغيب بذلك ضابط من أهم ضوابط الحياة الدنيوية، هذا الضابط الذي يذّكر الإنسان باستمرار بحقيقته الآيلة إلى الزوال، ومن ثم إلى كشف الحساب ودفع الثمن، فيستجيب هذا الإنسان كلما كان حضور هذا الضابط قويًّا عنده إلى فطرته التي بها يكون حرًّا مختارًا قادرًا على مواجهة كل المشاريع التي تستهدف تشويه هذه الفطرة أو تحريفها في إطار رؤية أكثر اتساعًا من ضيق الدنيا.

(١ - ٣) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٩٣).

إن الحركة الإسلامية بانغماسها في الواقع السياسي اليومي المتسارع والمتقلب قصد الإجابة على متطلباته، بغية إرضاء شريحتها الانتخابية، (بالنسبة لفصائلها المشاركة) وأتباعها أو المتعاطفين معها، تتيه في خضم واقع لم تصغه، واقع تعلم أنه هجين ترهن نفسها بمشروع أسلمته، فلا تستطيع إلا أن تتبنى مفاهيمه، مضفية عليه شرعية لا يمتلكها من خلال شواهد قرآنية وحديثية، مبتورة من سياقها، مجردة عن مقاصدها الشرعية[١]. فتكون النتيجة عكسية أو تكاد، فعوض وصول الحركة الإسلامية إلى تقوية فطرة المجتمع المسلم ومساعدة إنسانه على استعادة ما انتهك من هذه الفطرة، تجد نفسها أقرب إلى الانخراط في المشروع العولمي المحكوم بإطاراته المؤَلِّهة لكل ما هو دنيوي محض، والمقصية لكل القيم عدا القيمة التبادلية التي تجعل كل شيء قابلًا للبيع والشراء[٢]. وما كان ذلك ليحدث - بحسب خطاب الفطرة - لو أن العمل الإسلامي اشتغل بإعادة بناء العمران الروحي للفطرة الإنسانية من خلال مفاتيح البناء التحتي على المستوى القاعدي: التعليم، والإعلام، والاقتصاد، فمن سيطر على هذه المفاتيح الثلاثة صنع السياسة، ومن سيطرت عليه صنعته السياسة[٣]. ومن دون السيطرة على هذه المفاتيح جزئيًا أو كليًا من خلال عمل دعوي يجعل مركزَ قَصْدِهِ الإنسانَ تربيةً ودعوةً فإنه من العبث محاولة صناعة السياسة في إطار الظروف العالمية والمحلية.

إن خطاب الفطرية بما هو تبشير ببديل عولمي للإنسانية جمعاء، لا يقاطع السياسة بقدر ما يقاطع تصورًا معينًا لتدبير الأمر السياسي، تصورًا يتغول فيه

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٧٢).

(٢) (إن المواجهة الجديدة ستكون ضد (نمط الحياة) الأمريكية، الذي لن يقصر على النخبة المتغربة فكريًا، أو على الطبقة الأرستقراطية، بل هو يصبح الآن بالتدريج نمط الشعوب الإسلامية، بمن في ذلك الإسلاميون أنفسهم، من باب مقولات: (الأسلمة)، و (التثاقف)، و (الانفتاح على المجتمع المدني)). الفطرية (ص ٨٢، ٨٣).

(٣) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤١، ٤٢).

الصنم المادي الذي تنبني عليه المؤسسة السياسية الحديثة[١]، إحدى تجسيدات العولمة الانفصامية - كما يدعوها أبو يعرب المرزوقي - والتي تستند إلى الفصل بين وجود الإنسان المادي ووجوده الروحي[٢]. إنه يرفض في الأساس هذا التصور الذي غدا متحكمًا - بأقدار متفاوتة لكنها ليست متباعدةً - في كل العالم، ومنه العالم الإسلامي الذي ضمنه تتحرك الحركة الإسلامية، بما هو هذا التصور نقيض لما يبشر به خطاب الفطرية من عولمة أساسها قيام التناغم بين وجود الإنسان المادي ووجوده الروحي الذي يجسده مبدأ الفطرية، والدعوة إلى تأجيل الاشتغال به دعوة إلى إعادة صياغته وفق مبدأ الفطرية وذلك بإعادة صياغة بنياته التحتية (التعليم والإعلام والاقتصاد)، عبر استعادة الإنسان الفاعل لفطرته في هذه المجالات القاعدية.

د - في مخاوف الرهان:

يسعى خطاب الفطرية إلى أن يجعل من العالم ليس فقط مفسرًا ومبينًا لنص الوحي، ومستنبطًا لشرائعه وأحكامه، ولكن أكثر من ذلك - وعلى منوال قول عائشة - رضي اللّه عنها - في النبي ﷺ: « كان خلقه القرآن »[٣]. - بمثابة خطاب الوحي المتجسد على الأرض، أليس العالِم وريث النبوة! إن العالم في نظرية الفطرية ليس مجرد خبير تحتاجه الأمة لتلقي الوحي، إنه أكثر من ذلك، إنه « الشيخ المربي » الذي عبره ومن خلاله لا تتحدد كليات الدين وأساسياته، وتتجلى أحكامه فحسب، ولكن أيضًا قيمه الأخلاقية. إن العالِم في خطاب الفطرية يسعى إلى تحقيق مناط آية وظائف النبوة[٤]، ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. (ومن ثم القيام مقام النبي)[٥].

(١، ٢) المرزوقي، آفاق النهضة (ص ١٢١).

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه.

(٤) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٥٧).

(٥) نفس المرجع (ص ١٦٣).

إن هذا التصور، إن كان يرى فيها بعض التجسيد الأسمى لما أراده الوحي، ومن ثم تحقيق الصورة الأرقى لقيادة العالم، من أجل نشر الخير وتعميمه على العالمين، والمحافظة على شروطه، فإنه قد يكون مصدر خوف وقلق لدى البعض الآخر من أن يتحول نموذج العالِم الذي تراهن عليه الفطرية إلى نوع من الإكليروس، أو من إمامة الفقيه، فتصير نظرية الفطرية إلى عكس ما بشرت به من تحرير الإنسان، ودفع طاقاته الإبداعية لتحقيق عولمة الاستخلاف بما هي رفض للوسائط، وإيمان بختم النبوة وانقطاع الوحي. فهل من ضمانات تقدمها نظرية الفطرية لكي لا تتحول إلى عكس ما تتغياه وتدفع من ثم عنها هذا الخوف؟

لا سيما وأن هذا التخوف قد يزداد ويتضخم في سياقات تسعى فيها جهات لاستخدام المؤسسة الدينية لصالح مصالحها، تكريسًا لاستمرارها أو مواجهةً لخصومها، بما يصاحب ذلك عادةً من استدعاء لسلطة المال إغراءً، ومن استخدام لجبروت الآلة الإعلامية تلميعًا لمن تريد هذه السلطة من العلماء، وحصارًا لمن يخالف توجهاتها، ولعل الأنصاري صاحب خطاب الفطرية سيد العارفين بما حصل لشيخه الشاطبي - الذي يحيل عليه بقوة في بنائه لنموذج عالِم الفطرة - من إقامة إجبارية (السخطة) نتيجة آرائه المستقلة عن المؤسسة الفقهية في عصره، ولا هو غافل عما يمكن أن يصيب « العلماء » أو بعضهم من ارتماء في أحضان من يملكون سلطة القرار. فكيف السبيل إلى تجنيب عالِم الفطرة إغراءات السلطة وضغوطاتها حتى يفلت من الاحتواء، ويتجنب الحصار، من أجل أن يؤدي دوره محافظًا على استقلاله، وصائنًا لمهامه في تزكية المجتمع علمًا وتربيةً من دون ادعاء لوساطة ولا متسربلًا بها؟

إن دعوة نظرية الفطرة إلى توسيع دائرة علماء الفطرة، وإصرارها على المنهج الفطري المتنكب للتنظيم، مع اعتمادها لأصول الفقه برؤيته المقاصدية البعيدة عن التحجر والتكلس، والبعيدة في الوقت ذاته عن إمكانية أي ادعاء

للتلقي المباشر كما هي عند أصحاب الإمام المعصوم، أو الفقيه الملهم يجعل الاختلاف أمرًا واردًا، بل ومقبولًا عبر ضوابطه الشرعية المعروفة المتفق حولها. وقبول الاختلاف بشروطه، بل وجعله أمرًا طبيعيًّا يشكل بالتأكيد سياجًا يحمي الأمة والعالَم من الوصاية والوساطة.

كما أن شرعية العالِم الرباني (الذي هو في الغالب بصيغة الجمع كما أوضحنا سابقًا) والتي إنما تنبني في نظرية الفطرية على الاختيار التلقائي الذي تقوم به الأمة لهؤلاء، والبعيد كل البعد عن أجواء التوظيف والتنصيب المؤسسي المرتبط بالمصالح الفئوية، تشكل دعامةً مهمةً لبقاء العالِم في منأى عن الإغراء، وعاملًا محفزًا على مواجهة ضغوطات أصحاب المصالح؛ لأن الانصياع لهذا أو ذاك معناه افتقاد أهم شرطي الانتقاء التلقائي: العفة والقوة، ومن ثم فقدان الشرعية.

* * *
* *
*

الفَصِلُ الثَّالِثُ

الفطرية ومجالس القرآن
من التلقي إلى التزكية والبلاغ

ويشتمل على ما يلي:

* الفطرية وتلقي رسالات القرآن.

ذ. سعد اصطيلي

* الفطرية والتجديد الديني في المدرسة القرآنية.

ذ. عبد الرحيم حمدون

* التلقي في التربية الفطرية عند الناشئة.

ذ. عادل البركة

* الفطرية والبلاغ بناء الدعوة وهدم المعبد.

د. رفيق البوحسيني

الفطرية وتلقي رسالات القرآن

ذ. سعد اصطيلي

إذا كانت غاية هذه الورقات هي إثبات أمر مهم في مشروع الفطرية، مشروع أسسه الدكتور فريد الأنصاري ليكون منهاجًا في العمل الدعوي، يرمي من ورائه إلى إحداث بعثة تجديدية، تسهم في نهضة هذه الأمة وفي لملمة جراحها، واستعادة دورها الريادي في قيادة الأمم والشعوب، وفق منهج اللَّه وهدي رسوله ﷺ.

والأمر المقصود بالإثبات هنا هو « محل القرآن الكريم من مشروع الفطرية »، أو بتعبير أدق « القرآن الكريم وقضية الفطرية »، ولعل تتبع هذا الأمر في مشروع الدكتور ليس من الصعوبة بمكان؛ لأنه قائم أساسًا على هدي القرآن ورسالته، بل إن كل المفاهيم والمصطلحات التي تضمنتها كتب الأنصاري مستقاة من القرآن، ومسكوكة على وزانه، ولك أن تقول: إن لسان البيان الذي تكلم به، وكتب، وحاضر، وناقش، وجادل، وأفتى تتدفق منه كلمات القرآن بدلالاتها العميقة، وقوتها البيانية التي تقع من النفس والقلب والعقل موقع اليقين، الذي لا خالطه شك أو ريب، ولا يملك معها السامع إلا أن يسلم له.

لذلك فإن مقاربة هذا الموضوع في هذه الورقات تبقى نسبيةً إلى حدٍّ كبير؛ لصعوبة تقصي وحصر هذا الموضوع - الفطرية والقرآن -، أو - القرآن والفطرية -، لأن بينهما علاقة الجزء بالكل، فمتى ذكرت القرآن حضر لزومًا مفهوم الفطرة أو الفطرية، وحينما تتحدث عن الفطرة أو مشروع الفطرية فإن أول ما تطرقه هو باب القرآن؛ لأنه كتاب الفطرة ودليلها الأول.

١ - القرآن الكريم مفتاح التعريف بالمشروع:

لقد تحدث الدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللَّه - في الفصل الثاني من كتاب

الفطرية[1] عن مفهوم الفطرية، وعن الاشتقاق اللغوي لهذه التسمية التي اختارها شعارًا لمشروعه الدعوي، ولتصوره للعمل الإسلامي، وقد جرى - رحمه اللَّه - كعادته على طريقة الأصوليين في التعريف، وهو الفقيه الأصولي[2]، قال: (فأما حدها فهو إقامة الوجه للدين حنيفًا، خالصًا للَّه، وذلك بمكابدة القرآن ومجاهدة النفس به تلقيًا وبلاغًا، قصد إخراجها من تشوهات الهوى إلى هدى الدين القيم، ومن ظلمات الضلال إلى نور العلم باللَّه)[3].

والمتأمل لتعريف الفطرية هذا لا يجد صعوبةً في إيجاد العلاقة بينه وبين القرآن الكريم، إذ أن هذا التعريف يمكن أن يعتبر إعادة صياغة وتفسير لآية الروم، التي صدَّر بها الدكتور مشروعه، وجعلها مدخلًا قرآنيًّا لكتابه، قال ﷻ: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٢٩ - ٣٢]. بل إنه يصرح بذلك في مقدمة المشروع بقوله: (نعود إلى ربيع القرآن الصافي، لنسمي المعاني كما سماها اللَّه - تعالى -)[4]. كما أنه يجعل هذا الأمر من أهم القضايا التي يعالجها مشروع الفطرية ويهتم بها، حيث يدعو إلى (إعادة الاعتبار لألفاظ القرآن الكريم، وللمصطلحات الشرعية عمومًا، بتجديد استعمالها بمفاهيمها الأصلية)[5].

والدكتور إذ ينحو هذا المنحى في بناء المصطلحات، فهو يعتبر ذلك جهادًا بالقرآن لفظًا ودلالةً[6]، حيث سك - رحمه اللَّه - هذا الاشتقاق « الفطرية » من

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٩٥).

(٢، ٣) نفس المرجع (ص ١٠٥).

(٤) نفس المرجع (ص ١٤).

(٥) نفس المرجع (ص ٢٧).

(٦) نفس المرجع (ص ٢٨).

لفظ الفطرة التي خصص لها حيزًا مهمًا من كتابه؛ ليبين أصالة هذا اللفظ في القرآن الكريم، وأن المفهوم الوحيد الذي يمكن أن يحمله هذا اللفظ هو ما ضمنه له القرآن وعرفته به السنة الشريفة، وهنا ساق الدكتور مجموعةً من الآيات والأحاديث التي تبين هذا المعنى بجلاء[١].

هذا على مستوى صياغة تعريف الفطرية، أما ما أراد الدكتور الأنصاري أن يضمنه لهذا التعريف من مفاهيم، فينطق صراحةً بمركزية القرآن الكريم في مشروع الفطرية الإصلاحي، إذ ذكر في التعريف أن إقامة الوجه للدين حنيفًا بإخلاص للَّه - تعالى - (يكون بمنهج تلقي رسالات القرآن الكريم، من خلال تلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية منزلةً منزلةً، (...) فالقرآن هو خطاب الفطرة من حيث هي راجعة إلى إقامة الوجه للدين، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]. وقد كان ذلك منذ كان بتلقي آيات القرآن، وما تجدد قط في التاريخ إلا بتجديد التلقي لها بناءً وتربيةً وتثبيتًا على مكث من الزمان)[٢].

لكل ذلك يتبين أن الدكتور الأنصاري أراد لمشروعه أن يُصنع على عين القرآن، ويتأسس على وزانه وهديه، بدءًا بالتعريف وتحديد المفاهيم، وصولًا إلى المنهج التطبيقي المراد له أن ينزل على أرض الواقع، ولا يخفى لما لذلك من القوة البيانية، والأثر النفسي العميق على المتلقي، ثم ما له من العصمة والتسديد في التصور والعمل - كما يرى الدكتور - لأن المتصل بالمحفوظ محفوظ، والمتصل بالمعصوم معصوم. وهذا من التجديد الذي دعا إليه الأنصاري، حيث طالب الدعاة بالعودة إلى كلمات القرآن والتشبث بألفاظه والجهاد بها لفظًا ومعنًى، وأنكر على التجارب الدعوية المعاصرة توسلها بألفاظ ومصطلحات أنتجتها التجارب الغربية ضمن سياق معين وفي خضم حركتها التدافعية، وهي ألفاظ ومصطلحات محكومة

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٩٥ - ١٠٤).
(٢) نفس المرجع (ص ١٠٦).

بسياقها الاجتماعي الذي أُنتجت فيه، ونبتت من خلاله؛ إذ لا يمكن لمن استوردها أن يخلصها من حمولتها المفاهيمية التي ضمنت لها يوم تأسست.

من هنا، يمكن أن نفهم هذا الاصطلاح « الفطرية »، ونحدد موقعه من القرآن الكريم، بل نتعرف على حجم حضور القرآن الكريم في المشروع، تأسيسًا وتأصيلًا بما يسمح بالقول: « إن القرآن الكريم هو مفتاح المشروع وشعاره ».

٢ - تلقي رسالات القرآن أساس منهج الفطرية:

إذا تقرر هذا على مستوى التعريف وتحديد المفاهيم، فإنه لا بد من النظر في علاقة منهج الفطرية بالقرآن الكريم وهديه، وهو ما ينطق به التعريف السابق الذي وضعه الدكتور للفطرية، وذلك بقوله: (إقامة الوجه للدين حنيفًا، خالصًا للَّه، وذلك بمكابدة القرآن، ومجاهدة النفس به تلقيًا وبلاغًا...)[١]. فكان منهج الفطرية عنده إذن قائمًا على أساس تلقِّي رسالات القرآن الكريم، بتلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية منزلةً منزلةً، إذ لا تخلق للنفس إلا بمعاناة، ولا تخلص لها من أهوائها إلا بمجاهدة، فالقرآن هو خطاب الفطرة من حيث هي راجعة إلى « إقامة الوجه للدين »، (وقد كان ذلك منذ كان بتلقي آيات القرآن، وما تجدد قط في التاريخ إلا بتجديد التلقي لها بناءً وتربيةً وتثبيتًا على مكث من الزمان)[٢].

إن هذا المنهج الدعوي للفطرية - كما سطره الدكتور - هو عين ما صرح به القرآن الكريم في آيتي الفرقان والإسراء، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢]. ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. منهج قرآني، إعتبره الوحيد والأوحد الذي تستقيم على وزانه الدعوة والتربية، وسوى ذلك فلا حديث عن صلاح وإصلاح[٣].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٥).

(٢، ٣) نفس المرجع (ص ١٠٦).

وقد أخلص - رحمه اللَّه - لهذا المنهج في دعوته الإصلاحية، فلم يبغ عن القرآن حولًا إلى غيره، منه انطلق وعلى هديه أسس أفكاره وآراءه، وحوله كان يدندن إلى أن رحل عن الدنيا إلى ربه راضيًا مرضيًّا - بإذن اللَّه تعالى -.

وحتى تتضح العلاقة العضوية بين التربية الفطرية ومنهج القرآن يقول - رحمه اللَّه - في نص فريد: (ومن هنا كان مدار التربية الفطرية ومحورها الأساس، إنما هو كتاب اللَّه - جل علاه -، إذ هو كتاب الفطرة الذي عليه استقامت يوم قامت، وعليه يجب أن تستقيم كلما انحرف بها المسار، ولا يكون ذلك إلا بأن تستأنف تلقي حقائقه الإيمانية مرةً أخرى، وتتغذى من روحه العظيم، تخلقًا وتحققًا، ثم تشتغل ببلاغ ما تلقته بالمنهج نفسه)[1].

إنها قناعة تتأسس عند الدكتور بناءً على استقرائه لنصوص القرآن والسنة، الذي أوصله إلى قاعدة كلية في منهج الفطرية الدعوي والإصلاحي، مفادها أنه: (لا صلاح ولا إصلاح على الوجه الحقيقي إلا عبر مسلك القرآن، وأن من لم يكابد القرآن، لم يذق حلاوة الإيمان، وأن من لم يعان وقع الفرقان على الوجدان لم يجد أشواق الجنان، ولا رهب النيران، وأن من حرم ذلك كله لم يذق معنى محبة الرحمن)[2].

والدكتور إذ يؤسس لهذا المنهج القرآني في مشروعه الدعوي، ويؤصل له، يبين أن التعاطي مع هذا المنهج لا بد له من مفتاح ومدخل يعين على اعتماده في مدرسة الفطرية، فلا يجد إلا المصطلح القرآني مرةً أخرى ليسعفه فيما يقصده ويرمي إليه، فيكون المفتاح هو مصطلح « التلقي » لرسالات القرآن (الكامنة في الآيات، تلك الرسالات هي التي تتضمن حقائق الإيمان المقصودة بالتخلق والتحقق، في طريق الدعوة والسير إلى اللَّه صلاحًا وإصلاحًا)[3].

ومسألة « تلقي القرآن » هذه ليست فكرةً عابرةً في مشروع الأنصاري، بل يمكن

(١، ٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٦). (٣) نفس المرجع (ص ١٠٧).

الزعم أنها قد احتلت قسمًا كبيرًا من مشروع الدكتور وتراثه المسموع والمقروء يقارب الثلث، ويكفي دليلًا على ذلك الرجوع إلى فصل « مجالس القرآن من التلقي إلى التزكية » الذي يعتبر مقدمة لكتاب « مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقِّي إلى البلاغ »[١]، وهو دراسة تطبيقية في كتاب اللَّه، ذات طابع تربوي[٢]، بل إنه يصرح بهذا الحجم في المقدمة السابعة لكتاب الفطرية بقوله: (ومن هنا فإن مشروعنا هذا قائم على ثلاث مجموعات من التصانيف، جعلنا أغلبها ضمن سلسلتنا الدعوية « من القرآن إلى العمران » (...)، المجموعة الثالثة في مجالس القرآن وتلقي رسالاته)[٣].

وإذا كان المقام الذي نحن بصدده لا يكفي للإحاطة بمفهوم « التلقي » بناءً على الحجم، والمساحة الكبيرة التي يحتلها في مشروع الدكتور، فإنه يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، مما يعني أن « التلقِّي للقرآن » هو: (استقبال القلب للوحي على سبيل الذكر)[٤]. وتقييد هذا التلقي بالذكر لإخراج تلقي الأنبياء للوحي على سبيل النبوءة، والتلقي للقرآن وحيًا على سبيل الذكر يكون بصورة شهودية، أي (كأنما هو يشهد تنزله الآن غضًّا طريًّا، فيتدبره آيةً آيةً، باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه)[٥].

يقول - رحمه اللَّه - في هذا المقام: (فأن تتلقى القرآن معناه إذن أن تصغي إلى اللَّه يخاطبك، فتبصر حقائق الآيات وهي تتنزل على قلبك روحًا، وبهذا تقع اليقظة والذكر، ثم يقع التخلق بالقرآن، على نحو ما هو مذكور في وصف رسول اللَّه ﷺ، من حديث أم المؤمنين عائشة - رضي اللَّه عنها -، لما سُئلت عن خُلُقه - عليه الصلاة والسلام -، فقالت: « كان خلقه القرآن »)[٦].

---

(١) فريد الأنصاري، مجالس القرآن (١/ ٦٤).
(٢، ٣) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٥٧).
(٤) نفس المرجع (ص ١٠٧).
(٥) نفس المرجع (ص ١٠٨).
(٦) رواه الإمام مسلم في صحيحه. فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٩).

إن تحديد مفهوم الفطرية، وتفصيل القول في منهاجها، وبيان مفتاح هذا المنهج عبر « التلقي للقرآن »، هو ما جعل الدكتور يختم بقوله: (تلك هي الفطرية، وذلك هو منهاجها لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا)[١]. وهو قول له من الدلالة الواضحة والصريحة على مركزية القرآن الكريم في تحديد مفاهيم مشروع الفطرية، وبناء منهجها الذي أحب أن يصطلح عليه بـ (المنهاج القرآني الفطري)[٢].

٣ - مجالس القرآن: العمود الفقري لمشروع الفطرية[٣]:

لم يكن الدكتور لينتقل للتطبيق العملي لمشروعه لولا تحديده لمفاهيم مشروع الفطرية، ورسمه « للمنهاج القرآني الفطري » اعتمادًا في ذلك على بيان الكتاب العزيز، وتوسلًا ببساطة المصطلحات والمفاهيم الشرعية، مع ما تتضمنه من العمق في الدلالات، وكيف لا تكون على هذه الشاكلة وهي من معدن ضارب في الغيب، بل يكفيه منها أنها من مشكاة الوحي الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

لقد انتقل الدكتور الأنصاري بعد فراغه من الجانب التنظيري والتأصيلي، إلى الحديث عن الجانب التطبيقي في مشروع الفطرية الدعوي، والذي يعد أهم قسم من أقسام المشروع، وعليه يعقد الأمل في إخراج بعثة التجديد المقبلة التي يقودها الفاعلون بالمشروع، الربانيون من العلماء، الحاملون لرسالة القرآن، وينتظم في صفوفها المتفاعلون مع خطاب القرآن، المتواجدون في جميع قطاعات المجتمع، الذين يرتبطون بمقاصد مدارسات القرآن الكريم، مدارسات (تعرض مشروع مجالس القرآن بصورة عملية، يرجى لها أن تجعل المؤمن يندمج في فضاء القرآن، ويتلقى آياته كلمةً كلمةً، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا، وهي لذلك تمثل صلب المنهاج الفطري الذي ندعو به وإليه، كما بيناه مفصلًا في كتاب الفطرية)[٤].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١٠).
(٢) نفس المرجع (ص ١٠٣).
(٣) نفس المرجع (ص ٥٧).
(٤) فريد الأنصاري، مجالس القرآن (١ / ٧).

إن هذا النص الواضح البين الذي صدَّر به الدكتور كتابه يلخص مشروع الفطرية الدعوي، القائم أساسًا في شقه العملي على مجالس القرآن، التي يعول عليها في تخريج الدعاة الربانيين المتمسكين بكتاب اللَّه - تعالى - القائمين به في الناس دعوةً وإصلاحًا، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. ولا يكون ذلك على الوجه المطلوب إلا بالانتظام فيما سماه الدكتور بمدرسة القرآن، وجعله الركن الثالث من أركان الفطرية[١]، الذي هو (الصبغة العامة لمشروع الفطرية، بما هي قائمة أساسًا على تلقي رسالات القرآن، سواء عبر برنامج الربانية أو عبر مجالس القرآن)، صبغة صاغها - رحمه اللَّه - في كلام عجيب يلغي فيه كل الوسائل لإصلاح الفطرة الإنسانية، إلا وسيلةً واحدةً تعد البلسم، والدواء الشافي لهذه الفطرة العليلة. يقول - رحمه اللَّه -: (قد تبين ألا إمكان لإصلاح الفطرة الإنسانية إلا بالقرآن؛ لأنه إنما أنزل أساسًا لهذا القصد الرباني العظيم، فالقرآن - بما هو كلام خالق الإنسان العليم بأسرار تكوينه - هو كتاب إصلاح الفطرة الإنسانية وصيانتها، ومن هنا كانت الفطرية مدرسةً قرآنيةً بالدرجة الأولى)[٢].

أما حينما يذكر - رحمه اللَّه - المسالك التربوية للفطرية، والتي تعد أدوات ووسائل لتنزيل المشروع، فإنه يجعل رأس الأمر فيها: مجالس القرآن[٣]، التي يعرفها بكونها مجالس تربوية لتلقي آيات القرآن، والتخلق بأخلاقها وبحقائقها الإيمانية، والتحقق بها، تعلمًا وتعليمًا وتدبرًا ومدارسةً، وهي تقوم على وظائف النبوة الثلاث: (التلاوة بمنهج التلقِّي، التزكية بمنهج التدبر، وتعليم الكتاب والحكمة بمنهج التدارس)[٤]، وهي وظائف الاكتفاء في تفاصيلها بما ورد في كتاب مجالس القرآن؛ لأنه يلخص المضمون، ويجلِّي المقصود على الإجمال[٥].

(١، ٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١٣). (٣) نفس المرجع (ص ١١٥).

(٤) نفس المرجع (ص ١١٦).

(٥) فريد الأنصاري، مجالس القرآن (١/ ٦٤ - ٧٥).

إن اعتماد هذا المسلك مع المسلكين الآخرين، كفيل - إن شاء اللّه - بتقويم ما شان من أخلاق العبد وطباعه، وإصلاح ما فسد من مزاجه وأفكاره، ليستقيم على خالص فطرته وصفاء سريرته، كما قال - رحمه اللّه -[١]، وتلك هي غاية مشروع الفطرية الدعوي، الذي ينطلق من القرآن إلى العمران، وأول ما يبدأ بعمرانه هو هذا الإنسان، بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس ونسيج اجتماعي[٢]، ودور الجيل الجديد اليوم هو تجديد ذلك العمران، بدءًا بتجديد الإنسان ككيان حتى تجديد السلطان كمفهوم[٣].

وحينما يحصل ذلك، ويتشكل هذا الإنسان ويعمر بالميزان الذي ذكر، تكون بشائر بعثة التجديد المقبلة قد أشرفت، ويكون العالم قد استبشر بفجر جديد للإسلام، يطلع على البشرية التي طال ظلامها وليلها، واشتاقت إلى سماحة الإسلام وعدله، ودون ذلك معالم رئيسة تدل على قدوم بعثة التجديد المقبلة، سماها الدكتور - رحمه اللّه - بالمعالم المنهجية للتجديد الفطري، تدور كلها حول محور القرآن، وتطوف بفلكه، بيد أن أكثرها ارتباطًا بالقرآن هو المعلم الأول الذي اصطلح عليه بـ « التداول القرآني »[٤].

والتداول القرآني وهو أهم معلم يمكن ملاحظته في البعثة النبوية، حيث كان الاشتغال بالقرآن فقط، فتحقق ما سماه بـ « تداولية قرآنية » القصد منها هو (الاشتغال الشامل بالقرآن الكريم، الاشتغال الذي يعمر الحياة، حتى يطغى على كل شيء سواه تلاوةً وتعلمًا وتدارسًا وتدبرًا وتزكيةً، إلى أن يفشو ذلك فشوًّا بين سائر فئات المجتمع وطبقاته، بما يؤسس تربيةً قرآنيةً تعبديةً واجتماعيةً تقوم بين الناس بصورة تلقائية مادةً ومنهجًا، تبث قيم القرآن وأخلاقه بينهم بثًّا يتغلغل في الأنفس، ويتسرب إلى أنسجة المجتمع الداخلية (...) بما يجعل مفاهيم القرآن

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١٦).

(٢، ٣) نفس المرجع (ص ١٦٨).

(٤) نفس المرجع (ص ١٥٠).

متحكمةً في صيرورته (...) فيصبح القرآن بذلك هو محرك الإصلاح (...) القائم على المنهج النبوي الحق)[١].

والتعاطي مع القرآن الكريم بهذا المنهج (فهمًا وممارسةً) ليس اجتهادًا وصل إليه نظر الأنصاري، بل إن ذلك يعتبر عنده بعثًا لأمر تأسس على وزانه الإسلام، وربى عليه رسول اللّه ﷺ صحابته، الذين تمثلوا ذلك في مشاهد عملية، فأخرجوا لنا أجيالًا قرآنيةً ربانيةً غيَّرتْ مجرى التاريخ، وأعادت رسم خريطة العالم الجغرافية على أساس الإيمان، إذ كانت لهم مجالس قرآنية متكاملة، تتضافر فيها التلاوة والتعلم والتزكية[٢]، وحتى صار كأن التداول القرآني في سيرته الأولى له وجهان، وجه التداول الاجتماعي الذي يتم بمقتضاه الاشتغال بالقرآن في كل مرافق الحياة الاجتماعية، ووجه التداول التربوي الذي اختصت به مجالس القرآن، فامتلأت المساجد وعمرت البيوت والبساتين والشعاب تعلمًا وتزكيةً وتدبرًا وتبصرًا، لتخريج أهل القرآن الحكماء الربانيين، الذي يربون الناس، والذين هم مادة الاستمرار الحضاري للأمة، وعمودها الفقري، والذين ذكرهم اللّه - جل وعلا - في قوله: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩][٣].

ثم إن بساطة هذا المنهج وسهولته هي التي جعلت الدكتور فريد الأنصاري يقتنع بموافقته للفطرة، ويؤسس على هديه مشروعه الذي أراد به أن يمهد لبعثة تجديدية أخرى، تعود بالمسلمين إلى عهد النبوة، ومدرسة الصحابة، عسى أن يصلح اللّه حالهم بما أصلح به أحوال أسلافهم.

إن مشروع الفطرية الذي بشر به الدكتور، وبين أركانه ومسالكه، وعقد عليه الأمل في بعث الإسلام من جديد روحًا تسري في جسم الأمة الممزق والعليل، قائم

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٥٠).

(٢) نفس المرجع (ص ١٥١).

(٣) نفس المرجع (ص ١٥٢).

أساسًا على هدي القرآن العظيم، وتلقي رسالاته والدخول في محاضنه التربوية، فليست مفاهيم مشروع الفطرية إلا أنوارًا ساطعةً لآيات القرآن الكريم، ومنهجه في الإصلاح والدعوة، وعلى وزانها أسست أركان المشروع وحددت مسالكه، لتكون النتيجة هي: الانطلاق من القرآن والعودة إليه، طلبًا للعصمة في المقاصد والوسائل، وبذلك يرشد العمل وتترتب الأولويات، أو ليس اللَّه - تعالى- سماه حبله المتين، وصراطه المستقيم، فهل تطلب الهداية من سواه؟ أم يُمسّك بحبل غيره؟ وقد قال رسول اللَّه ﷺ في حديث عظيم: « **فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد اللَّه وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا** »[١].

ولعل أجمع نص يلخص علاقة مشروع الفطرية بالقرآن الكريم هو لصاحب المشروع نفسه، عندما يقول: (فدع بصائر القرآن العظيم تصنع خريطتها الفطرية في المجتمع، كل المجتمع، وتبسط هندستها العمرانية بين شرائحه، كل شرائحه.

وإنما خلايا التنظيم الفطري هي « مجالس القرآن »، من الفرد إلى الأسرة، إلى المجموعات إلى المؤسسات، وإنما رأيه العام هو « التداول الاجتماعي » التربوي للآيات والسور، وإنما مقراته هي المساجد، وإنما قياداته هم العلماء العاملون، والحكماء الربانيون، المنتصبون للبعثة والتجديد، والسر كل السر في القرآن)[٢].

* * *
* *
*

---

(١) رواه ابن حبان وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٦٦).

الفطرية والتجديد الديني في المدرسة القرآنية

ذ. عبد الرحيم حمدون

هل لهاتين الحقيقتين القرآنيتين من علاقة؟ بهذا السؤال نستفتح الحديث عن الفطرية والتجديد الديني، ومنطلقنا لهما الآيات القرآنية قول اللَّه - تعالى -: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ما هي العلاقة بين حفظ الوحي من كل تحريف، وبين وظيفة الأمة الخالدة، وظيفة الشهادة والاستخلاف؟ وما هو وجه التلازم بين عموم شريعة الإسلام ودوامها وبين كونه فطرةً (فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها)؟ وهل يمكن لأمة الإسلام أن تضطلع بوظيفة الشهود والاستخلاف دون أن يكون لها نصيب من الكتاب؟، بل هل لتجديد الدين والدعوة إليه منهج ثابت من وجهة نظر القرآن الكريم؟ وهل لهذا المنهج الدعوي من ميزان أو قوانين ينبغي الانضباط لها؟ وما هو المقياس الذي به نقيس نجاح الحركة الإسلامية أو إخفاقها، استقامتها أو اعوجاجها؟

لقد جاء كتاب « الفطرية » في سياق مشروع دعوي تجديدي حاول الإجابة عن أغلب التساؤلات السابقة، وذلك من خلال تأصيل مصطلحي يعتمد جهازًا مفهوميًّا قرآنيًّا يؤسس لمقاييس وموازين جديدة، وبيان منهج التجديد الفطري القائم على أساس التلقي القرآني، إضافة إلى تقديم قراءة نقدية للحركة الإسلامية اعتمادًا على المقاييس السابقة.

لذلك كانت « الفطرية » جزءًا من مشروع إصلاحي عام، قائم على ثلاثة أضلع رئيسة هي: منهج تجديد العلْم ومفهوم العالم (إذ لا تجديد بدون علماء مجددين)، ومنهج تأصيل العمل الدعوي وبيان طبيعة منهج التلقي التربوي للقرآن الكريم

والتداول الاجتماعي لمفاهيمه (الفطرية)، ثم مجالس القرآن الكريم وتلقي رسالاته (العمود الفقري أو الجانب التطبيقي لذلك المشروع)[1].

إنها أضلع لمشروع تجديدي، تتأكد ملامحه انطلاقًا من الإجابة عن ثلاث أسئلة، هل كل مشروع يدعي التجديد هو تجديد فعلًا؟ وهل كل دعوة إلى التجديد تنتج تجديدًا؟ ثم متى ينتقل الحديث عن التجديد من سؤال الضرورة إلى سؤال الممارسة والفعل؟

على أن مصداقية كل قراءة جديدة تصبغ نفسها بطابع التجديد تتمثل في إفصاحها عن مرجعيتها التي تستمد منها رؤيتها للتجديد، وعن أدواتها المنهجية التي هي جهازها المفهومي الذي ينبغي أن يكون منسجمًا مع مرجعية، وهذا يدعو إلى البحث عن موقع مشروع الفطرية في السياق التجديدي، هل انخرط فعلًا في التجديد تنظيرًا وممارسةً؟ أم بقي تنظيرًا يُضاف إلى باقي التنظيرات؟ وما هي رؤيته للتجديد ولمقاييس الأدوات المنهجية المعتمدة؟

١ - الفطرية وسياق المدرسة القرآنية:

يمكن تصنيف « المشروع الدعوي » للدكتور فريد الأنصاري - أي « الفطرية » بما هي إسهام نظري وتطبيقي في بناء معالمه - ضمن سياق تيار اصطلح على تسميته بتيار « المدرسة القرآنية »، فبعد « جيل قرآني فريد » و « طبيعة المنهج القرآني »[2] للشهيد سيد قطب، و « السنة التاريخية في القرآن الكريم »[3] للشهيد محمد باقر الصدر، وتفسير « التحرير والتنوير » للعلامة الطاهر ابن عاشور، و « الهدى المنهاجي »[4] للدكتور الشاهد البوشيخي، يأتي مشروع الفطرية

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٥٧).

(٢) سيد قطب، معالم في الطريق (ص ١٣ - ٤٥).

(٣) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية (ص ٣٩ - ١٢١).

(٤) مجلة كلمات المغربية، العدد (١).

للدكتور فريد لبنةً أخرى في صرح هذه المدرسة المباركة، مدرسة اتخذت من القرآن الكريم « مرجعيةً » شاملةً في بناء الدين والحضارة (تصورًا، ومنهاجًا، ومسلكًا..).

ذلك بأن الوحي الذي أسس أمةً وصاغ لها شخصيتها، وأعلن ملةً وبنى لها حضارتها، قادر على أن يصحح لها أعطابها، ويعالج أدواءها، ويقوِّم لها اعوجاجها إذا اختلت موازينها وطمست فطرتها؛ إذ لا سبيل للنهوض بالأمة من جديد، ولا خيار أمامها لتجديد الدماء في عروقها إلا باستعادة لدور الوحي التربوي والاجتماعي في بناء النفس والمجتمع[1]. أي لا سبيل أمامها لاستئناف الحياة الإسلامية المنشودة إلا بالسير على هدى المنهج القرآني: وما نظم الدكتور فريد أغلب مؤلفاته الدعوية والإصلاحية والتجديدية ضمن سلسلة « من القرآن إلى العمران » إلا دليلًا على هذه الرؤية القرآنية الصافية، التي ترى أن القرآن الكريم هو منطلق أي تغيير وأي بناء. يقول الأنصاري: (أنا أسير على خطى أستاذنا الدكتور الشاهد البوشيخي فيما يمكن تسميته بالمدرسة القرآنية أو مدرسة الفطرة في الدعوة والدين، والدكتور البوشيخي من الأوائل الذين سبقوا إلى هذا المجال وأرشدوا طلبة العلم إلى الاشتغال بكتاب الله ﷻ)[2]؛ لأن الاشتغال بالقرآن هو جوهر الخلافة؛ إذ المطلوب (منا أداء وظيفة الخلافة، ومطلوب منا كذلك وظيفة الشهادة داخل إطار الخلافة، هذه الوظيفة وظيفة الاستخلاف والشهادة والعبادة لها طريقة معينة يمكن التأهل لها)[3]. إنه تأهيل لا يتم تحقيقه إلا عبر « الهدى المنهاجي »، أو بتعبير فريد « المنهج الفطري ».

وعلى هذا الأساس، فمشروع « المدرسة القرآنية » هو « المشروع الإسلامي

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٤).

(٢) جريدة المحجة المغربية، العدد (٣٣٠، ٣٣١)، (ص ٥٦).

(٣) مجلة كلمات، العدد (١).

القائم على شمولية القرآن في بناء الدين »[١]، إنه الفهم القرآني الأصيل الذي يستمد منه كل فعل إسلامي مصداقيته؛ إذ (الجوهر الحقيقي والمبرر الأساس لوجود العمل الإسلامي إنما هو تجديد التلقي للقرآن الكريم رسالة رب العالمين)[٢].

وما دام كتاب اللَّه هو الوحي الخالد المحفوظ من قبل اللَّه - تعالى - إلى يوم الدين، فوظيفته الخالدة هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن ثم فإن منهج التغيير، وبناء الإنسان والعمران منهج خالد ثابت في أصوله وكلياته، إنه « المنهج القرآني » بتعبير سيد قطب، أو « الهدى المنهاجي » بتعبير الدكتور البوشيخي، أو « المنهج الفطري » بتعبير الدكتور فريد الأنصاري.

ولا ريب إذا وجدنا هؤلاء الرواد - رواد المدرسة القرآنية - قد توافقوا على تصورات قرآنية بعينها، أو استنتجوا الاستنتاجات نفسها، وهم الذين تشربوا من نبع القرآن الصافي، وعاشوا في ظلال آياته، وتفرغوا لها تفرغًا كاملًا. ولعل أهم ما توافقوا عليه أن لهذا الدين « منهجًا ثابتا » في الدعوة إليه، ومنهجًا ثابتا في بناء الإنسان والعمران. حيث (يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدًا، كما أن هذا الدين في ذاته دين رباني، فإن منهجه في العمل منهج رباني كذلك، متواف مع طبيعته، وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل، (...) فإذا نحن عرفنا منهجه في العمل (...)، فلنعرف أن هذا المنهج أصيل، وليس منهج مرحلة ولا بيئة خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى، إنه المنهج الذي لا يقوم بناء الدين في أي وقت إلا به)[٣].

(إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة، ولا انفصام بينهما، وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية، فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركة، « إن هذا القرآن يهدي للتي أقوم »)[٤].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٥٤).
(٢) نفس المرجع (ص ٣٩).
(٣) سيد قطب، معالم في الطريق (ص ٤٣).
(٤) نفس المرجع (ص ٤٥).

٢ - الفطرية وسؤال المشروعية:

عُرف التجديد في الفكر الإسلامي بمعنى « البعث » أو « الإحياء » أو « التطهير » للدين، وتقديمه في صورته الأصلية النقية الناصعة، بقصد تجديد العودة إلى الإسلام بصفته الخالصة لحظة صفائه الأولى، حيث استمد هذا التعريف وجاهته من التاريخ، ذلك بأنه على مدى مسار التاريخ كانت حركات التجديد لا تتعدى الوظيفة « الإحيائية » أو « التطهيرية »، مما جعل التجديد عمليةً ملازمةً للإسلام.

ومفهوم التجديد عند فريد الأنصاري لم يخرج عن هذا المعنى الأصيل كما هو مستمد من الحديث النبوي الشريف: « **إن اللَّه - تعالى - يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها** »[١].

فالتجديد في مشروع الفطرية هو (أن نعود إلى النبع الأول في ديننا ودعوتنا، نعود إلى بساطة الإسلام، إلى ربيع القرآن الصافي، لنسمي الحقائق كما سماها اللَّه - تعالى - ونصف الحقائق كما وصفها رسول اللَّه ﷺ، فاتحين قلوبنا للقرآن عسى أن نتلقى حقائقه الإيمانية، ونترقى بمنازله الربانية في سبيل التخلق بمقام العبدية للَّه)[٢]. **إنها وظيفة التجديد بما هي:**

- **وظيفة « بعثية »** تُعنى ببعث الحياة في فطرة الإنسان، الذي هو أساس كل بناء وكل عمران. **وبما هي وظيفة « إحيائية »** تهدف إلى إحياء المنهج النبوي الفطري القائم أساسًا على وظيفة التلقي القرآني. **وبما هي وظيفة « تطهيرية »** تعمد إلى تطهير العمل الإسلامي من كل ما علق به، بغرض تجديد أساليبه ومنهجياته ومنطلقاته.

إنها أبعاد ثلاثة يستمد منها المشروع الدعوي للدكتور فريد الأنصاري مصداقيته التجديدية، فهو من حيث كونه مشروعًا إحيائيًا قائمًا على أساس تجديد الإيمان، وبعث الحياة في فطرة الإنسان، وإحياء المفاهيم الإسلامية الأصيلة،

---

(١) الحديث رواه أبو داود والحاكم والبيهقي، وصححه الألباني رقم (١٨٧٤) في صحيح الجامع.

(٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٤).

وإحياء المنهج الفطري في الدعوة وبناء العمران، يسير على هدى حركات التجديد الإحيائية التي قادها علماء مجددون، مثلوا كوكبةً إيمانيةً مجددةً ضمن مسيرة إسلامية خالدة « **لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه** »[١].

وبما أن الفطرية هي خطوة في إحياء المنهج القرآني في الدعوة وبناء الدين، فإن مشروعية التجديد فيها تستمد من الجهاز المفهومي القرآني المستعمل، أو ما يمكن تسميته بـ « التأصيل المصطلحي ». ذلك بأن (من مهام الفطرية إعادة الاعتبار لألفاظ القرآن الكريم، والمصطلحات الشرعية بتجديد استعمالها بمفاهيمها الأصلية كما هي في الكتاب والسنة، والتشبث بمفاهيمها الربانية ودلالتها الإيمانية)[٢]. حيث إن (الاشتغال للدين في المجال الدعوي لا يكون إلا بالدين، ولا يتم التوصل إلى غايته إلا بوسيلته، فهو الغاية والوسيلة معًا)[٣]. وهذا يعني التوافق والانسجام ما بين الرؤية والمنهج والوسائل، أو التناسق ما بين طبيعة الوظيفة وأدواتها المنهجية.

كما تستمد « الفطرية » مشروعيتها التجديدية من كونها لم تقدم إسهامًا نظريًّا في التجديد فحسب، وإنما قدمت بالإضافة إلى ذلك إسهامًا تطبيقيًّا رسم معالمه المنهجية وحدد وسائله التنزيلية، وهذا يعني أننا أمام مشروع إصلاحي شامل مكون من رؤية ومنهج ووسائل.

وإذا كانت « الفطرية » إسهامًا نظريًّا في بيان طبيعة المنهج الفطري القائم على التلقِّي التربوي للقرآن الكريم، والتداول الاجتماعي لمفاهيمه، فإن الجانب التنزيلي من المشروع التجديدي للدكتور فريد الأنصاري جاء متكاملًا في معالمه، من خلال مؤلفاته: « العالمية » و « الفطرية » و « مجالس القرآن ».

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

(٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٢٧).

(٣) نفس المرجع (ص ٣٣).

إن الدكتور فريد الأنصاري لم يكن ليكتفي بالحديث عن التجديد فقط، وإنما انتقل إلى الكلام في التجديد بتحديد رؤيته للتجديد وعن كيفيته وآليته، أي أن الدكتور انتقل في الحديث عن التجديد من سؤال الضرورة إلى سؤال الفعل، ومن هنا كانت مشروعيته التجديدية.

٣ - الفطرية في بعض مضامينها التجديدية:

ما هي طبيعة المنهج القرآني؟ وما علاقته بمفردات مشروع الفطرية (الفطرة، الفطرية، المنهج الفطري، التجديد الفطري)؟ وما هو الخيط الناظم بين هذه المصطلحات المكونة لبناء المشروع؟

إذا كان المشروع الدعوي للدكتور فريد الأنصاري مشروعًا إصلاحيًّا تجديديًّا من خلال وظيفته الإحيائية، وأنه لبنة في صرح المدرسة القرآنية أو مدرسة الفطرة، التي تعتبر منهج الدعوة وبناء الدين هو منهج الإصلاح القرآني، وهو المنهج الذي ينطلق من الإنسان باعتباره قضيته الأولى، وأن المنطلق في تغيير الإنسان وإصلاحه هو تسوية فطرته وتخليصها من الران الذي تراكم عليها، **فإن أبعاد الوظائف التجديدية للمشروع بما هي بعث وإحياء وتطهير تشتغل بمجالات ثلاثة، هي:**

- **الفطرة:** بما أن الفطرة هي منطلق أي بناء أو تغيير، فهذا يعني أن تسوية الفطرة الإنسانية لا يكون إلا ببعث الحياة فيها، ذلك بأن (تشخيص أمراض العصر في المجال الديني مؤداه إلى حقيقة ظاهرة، وهي أن طبيعة الانحراف الحاصل في المجال الإنساني والاجتماعي إنما هو انحراف في الفطرة الإنسانية)[1].. انحراف يكشف (أننا نعيش أزمة فطرة وأزمة فكر، قبل أن نتحدث عن البناء لا بد من إعادة الأصل إلى أصله، وتسوية النفس الإنسانية والفطرة البشرية التي فطر الناس عليها).. انحراف يبرهن أننا (نعيش جيل سَفَهٍ يحتاج إلى بناء العقل و إعادة تجديد للفطرة التي اغتيلت واختُرِمت)[2].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٩).

(٢) جريدة المحجة المغربية، العدد (٣٣٠ ، ٣٣١)، (ص ٥٦).

أما لماذا الانطلاق من الفطرة؟ فذلك لأن بناء الفطرة يعني بناء الإنسان السوي، وهو حجر الزاوية في أي مشروع نهضوي يروم الإقلاع الحضاري وإحياءه. (ولأن الرهان الغربي قائم على تدمير الفطرة الإنسانية في الأمة بما يجعلها قابلةً للاسترقاق « العولمي » الجديد في دينها وأخلاقها وقيمها الحضارية، فإن مدار المعركة اليوم هو تحرير الإنسان المسلم فردًا وجماعةً من أغلال هذا الاسترقاق العولمي)[١].

- **تجديد المنهج الفطري**: ويعني إحياء المنهج القرآني في إصلاح الفطرة بتجديد التلقي عن القرآن الكريم، ذلك بأن (الفطرة المسلوبة، لن تعالج ولن تُسترجع إلا بمنهج فطري)[٢] يهدف إلى استنقاذ هذه الفطرة من الركام، وتخليص أجهزة الاستقبال لديها مما ران عليها وعطل وظائفها، وفتح منافذها لتلقِّي الموحيات المؤثرة والاستجابة لها، إذ « التجديد الفطري » عملية إصلاحية وجدانية تقوم أساسًا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان المجبولة أصلًا على إخلاص التوحيد، (وقد تبين ألا إمكان لإصلاح الفطرة الإنسانية إلا بالقرآن؛ لأنه إنما أنزل أساسًا لهذا القصد الرباني العظيم.. فالقرآن بما هو كلام خالق الإنسان العليم بأسراره التكوينية هو كتاب إصلاح الفطرة الإنسانية وصيانتها)[٣].

وإذا كان مدار التجديد الفطري ومحوره هو كتاب اللَّه ﷻ (إذ هو كتاب الفطرة الذي عليه استقامت يوم قامت.. وعليه يجب أن تستقيم كلما انحرف بها المسار)[٤]، فإن الفطرية باعتبارها مدرسة قرآنية لها أركانها، ومعالمها، ومسالكها قائمة على منهجه، وهذا يعني أن معالم التجديد الفطري قائمة على إحياء المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم عبر منهج ثلاثي، منهج قائم على تلاوة لآياته بمنهج التلقي، وتزكية للقلوب بمنهج التدبر، وتعلم للكتاب بمنهج التدارس، إنه

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١).
(٢) نفس المرجع (ص ٣٩).
(٣، ٤) نفس المرجع (ص ١٠٦).

امتثال لقول اللّه - تعالى -: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

كما يركز التجديد الفطري على الدعوة والبلاغ المبين؛ لأن رسالة حمل القرآن للأجيال (تحققًا وتخلقًا) هي رسالة البلاغ المبين للرسالة القرآنية بمنهج الفطرة عبر فقه الدين، وفقه الدعوة، وفقه الواقع، وفقه التنزيل.

وفي هذا الإطار تعد « مجالس القرآن » إحدى أهم الوسائل التربوية التي عول عليها الأنصاري - رحمه اللّه - من أجل إشاعة الوعي، وإحياء الأمة وتربية الشباب على هدى القرآن، بل اعتبرها « العمود الفقري » لمشروع الفطرية، إذ القرآن محورها ومدار معركتها.

- **فطرية العمل الإسلامي**: وتعني تطهير العمل الإسلامي بإرجاعه إلى فطرته، فالدكتور فريد الأنصاري وهو يستعرض رؤيته للتجديد الفطري، وأركان الفطرية، ومعالمها، ومسالكها كان بين الفَيْنة والأخرى يعرض للعمل الإسلامي (ناقدًا وموجهًا ومرشدًا ومعالجًا...)، حيث أشار منذ البداية إلى أن الفطرية تعني إثبات **أمرين اثنين، أولهما**: تحرير الإنسان من أغلال الاسترقاق العولمي بتسوية فطرته ومعالجتها. **وثانيهما**: تجديد العمل الإسلامي بالرجوع إلى فطرته في الدعوة والدين كي يستطيع مواجهة عجزه.

وإذا كان العمل الإسلامي من حيث المفهوم هو كل عمل إصلاحي يعمل على استئناف الحياة الإسلامية، بالدعوة إلى الإسلام وإشاعة التدين في المجتمع، أي أنه عمل إحيائي تجديدي هدفه الأسمى هو تجديد الدين في النفس والمجتمع، فهل التزم العمل الإسلامي بمنهج الدين في بناء الدين من منظور « الفطرية »؟ ثم ما هو المقياس أو المعيار الذي نحكم بواسطته على هذا العمل؟

(إن الجوهر الحقيقي والمبرر الأساس لوجود العمل الإسلامي إنما هو

تجديد التلقي للقرآن الكريم رسالة رب العالمين)[١]، وهو ما يعني أن مقياس الحكم على الحركة الإسلامية يستمد عناصره من القرآن الكريم بالبحث عن نصيبها من الكتاب، وأين هي من القرآن الكريم تخلقًا وتحققًا، وهل منهجها في العمل هو المنهج القرآني في الإصلاح والدعوة؟

إن الحركة الإسلامية - في نظر الدكتور الأنصاري - خالفت المنهج القرآني، أو المنهاج الفطري السليم عندما اعتمدت على مصطلحات غربية في التغيير، مما خلق لديها (اضطرابًا في المفاهيم، وتغربًا في الوسائل، واختلالًا في الأولويات، وخلطًا في المرجعية)[٢]، فعقدت وتعقدت، وشقت وتشققت، فلا ظهرًا أبقت ولا أرضًا قطعت، بينما القرآن ينادي في كل وقت وحين: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧].

ولا مناص أمامها إن هي أرادت أن تسير في الخط الصحيح، وأن تسترجع دورها الريادي أن تجدد « النظر في الأساليب التربوية والمنهجيات الدعوية » بالعودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته وأصل طبيعته، وفطرته أنه « دعوة» وليس حركةً؛ نظرًا لأن مصطلح الدعوة لفظ قرآني أصيل، ومصطلح الحركة لفظ سياسي دخيل.

على أن المسألة ليست مسألة « مصطلح » فحسب، وإنما هي مسألة جهاز مفهومي كامل، مرتبط بنظام تصوري شامل في إطار عمل منهاجي يرمي إلى الإسهام في تأصيل العمل الإسلامي. ذلك بأن مسألة « المصطلح » لها تأثير كبير على مستوى المنهاج والتصور في العمل الإسلامي (وإنما سمى اللَّه -جل وعلا- فعل تجديد الدين ووظيفة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » - في كتابه وسنة نبيه « دعوةً »، وما كان ينبغي العدول عما سمى اللَّه به مفاهيم الدين، إلى غيره من عبارات المحدثين. قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ

(١، ٢) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٩).

صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. وخاطب رسوله ﷺ في هذا الشأن: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وخاطب - سبحانه - الأمة فقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

(والعودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته تقتضي العودة به إلى مجال عمله والاشتغال به في صلب وظيفته، وفي جوهر موضوعه، ومحل خطابه. ولا خلاف بين علماء الشريعة أن ذلك جميعًا إنما هو دائر على قضية واحدة وهدف واحد ومحل للخطاب واحد، هو الإنسان في علاقته مع ربه، الإنسان هو القضية وهو مجال الاستثمار الرئيس للدين)[1]. فكيف يمكن الاستثمار في الإنسان دون البدء بتسوية فطرته التي اخترمت وطمست؟ وكيف يمكن طرق باب الفطرة دون استعمال المفتاح الصحيح لفتح منافذها؟ أو ليس مفتاحها هو القرآن الكريم؟ ثم كيف نتعامل مع القرآن الكريم دون استخدام منهاجه الصحيح؟ ومنهج الإصلاح القرآني مضمونه في الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

إن العلاج الحقيقي في العمل الإسلامي هو استعادة دور الوحي التربوي والاجتماعي في الدعوة وبناء الدين، (فإذا كان خطاب الوحي - بما هو خطاب الفطرة حقًّا - هو وحده المؤهل لإصلاح العطب الحاصل في محركات العمل الإسلامي المعاصر، والقادر على ترشيد السير وتصويب الاتجاه، وضبط بوصلة المقاصد والغايات، وإعادة ترتيب سلَّم الأولويات، كما أنه هو وحده المؤهل لإعادة تسوية ملامح الصورة الفطرية في النفس الإنسانية على العموم)[2]، فإن الواجب للعمل الإسلامي أن يضبط الوسيلة الأساس، ألا وهي اعتماد خطاب الوحي لا غير، القرآن الكريم وبياناته النبوية، هو وحده المؤهل لإعادة بناء هذا النوع من الهدم والردم[3].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٣٨).
(٢، ٣) نفس المرجع (ص ١٠٣).

لذلك فإن الاشتغال بكتاب الله ﷻ، وتطبيق « المنهج القرآني الفطري » في بناء العمران الروحي للفطرة الإنسانية هو المؤدي إلى إعادة تجديد العمران الاجتماعي، والمادي للحياة الإنسانية برمتها، سياسةً واقتصادًا واجتماعًا، وذلك هو المنهاج الذي سلكه رسول الله ﷺ طيلة بعثته الشاملة بما استقرت عليه من كل وظائف النبوة، تلاوةً وتزكيةً وتعليمًا.

* * *
* *
*

التلقي في التربية الفطرية عند الناشئة

ذ. عادل البركة

يندرج كتاب الفطرية في إطار الجهود المبذولة لتصحيح مسار العمل الإسلامي، فهو كتاب يسهم في فتح نقاش بين العاملين في الصف الإسلامي حول مسلَّمات الدعوة ومستقبلها وآفاقها؛ إذ الكتاب يندرج ضمن مجموعة من الكتب التي تبحث في (التأصيل النظري للعمل الدعوي، وهي راجعة إلى بيان طبيعة المنهاج الفطري، القائم أساسا على منهج التلقي التربوي للقرآن الكريم، وعلى التداول الاجتماعي لآياته ومفاهيمه)[١].

لقد تبين للدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللَّه - باعتباره أحد أبناء العمل الإسلامي وقادته بل وعلمائه، أنه لا مخرج للعمل الإسلامي في الوقت الراهن إلا بعودته لأصوله؛ لذلك فمفهوم الفطرية دعوة شاملة للعودة إلى الفطرة، فطرة النفس والدعوة والمجتمع، وقبل هذا وذاك فطرة الدين.

وإذا كانت الدعوة الفطرية - حسب الدكتور - (عملية إصلاح وجدانية، تقوم أساسًا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلًا على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوهات تصورية وسلوكية، في شتى امتداداتها العمرانية)[٢]، (من خلال تلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية منزلةً منزلةً)[٣]، فهذا يعني أن الفطرية في شقها التربوي هي (التربية الفطرية) باصطلاحنا. فهل التربية الفطرية عند الدكتور تُختزل في الجانب الوجداني، أي في ترقية الوجدان الإنساني حتى يدرك معاني الإيمان وذلك هو حدها؟ أم أنها بديل عن التربية الإسلامية التي لطالما اعتقدنا أنها شاملة بشمولية التدين؟

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٥٦).
(٢) نفس المرجع (ص ١٠٥).
(٣) نفس المرجع (ص ١٠٦).

ولئن كانت الفطرية تتوجه لكل إنسان في المجتمع من خلال التداول الاجتماعي للقرآن والاشتغال به (الاشتغال الذي يعمر الحياة، حتى تطغى على كل شيء سواه، تلاوةً، تعلمًا، تدارسًا، تدبرًا تزكيةً، إلى أن يفشو ذلك فشوًّا بين سائر فئات المجتمع وطبقاته)[١]، فهل يعني هذا أن الأنصاري كان يقصد كل إنسان ولا يستثني أحدًا بما في ذلك الناشئة؟ وما هي إمكانات هذه التربية القائمة على التلقِّي - كما بيّنها الدكتور- حتى تكون تربيةً لناشئة ما زالت في طور بناء الإدراك الوجداني والذهني، بل وحتى تكون سبيلًا مساعدًا لتلقي القرآن الكريم؟ وهل مداخل التربية الإيمانية عند الناشئة هي نفسها وسائل وطرق التربية الإيمانية كما يقترحها الدكتور؟

هذه أسئلة نسعى قدر الإمكان للجواب عنها، واضعين في الحسبان أن السياق الذي يتحدث عنه الأنصاري هو سياق دعوي بالأساس، إلا أن هذا لا يعني عدم إمكانية مناقشة الشق التربوي في المسألة[٢]، ساعين بذلك إلى ربط وفهم العلاقة بين التربية الفطرية والتربية الإسلامية، وهل هي علاقة انفصال وانفصام؟ أم هي علاقة اتصال وامتداد؟

١- التربية الفطرية:

تشير معاجم علوم التربية إلى أن التربية عملية تنمية متكاملة ودينامية تستهدف مجموع إمكانات الفرد البشري وجدانية كانت وأخلاقية وروحية وجسدية[٣]، وهو التعريف الذي يجعله علماء التربية الحديثة منصهرًا في كون التربية تغيير في السلوك، شريطة أن يفهم من السلوك حلقاته الثلاث: حلقة الإرادة، والفكرة، والممارسة[٤].

وإذا كانت مختلف التعريفات التي نجدها تجمع على النمو والارتقاء والتغير،

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٥٠).

(٢) حتى نكون منصفين في فهم مقاصد الدكتور الأنصاري أثناء حديثه التربوي، يكون لزامًا علينا الاستعانة ببعض التعاريف التي صاغها في موضوع التربية، اعتمادًا على بعض كتاباته في الموضوع.

(٣) معجم علوم التربية (ص ٨٩).

(٤) ماجد الكيلاني، مناهج التربية الإسلامية (ص ٨٨).

فإن مدار الاختلاف يكون حول الاتجاه الذي يسير فيه هذا النمو، بمعنى كمالات النمو التي نريد أن يصل إليها هذا الإنسان. وهنا تظهر المفارقات والاختلافات في التربية، مما يعني أن الإشكال يرجع بالأساس إلى الاختلاف في الفلسفات المؤطرة للفكر البشري، بما هي طريقة فهم الإنسان للوجود والكون والحياة.

وهكذا فتعريف التربية الإسلامية يستند إلى مرجعية الإسلام، في تحديد منطلقات النمو والارتقاء بالإنسان. يقول الدكتور: (أما التربية الإسلامية في التداول الاصطلاحي الدعوي فهي تعهد الفرد المسلم بالتكوين المنتظم بما يرقيه، في مراتب التدين تصورًا وممارسةً)[١]. وهي (عملية شمولية؛ نظرًا لشمولية أهدافها المرتبطة بالتدين الإسلامي الشامل، ذلك بأن التعبد في الإسلام غير مختزل فيما سُمي عند الفقهاء بالعبادات المحضة، بل هو متعدد إلى جانب العادات والمعاملات أيضًا، ومن هنا كانت التربية الإسلامية متعلقةً بتصحيح التصورات، ثم تصحيح التعبدات، ثم تصحيح السلوك الاجتماعي، وكل هذا يتطلب توظيف معلومات شتى لها علاقة بمختلف جوانب الحياة، بصورة أو بأخرى، باعتبارها أدوات إجرائية تساعد على فهم النصوص الشرعية، وحسن تنزيلها تربويًّا في حياة الفرد والجماعة)[٢].

وبهذا فالتربية الإسلامية - حسب مفهوم الدكتور فريد الأنصاري - تتميز بسمتين اثنتين، **سمة الشمولية**؛ لأنها تخاطب كل الإنسان روحه وعقله، وجدانه وحواسه، بما يجعلها تتمثل الإسلام أحسن تمثيل، فهي تسير بهذه المكونات لترتقي بها في التدين الذي لا ينفصل على الحياة. **وسمة الانفتاح**؛ لأنها تستعين بكل ما من شأنه أن يساعد على تنزيل هذه القيم تربويًّا في حياة الإنسان، فهي على استعداد دائم لتوظيف شتى العلوم وتسخرها خدمةً لترسيخ العقيدة والارتقاء بالإنسان المسلم، لكن شريطة عدم مخالفتها للفطرة.

(١، ٢) فريد الأنصاري، التربية بين التوحيد والوساطة (ص ١١).

إذ التربية الفطرية (عملية إصلاحية وجدانية تقوم أساسًا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلًا على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوهات تصورية وسلوكية في شتى امتداداتها العمرانية)[١]. تربية قائمة على منهج تلقِّي القرآن (من خلال تلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية منزلةً منزلةً؛ إذ لا تخلق للنفس إلا بمعاناة ولا تخلّص لها من أهوائها إلا بمجاهدة)[٢]. أي أنها عملية تقوم على أساس التلقي لمنهج التعامل مع القرآن في دراسة الفطرية، بما يعني من انفتاح الوجدان الإنساني على حقائق المعاني الربانية، وبما يدل على معاناة ومشقة الوصول لهذه الحقائق وإدراكها إدراكًا وجدانيًّا يمنع عنها سيطرة الأهواء وشر النفوس.

والناظر لأركان الفطرية من الزاوية التربوية يجدها لا تخرج عن التجاوب الوجداني لمعاني القرآن، والاحتراق الداخلي لتجفيف منابع العصيان؛ لأن الإنسان قد يكون في حالة سكونية في المظهر، لكنه في المخبر يعيش حالة اشتعال ومعاناة. إذ الإخلاص فصّ الفطرية، وهو محاولة لإعادة النفس إلى أول ما بُنيت عليه عند الخلق، محاولة تجعل الآخرة بوصلةً لضبط مسار الحركة والفعل، كما تجعل القرآن مدرسةً لتلقي الرسالات عبر مجالس القرآن.

إضافة إلى أن الناظر للمسالك التربوية للفطرية[٣] يرى أنها وسائل تربوية تسعى إلى البحث عن الحقائق من خلال تجاوب عمق الإنسان مع القرآن، ذلك (كتاب الفطرة الذي استقامت عليه يوم قامت، وعليه يجب أن تستقيم كلما انحرف بها المسار، ولا يكون ذلك إلا بأن تستأنف تلقي حقائقه الإيمانية مرةً أخرى، وتتغذى من روحه العظيم تخلقًا وتحققًا)[٤].

لذلك كانت التربية الفطرية تربيةً وجدانيةً بما هي عملية تجري داخل مخبر

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٥).

(٢) نفس المرجع (ص ١٠٦).

(٣) نفس المرجع (ص ١١٥، ١١٦).

(٤) نفس المرجع (ص ١٠٦).

وجداني ونفسي للإنسان لتحدث له تغيرًا سلوكيًّا لكن على منهج قرآني، يستمد أصوله من القرآن بما هو كتاب اللَّه الذي يعلم خبايا النفس وأسرارها، وله وحده علم الفطرة وخباياها، فهو كتاب يستبطن منتهى العلم بهذا الإنسان؛ إذ جعله اللَّه هدايةً لطريقه.

فإذا كانت التربية الإسلامية شموليةً في مخاطبتها لكل جوانب الإنسان، ومنفتحةً في استعانتها بكل حكمة تفيد في القصد، فإن التربية الفطرية هي جوهر هذه التربية؛ لأنها تخاطب الوجدان والأعماق، تخاطب معاني التغيير الوجداني انطلاقًا من القرآن بقصد التخلق به، وهذا ما يبينه حديث الدكتور فريد الأنصاري عن التربية الفطرية، باعتبارها حديثًا ينطلق من واقع الدعوة وحال رجالها، بعد رحلة حافلة في المجال الدعوي والتربوي استمرت إلى آخر حياته، رحلة أعادت له ترتيب الأولويات، مما جعله يدعو ويركز على هذا النوع من التربية باعتباره المدخل الحقيقي لتلقي القرآن والتخلق به.

فالدكتور فريد الأنصاري لا يناقض التربية الإسلامية عند حديثه عن التربية الفطرية، لكنه يرى أن منهج الدعوة في هذه المرحلة ينبني على تربية فطرية تقوم على إصلاح الوجدان أساسًا، دون الارتداد عن التربية الشمولية، وهذا يمثل منهجًا ضمن مناهج التربية الإسلامية؛ لكونه يسعى إلى مخاطبة الجوانب المتعددة للإنسان، دون أن يكون هناك فصل أو تناقض عبر المدخل الحقيقي لها، إذ التربية الفطرية مكون من مكونات التربية الإسلامية لكن لها جوهر، إذ الإنسان (عقله وجسمه..) يجب أن يسير وفق هذه التربية لا ينحرف عنها ولا يزيغ، إنها البوصلة الموجهة لقدراته وطاقاته وحركته في الحياة، بوصلة تنبع من مركزية علاقة الإنسان بربه، وما لها من آثارٍ بينةٍ على مختلف العلاقات التي ينسجها الإنسان في الحياة، أو ما سماها الدكتور فريد الأنصاري بقضايا العمران.

وفي ذلك رصد لحدود وامتدادات هذه التربية، خاصةً عندما يكون مجال اشتغالها

وموضوعها هو الأبناء والناشئة الذين لم يبلغوا بعد سن التكليف الشرعي، لكنهم يمثلون مستقبل هذه الأمة؛ لأن الجوهر لا يتحقق إلا عندما يصل الإنسان إلى تنمية شاملة لقدراته ومؤهلاته، وفق قوانين وسنن إلهية تحترم مراحل النمو عند الإنسان.

٢ - التربية الفطرية والناشئة:

إذا كانت التربية الفطرية عمليةً إصلاحيةً وجدانيةً بالأساس، غايتها العودة بالفطرة إلى ما كانت عليه يوم أن وُجِدَ الإنسان أول مرة على هذه البسيطة، أي فطرة التوحيد الخالص للَّه ﷻ، فهذا يعني أن هذه الفطرة هي وجهة التدين، تدين قائم على التلقِّي من القرآن ولا شيء غير القرآن، تربية لا تستثني أحدًا بما فيهم الناشئة التي رأى الدكتور أنها معنية بهذه التربية.

لقد أبدى الدكتور اهتمامه بهذه الفئة بدايةً في معرض حديثه عن التعليم، الذي جعله من المجالات الأولى التي يجب أن ينصبَّ عليها العمل الدعوي بما هو وظيفة نبوية رئيسية، وذلك من خلال الاشتغال بإنسان التعليم من التلميذ إلى المدرس[١].

ففي فقرات عديدة من مشروع الفطرية أظهر الدكتور الأنصاري تخوفه من واقع التعليم وما أصبح عليه، واقع يستدعي جعل التعليم ضمن الأولويات التي تراهن عليها الدعوة الفطرية، حيث أكد أن الناشئة فئة لا تُستثنى ولا يجب استثناؤها من التربية الفطرية، ففي حديثه عن التداول الاجتماعي للقرآن - وهو أحد تجليات الدعوة الفطرية - دعا لجعل القرآن متداولًا بين الناس يخاطب الفئات بدون استثناء، ويقتحم البيوت بدون استئذان، بل أكثر من ذلك جعل صنف المجالس الأسرية ضمن مجالس القرآن التي يدعو إليها، وهو بهذا يخصص نوعًا خاصًّا من الوسائل التربوية لفطرية هذه الناشئة، وسائل يشرف عليها الآباء لتلقين أبنائهم هذه التربية في محاضن قرآنية أسرية هي ممهداتٌ لمجالس القرآن[٢].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤١).

(٢) نفس المرجع (ص ١١١، ١١٢).

وإذا كان الإنسان يولد على الفطرة فهذا يعني أن الصفاء، والإخلاص، والتوحيد كامنٌ في الإنسان منذ ولادته، تصديقًا لحديث الرسول ﷺ الذي يقول: « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه** ». أي أن العلم هو من يمد المولود باللغة التي يعبر بها عن هذه الفطرة القائمة فيه؛ لهذا كان العلم بالإسلام هو هذه اللغة الوحيدة التي تعبر حقيقةً عما هو في باطنه من فطرة سليمة، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

وإدراك قيمة ما تحمله الناشئة من فطرة التوحيد الخالصة للَّه ﷻ، يعني أن جوهر التربية الفطرية يكمن في التمكين لهذه الفطرة كي تعبر بلغة العلم بالإسلام عن صفائها؛ إذ في الغالب ما يتم استعمال لفظ الإصلاح التربوي عند النظر إلى الناشئة واختلالات أو تشوهات سلوكها، علمًا أن سلوكها تشوَّه بفعل المحيط ومؤثراته، وهذا يعني أننا لم ندرك صفاء الفطرة ولغتها، مما جعلنا نسهم بجهلنا في تشويهها نظرًا لعدم إدراكنا لقواعد التربية الفطرية.

لذلك فعوض رفع شعار الدعوة إلى الإصلاح التربوي لصيانة الفطرة، ندعو إلى التمكين التربوي لهذه الفطرة عند الناشئة، من أجل إشاعة مناخٍ إيجابي في محيط التربية، يساعد الناشئة على إدراك ما تحمله من فطرةٍ خلقها اللَّه عليها، ومن لغةٍ للتعبير عن جوهرها المكنون بين جنبيها؛ إذ التربية الفطرية في هذه المرحلة العمرية تأخذ معنى يتجاوز الإصلاح إلى الإشعاع، والانبعاث لمجموع الأنوار الربانية الموجودة في النفس البشرية منذ ولادتها.

٣ - التربية الفطرية والتدين:

لقد بات معلومًا أن التدين هو الأداة الوحيدة للعودة إلى الفطرة، وهذا يعني أن التربية الفطرية قائمة على التدين بالأساس. لكن كيف يمكن القيام بتربية فطرية عند الناشئة قائمة على التدين في مرحلة غير التكليف؟ وهل يجبرون على التدين؟

إن مفهوم التربية الفطرية عند الناشئة يقتضي التمكين للقرآن في حياتهم الأولى، بما هي مرحلة للتأسيس من خلال زرع مفاهيم التدين الأساسية وقناعاته الثابتة في النفوس والعقول بما يناسبهم، وهذا لا يجد مسلكه الطبيعي إلا بالتربية على كيفية تلقي القرآن الكريم.

ويشكل تلقي القرآن الكريم ركيزةً أساسيةً في التربية الفطرية، حيث اعتبرها الدكتور فريد الأنصاري الآلية الصحيحة لترجمة القرآن عمليًّا. تلقي القرآن كلمةً كلمةً كأنما يتنزل على المرء تنزل الحاجة للمتعطش لها، أو الجواب الشافي عن السؤال الكافي. تلقي لن يؤتى إلا لشخص له حد أدنى من القدرة على التدبر والتمعن في الآيات القرآنية والكلمات الربانية من جهة، وله نصيب من القدرة على الوعي بالذات وعيوبها، وبالنفس وهفواتها من جهة أخرى. فهل هذه الشروط متوفرة في أطفالنا وهم في هذه المرحلة العمرية؟

إن الناشئة التي لم تبلغ بعد سن البلوغ، تتميز بتطلعها لاكتشاف مستمر لكل ما هو مثير في محيطها، ولانتزاع الاهتمام ممن حولها، إنها مرحلة قدراتها الذهنية لم تصل لإدراك المجرد من القيم، ونفوسها لم ترتو بعد من العطف اللازم للاستقلال، وأبدانها في ديناميكية حركية يصعب إيقافها.

والتلقِّي بالمعنى الذي بسطه الدكتور لن يكون ذا معنى عند أطفالنا ما دامت شروطه غير متوفرة فيهم، يمكن توفيرها عبر مرحلة سميناها بمرحلة التمكين الفطري والتأسيس للتدين، غايتها الإشعاع الفطري والوصول إلى مرحلة الإدراك الروحي لهذه الفطرة النقية، وهذا يفرض تعددًا في الوسائل بما يتيح تربيتها على التلقِّي ويناسب مرحلة نموها، إنها وسائل وطرق ترسيخ معاني الفطرة والتوحيد.

إن الناشئة اليوم وهي في طور بناء تجاربها الخاصة، واستيعابها لمسالك إدراك معاني القرآن الكريم عبر الحفظ والقدوة...، في حاجة لتربية تغني تجاربها حتى

تتمكن من المكابدة بكيانها ووجدانها وفكرها، فيكون الحوار والتلقي للمعاني القرآنية على ضوء الحاجة ووضع السؤال...، كلها مسالك لمقصد التلقي.

لقد عبر القرآن عن هذه التربية من خلال دعوته المستمرة لإعمال العقل والسمع والبصر، حيث كان تنزيل القرآن مواكبًا للأحداث، وفي ذلك تربية على الاقتران الكبير الذي كان وما يزال وسيستمر بين الحياة والقرآن، اقترانٌ الناشئةُ في حاجة ماسة إليه كي لا تعيش الانفصام بين الحياة والقرآن في حياتها.

فإذا كانت الناشئة في مرحلة نمو دائم ذهني وحركي ووجداني، مرحلة لها حاجياتها، فلماذا لا تكون التربية - بالملامح التي ذكرنا - طريقًا يستجيب لبناء الفطرية، فينمي القلب والوجدان لترسيخ الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله، وينمي العقل الباحث عن حقائق الوجود الإلهي، وينمي الجسد بقصد القدرة على عبادة اللَّه؟

إن التربية الفطرية تربية لوضع المعاني القرآنية روحيًّا، ولوضع توجيهات القرآن تجربة في الحياة عمليًّا، بقصد ترسيخ معاني كتاب اللَّه، حتى تكون التجربة موضوعًا للتواصل بشكل يمنح للناشئة فرصة السؤال والفهم، وحتى تكون التجربة حوارًا لتأكيد هذا الفهم أو ذاك، إنها تجربة لفهم الذات عبر إدراك المعاني القرآنية، وهذا منهج يمَكِّن التربية الفطرية للناشئة من المزاوجة بين التعلم من القرآن والتعلم من الحياة بشكلٍ يحافظ للذات على اتزانها النفسي والوجداني، من خلال تربيةٍ شاملةٍ محورها الإنسان ومنهجه القرآن، لإشعاع الأنوار الربانية في هذا الطفل أو ذاك استحضارًا لسيرة رسول اللَّه ﷺ.

* * *
* *
*

الفطرية والبلاغ
بناء الدعوة وهدم المعبد

د. رفيق البوحسيني

ما إن تتفق مجموعة بشرية على عمل جماعي، حتى تنبثق الحاجة ملحةً للاحتماء بالقانون والقاعدة المجردين عن الأهواء والمصالح والرؤى الذاتية، ويكاد يكون اللجوء إلى هذا الموئل المجرد صمام الأمان، وضمان الاستقرار والاستمرار.

وحيث إنه لا عصمة إلا لنبي، فقد استعيض بعصمة المجموعة، التي إذا استقامت على المتواضع عليه، بعد أن محصت رجوحه ووجاهته، خطت لنفسها مسارًا حافلًا بالإنجاز والإضافة؛ إذ الاجتماع المنظم النقدي والناقد سمة الرشد والحكمة للفعل الإنساني، فكيف إذا كان المجتمع عليه رسالة السماء، وكلمة الخالق إلى خلقه؟

لقد سعى علماء الأمة عبر التاريخ للاجتهاد في الفهم عن اللّه ورسوله ﷺ، وحرص العاملون في « حقل الدعوة » - من خلال أدبياتهم - على تنزيل الفهوم وترجيح الأصح منها على العموم، لكن في الأثناء قد تزل القدم وتشرد عن سواء السبيل - عن حسن نية - لكن الخطأ في هذا المسلك لا ينحصر أثره على المخطئ، ولا على مناط الخطأ، بل تمتد تداعياته لتطال كل مجالات الخطاب الإصلاحي.

ويبقى النص المقدس - وهو سقف الاجتهاد البشري - يمد سلطانه على الفعل الإنساني، ويهيمن عليه، موجهًا ومرشدًا إلى مقاصد الدين، ومنوال التلقي والتبليغ.

١ - النقد روح الحياة:

لم يكن الذين نقدوا مشاريعهم الفكرية التي نشأوا عليها، وتصوراتهم العقدية التي طبعت وجدانهم، إلا تلك الشموع المضيئة التي تحترق، وهي تعالج

اضطراب مخاض أشعتها من الداخل، وتدفع طبقات الحلكة الدامسة المحيطة بها من الخارج، حتى أنه لطالما احتاجت التيارات النظرية الكبرى إلى من يذكّر بأصولها وانطلاقاتها، ومبادئها التأسيسية بعد تراكم الأحداث وتطاول الأزمان، وإلى من يحافظ على نبضها الثائر المتقد، المتدفق حماسةً وعنفوانًا، وإلى من يحرص على تجرد قيمها السامية النبيلة، ويشد عليها بالنواجذ.

ولئن كان الهلاك المحقق مصير امرئ مُنع الهواء، فإن النهاية المأساوية ذاتها تحيق بالتصورات التي من شأنها التبشير بالغد الأفضل، إذا ما اضطر صوت النقد من داخلها إلى التواري عن الأنظار، والانزواء في أماكن مُزْوَرة حيث لا يسمعه أحد، وإن سُمع رُمي بالتمرد والخروج عن نمط السرب وإلفه. وحينئذ تبرز مقولات وتسمو إلى مراتب المسلَّمات القطعية من قبيل « لا صوت يعلو فوق صوت التنظيم »، « لا صوت يعلو فوق صوت الجماعة ». على غرار « لا صوت يعلو فوق صوت الثورة » و « لا صوت يعلو فوق صوت البندقية »،... وهو ملمح ينم عن خلل في التصور وضيق في أفق التفكير وغبش في حدة النظر.

والحركات الإسلامية لا تخرج عن هذه السنة الكونية، باعتبارها - وإن اشتغلت بالنص المقدس - عملًا بشريًا في البدء والمنتهى، إذ تكمن مشكلة الكثير من العاملين في الحقل الإسلامي (في الخلط بين القيم والمبادئ الإسلامية الثابتة، أو ما يمكن أن نطلق عليه منظومة القيم والمبادئ المحفوظة بحفظ اللّه، وبين الاجتهادات الفكرية للمسلمين، أو الإنتاج الفكري والصياغة الفكرية والقدرة على تنزيل المبادئ والقيم على واقع الناس المعاصر، وتقويم ذلك الواقع بتلك المبادئ، ذلك بأن الاجتهاد الفكري لا يجوز أن يتوقف لحظةً واحدةً، وأن أي إصابة أو تأزم في القضية الفكرية سوف يؤدي بالضرورة إلى تحنيط القيم والمبادئ، ونقلها من ساحة الواقع العملي إلى ساحة التبرك والقدسية، بعيدًا عن إمكانية حل أية مشكلة)[١].

---

(١) طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات (ص ٥٦).

ومن هنا تبزغ قيمة صوت النقد والمراجعة، وتبرز - بالتبع - مدى إلحاحية الحرص على الإنصات لحامل هذا اللواء، وإن التاريخ ليحكي أن سدنة المبادئ والأصول التأسيسية تتراوح أعدادهم بين القلة والندرة، وقد تخلو منهم مرحلة تاريخية بأكملها يكون سيماؤها الأبرز التنميط والاستتباع.

٢ - **المصداقية والتنظيم:**

لقد كان الأنصاري - رحمه اللَّه -، الشمعة المحترقة، والصوت الصادح بنقد لا يجوز له إلا أن يكون لاذعًا بصدقه، وقاسيًا بغيرته، اتفق معه المتلقي أو عارضه، حيث اضطلع بهذا الدور الفريد المجيد في الاستشراف والاستبصار؛ لأنه يعد من بين رواد الحركة الإسلامية، ذات المشاريع التغييرية الإصلاحية السلمية، إذ حيث تدرج داخل هياكلها التنظيمية إلى أن وصل إلى دائرتها التقريرية الأولى، فكانت له فيها بصماته الواضحة، خاصةً في المجالين التربوي والعلمي. فالرجل إذن ابن البيت، وأحد بُناته ومقيميه، فلا غرو في أن نشاهد ونلمس الحماسة في الدفاع، والغيرة في الذود عن هذا المشروع الإصلاحي الكبير.

لقد أعفاه موقعه من بذل جهد تبريري لحيازة مصداقية زائفة، أو مشروعية موهومة للتناول النقدي للحركة الإسلامية في شمولها، وبغض النظر عن عناوينها وتلويناتها، فنقده كان موجهًا للبناء التصوري الجامع لمختلف الفصائل العاملة في الحقل الدعوي، وهو دأب الاجتهاد الفكري الذي يسمو فوق دقائق الأحداث وسفسافها، وهو منوال نظري يسعى لدرء النظر التجزيئي الذي قد يؤدي إلى الصراع والتناحر[1].

---

(١) وهو ما عبر عنه د.طه جابر العلواني بضرورة البعد عن النزاعات والانحيازات الحزبية، ومحاور الصراع والاستقطاب بينها، والانطلاق من مفهوم الأخوة الشاملة وكونية الخطاب الإسلامي، حتى لا تتحول الطروحات الفكرية من حلٍّ لمشكلة ومعالجةٍ لأزمة لتصبح أحد عناصر الأزمة، وبذلك تحاصر نفسها وتعجز عن تقديم شيء ذي قيمة للأمة...، وحين ينتشر هذا الوعي في هذا القطاع فسوف تتهيأ =

وإنما آثرنا الإشارة إلى هذا الأمر درءًا لما يمكن أن يشوب الفهوم، خاصةً أن الرجل - رحمه اللَّه - ذهب إلى ما قد يشبه نقضًا للمشروع في كليته، حيث قال: (فبعيدًا عن خوارم الفطرية من مضايق الجماعات والتنظيمات والأحزاب، وبعيدًا عن حرج الأسماء والمصطلحات والألقاب، وما يترتب على هذه وتلك من تصنيفات وتعقيدات، نعود إلى النبع الأول في ديننا ودعوتنا، نعود إلى بساطة الإسلام، نعود إلى ربيع القرآن الصافي لنسمي المعاني كما سماها اللَّه، ونصف الحقائق كما وصفها رسول اللَّه ﷺ)[1].

لقد عُدَّ كتاب « الفطرية » باكورة جهد تنظيري تأليفي احتضنه المشروع الذي وسمه الأنصاري - رحمه اللَّه - بـ « من القرآن إلى العمران »، إيمانًا منه أن جهد الفقيه العالِم ينبغي أن ينصبَّ في مسلك الاستبصار والاستشراف، المنبعث من المعرفة المحيطة والمضبوطة، المحيطة بالتاريخ البعيد والقريب، وما حواه من أحداث ونوازل، ومضبوطة باعتماد رصد دقيق لتضاريس الواقع ومستحدثاته، وهو ما برز في قوله: (ثم متتبعين « قصص » الدعوة الإسلامية عبر التاريخ إلى يومنا هذا، غير هاضمين أي تجربة دعوية حقها، ولا منكرين لأية حركة أو طائفة فضلها. وعليه فإن كتابنا هذا الذي نقدمه اليوم لأحبتنا وقرائنا الكرام عامةً، ولأهل الشأن الدعوي منهم خاصةً، عبارة عن رؤية متواضعة في فقه الدعوة الإسلامية، تتضمن تأصيلات منهاجية، نظرية وتطبيقية)[2].

وحيث إن الكتاب يمثل التصور في تجليه الخاتم، فقد حرص المؤلف - رحمه اللَّه - أن يقيمه بناءً تصوريًا متكاملًا، فكانت البداية من الأسماء العناوين (المصطلح القضية)؛ لأن المصطلحات وُضعت وسُكت لتعرض المعاني والدلالات على سبيل التكثيف والتدقيق والتبئير.

= العقول والقلوب إلى قبول كثير من التعديلات في الوسائل، والأدوات، والشروط لصالح عالمية الخطاب الإسلامي. العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي (ص ٦٠).

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٤).
(٢) نفس المرجع (ص ١٥).

والدكتور فريد - وهو العضو المؤسس لمعهد الدراسات المصطلحية - لا تعوزه المكنة في نحت ما يلبي الرغبة في اصطفاء المطلوب الدقيق من داخل الحقل الدلالي الواسع؛ إذ لم يكن - في ما نعلم - مسبوقًا في وضع مصطلح « الفطرية » على وزان « فعلية »، وهي من الصيغ التي قد تكون محسوبةً عند الصرفيين[١] إما على باب النسبة، من قبيل: علمية، صدقية، سلمية،...، أي بإضافة ياء النسبة للاسم الأصل وهو « الفطرة »[٢]، التي هي مصطلح قرآني بامتياز، تكاد دلالاته تصطبغ كليًّا بالصبغة الدينية. حيث اجتهد مؤلف « الفطرية » - ما وسعه الاجتهاد، في التدليل على أن هذا المصطلح هو الأنسب للإحالة على معاني البداية، والتجرد، والأصل، والمبتدأ، والمنطلق. إذ إن « أصل الفطر: الشق، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾ [الانفطار: ١]. ومنه أُخذ فطر الصائم؛ لأنه يفتح فاه.

كما أن الفطرة هي الابتداء والاختراع ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[٣] [فاطر: ١]. بالإضافة إلى أن المصطلح يضمن - بحسب المؤلف - استمرارية هذه المعاني المذكورة، وعدم اندراسها وتجاوزها، فذلك إن وقع، إنما هو مسخ لأصل الفطرة التي صنعها اللَّه - تعالى - على عينه.

وكأني به اكتفى بذكر النسبة دون الموصوف بها، لبداهة ورود الموضوع المراد، ألا وهو « الدعوة »، حيث يقول: (الفطرية بما هي منهاج في العمل الدعوي قائم

---

(١) (وعليه، فهذه لبنة جديدة في البناء الدعوي الذي نشتغل به، ترمي إلى الإسهام في العودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته، وأصل طبيعته، ولذلك وسمنا الكتاب بمصطلح « الفطرية »، وهي سيماء دالة على المقصود منه ابتداءً وانتهاءً، أخذًا من كتاب اللَّـه وسنة رسوله ﷺ. ولأن الفطرة راجعة - على الإجمال - إلى الطبيعة الأولى، وإلى الهيئة الأصلية التي كانت للأشياء قبل خضوعها للتغيير والتبديل، فإن الحاجة ملحة اليوم على العودة بالعمل الإسلامي إلى ذلك أيضًا). الأنصاري، الفطرية (ص ٢٥).

(٢) النسبة هي إلحاق آخر الاسم ياء مشددة مكسورًا ما قبلها، للدلالة على نسبة شيء إلى آخر. والذي تلحقه ياء النسبة يسمى منسوبًا: كبيروتي، ودمشقي، وهاشمي. مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية (٢/ ٤).

(٣) ابن منظور، لسان العرب (باب الراء) (٥/ ٦٥، ٦٦).

أساسًا على أصول الفطرة، كما هي معروضة في القرآن الكريم والسنة النبوية، وبما هي محاولة لاستعادة دور الوحي التربوي والاجتماعي في النفس وفي المجتمع، الوحي الذي قام منهاجه الشمولي على هدف أساس، ألا وهو تخريج نموذج « عبد اللَّه » الذي هو مناط كل شيء في الدين والدعوة)[١].

وإما أن يندرج مصطلح « الفطرية » في باب المصادر الصناعية[٢] التي تعد أسماءً تلحقها ياء النسبة مردفً بالتاء للدلالة على صفة فيه، ويكون ذلك في الأسماء الجامدة كالحجرية من الحجر. وفي الأسماء المشتقة: كالفاعلية والعالمية والحرية. وبذلك فالفطرية هي الصفة المنسوبة إلى الفطرة. وهذا وجه له ما رجحه من باب السعي إلى سك مصدر صناعي يلبي معنىً مستحدثًا يفيد الأوبة إلى المنهج في سيرته الأولى، قبل أن تعلوه الغشاوات والأباطيل[٣].

٣ - توقيفية الدعوة:

إن « الدعوة الفطرية » هي تثبيت لأصل أصيل في الدين، يكمن في أنه إذا كان الدين من اللَّه - تعالى - فإن آلية الدعوة إليه هي أيضًا لا تخرج عن دين اللَّه وتشريعه. وأي اجتهاد بشري إنما يصب في باب المسخ، والتحريف، والبعد عن الفطرة في الدعوة.

فكما أن الشرع قد خلع على الأصول في الدين صفة التوقيفية، فإنه أيضًا لم يخرج الدعوة وآليات الدعوة من الدائرة ذاتها، فالمؤمن يعبد اللَّه بالدين،

---

(١) الأنصاري، الفطرية (ص ١٤).

(٢) وقد أكثر منه المولدون في اصطلاحات العلوم وغيرها، بعد ترجمة العلوم بالعربية، وليس كل ما لحقته ياء النسبة مردفةً بالتاء مصدرًا صناعيًّا، بل ما كان منه غير مراد به الوصف: كتمسك بعربيتك، « أي بخصلتك المنسوبة إلى العرب ». فإن أريد به الوصف كان اسمًا منسوبًا، لا مصدرًا، سواء أذكر الموصوف لفظًا: كتعلم اللغة العربية. أم كان منونًا ومقدرًا: كتعلم العربية، « أي اللغة العربية ». الغلاييني، جامع الدروس العربية (١/ ١٣٤).

(٣) سيأتي هذا النعت عند المؤلف عند حديثه عن الحركة الإسلامية بـ « الاعتقادات الباطلة »، و « أغلب حجارته ومادته من الأباطيل ».

ويُعبد اللَّه بالدعوة إلى الدين، وقد يكون هذا هو المعنى الجامع لأطروحة الكتاب، حيث يقول الدكتور الأنصاري: (وإنما فطرة العمل الإسلامي أنه « دعوة » لا « حركة »، وبين هذا وذاك فرق كبير، فمصطلح « الدعوة » لفظ قرآني أصيل، ومصطلح « الحركة » لفظ سياسي دخيل؛ ولذلك ما له من آثار كبيرة على مستوى المنهاج والتصور للعمل الإسلامي (...)، وإنما سمى اللَّه - جل وعلا - فعل تجديد الدين، ووظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابه وسنة نبيه ﷺ « دعوة » وما كان ينبغي العدول عما سمى اللَّه به مفاهيم الدين إلى غيره من عبارات المحدثين؛ لأنه - سبحانه - أدرى بمراده من دينه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. والدعوة هو عين المصطلح المستعمل في البيانات النبوية باطراد تام)[١]، (وما أرى العدول عن كلمات الرحمن إلى عبارات الإنسان في مجال ديني تعبدي محض، إلا ضربًا من التحريف المفهومي لمقاصد القرآن)[٢].

يبدو للمتعجل أن صاحب الفطرية ذهب إلى نقض مشروع الحركة الإسلامية، وبيان استتباعه لمفردات التصورات الغربية[٣]، خاصةً بعد قراءة العنوان الذي صاغه المؤلف « الفطرية: بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام ». ويزداد هذا الشعور رسوخًا بعد الاطلاع على رأي المؤلف في علاقة الحركة الإسلامية بجوهر وجودها وسبب ولادتها، وهو النص الشرعي،

---

(١) الأنصاري، الفطرية (ص ٢٦، ٢٧). (٢) نفس المرجع (ص ٢٨).

(٣) فتبين إذن أن مصطلح « الدعوة » جامع لكل المعاني المشروعة التي يُعبر عنها اليوم بمصطلح « الحركة »، كما أنه مانع من دخول كل الإحالات المنحرفة، والدلالات المختلفة التي قد تسربت إلى العمل الإسلامي مع التعبير الدخيل. إضافة إلى تميزه وتفرده بالمقاصد التعبدية التي يقصر عنها لفظ « الحركة » ويضيق. إن مصطلح الدعوة هو التعبير الإلهي المنزل وحيًا، للدلالة على طبيعة الرسالة القرآنية في الأرض تأسيسًا وتجديدًا، بينما يبقى مصطلح « الحركة » تعبيرًا وضعيًّا مرتبطًا ببنيته التاريخية، وبمرجعيته المادية البشرية...، وما أرى العدول عن كلمات الرحمن إلى عبارات الإنسان في مجال ديني تعبدي محض، إلا ضربًا من التحريف المفهومي لمقاصد القرآن. الأنصاري، الفطرية (ص ٢٧، ٢٨).

إذ (الحركة الإسلامية تشتغل حول النص بينما دعوة الإسلام تشتغل بالنص وفي النص وتدعو إلى النص، فعملها مرتكز أساسًا على التعامل المباشر مع الوحي، (...) فالنص في الأولى شعار، وهو في الثانية مدار، يؤدي الدخول في محيطه إلى ابتلاء عملي للنفس وسلوك تطبيقي في المجتمع. والاشتغال « حول النص » قد يوهم أنه عمل بالنص وفي النص، بينما هو في الحقيقة مجرد رسم لأهداف إسلامية، لكن بسعي فكري وكسب بشري محض لا علاقة له بالنص. فالاشتغال للدين في المجال الدعوي لا يكون إلا بالدين؛ إذ لا يتم التوصل إلى غايته إلا بوسيلته. فهو الغاية والوسيلة معًا)[١].

٤ - مسح الطاولة وصدمة الصرح:

لم يتردد الدكتور فريد الأنصاري - رحمه اللَّه - في اختيار أقوى النعوت لوصف حال المشتغلين في حقل الدعوة، والحركة الإسلامية بشكل أخص، ولعل أوقع هذه النعوت على المسامع هو استعماله لعبارة « الاعتقادات الباطلة »، الذي وإن لم يقصد به المؤلف البعد العقدي المحض، فإنه يصعب على المتلقي المحايد - فضلًا عن المعني والمقصود - المرور على هذا التوصيف دون أن يشعر بوخز موجع. يقول في ذلك: (كثير منا سيحتاج إلى (...) مخاض فكري وروحي عسير من أجل التخلص من الاعتقادات الباطلة والفهوم الزائفة التي تراكمت على عقولنا وأهوائنا في تصور مفهوم العمل الإسلامي، وفي تصور معنى الدين. وذلك بما طال علينا من الأمد في حركاتنا وتنظيماتنا، ونحن نضرب خارج مدار القرآن العظيم دينًا ودعوةً، وبما ضربنا على أنفسنا بأنفسنا من حصار فكري (...) أغلب حجارته ومادته من الأباطيل)[٢].

---

(١) الأنصاري، الفطرية (ص ٣٣).

(٢) نفس المرجع (ص ٣٦، ٣٧). وانظر: أيضًا بعضًا من مواقف الأستاذ الأنصاري قبل هذه المرحلة الانتقادية، حيث يقول: (ولا أملك في ختام هذه الكلمات إلا أن أبشر الناس بأن الساحة العلمية والدعوية =

أضف إلى ذلك ما يمكن أن يفهم ويستنتج من اختيار الدكتور - رحمه اللَّه - لمضمون مدخل كتاب « الأخطاء الستة للحركة الإسلامية في المغرب »، والذي وسمه بالمدخل القرآني، أورد فيه الآيات الآتية:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ويرفع صاحب الفطرية صوته عاليًا في وجه العاملين في حقل الدعوة والحركات الإسلامية في العموم مناديًا: « إنكم قوم تجهلون ». والسبب الأكيد في ذلك - بحسبه - هو أن من هؤلاء العاملين للإسلام من « يريد الدنيا »، وهذا تأكيد من الأنصاري - رحمه اللَّه - على معنى الانحراف التصوري الذي أصاب الحركة الإسلامية، وقد يكون في هذا المدخل القرآني تعبيرًا قويًّا على هذا المعنى، حيث عضده المؤلف - رحمه اللَّه - وفصل مقتضياته باستعمال مصطلحات من قبيل: الاستصنام المنهجي، والشرك الخفي...، حيث يقول: (وقد تبين لنا (...) أن أغلب فصائل الاتجاهات الإسلامية بالمغرب في خياراتها التي نعدها اليوم أصول أخطائها المنهجية، قد وقعت في نوع من الشرك الخفي أو ما أسميناه « بالاستصنام المنهجي » (...)، أدى بأشكالها التنظيمية ذاتها إلى أن تصير حجبًا

= بالمغرب بخير، وإلى خير - إن شاء اللَّـه - وأنها إلى صعود لا إلى أفول، وكفى بالمستوى الراقي للفكر والحوار الذي تتميز به الحركة الإسلامية - كما يدل عليه هذا الكتاب - دليلًا على أنها إلى صعود مستمر، وما كان لحركة الإسلام المعاصرة إلا أن تتقدم، فما بدأت بعثة للدين الحق قط في التاريخ إلا أتمها اللَّـه، رغم ما يضغطها من كوابيس أعداء السلام والحرية، ولعل ذلك هو من الأسباب الجالبة للخير والرشد - إن شاء اللَّـه - ورغم ما تعانيه اليوم من اضطرابات داخلية في مفاهيمها وأدواتها معًا، بسبب حركة التجديد الداخلية والمراجعات المنهجية التي تعيشها، مما اقتضته طبيعة المرحلة الحالية التي تمر بها الحركة الإسلامية في العالم كله). أحمد الريسوني، الحركة الإسلامية المغربية صعود أم أفول؟ (ص ١٣، ١٤).

لها هي نفسها عن النظر إلى مقصد « إقامة الدين » في النفس والمجتمع، ذلك المقصد الكلي الذي رفعته شعارًا لها من يوم ولادتها)[١].

ومن أجل بيان الصورة وإيضاح الفكرة يذهب الأنصاري - رحمه اللَّه - إلى تشبيه الحركة الإسلامية بما وقع لبلقيس ملكة سبأ من صدٍّ وحجبٍ عن إدراك الحقيقة أول الأمر، بسبب الحُجُب الشركية التي كانت تسكن عقلها؛ لذلك (فلا خلاص للحركة الإسلامية إلا « بصدمة صرح »من نوع آخر (...)، تخرجها من أوهامها، وتحطم الأصنام المنتصبة في مخيلتها (...)، إنما هي صدمة تفقهية، وذلك بدخول علمي تعبدي صادق إلى صرح القرآن العظيم، وبياناته النبوية الواضحة من خلال قواعد العلم ومواجيد الإيمان، ثم عرض اختياراتها الاستراتيجية على موازينه، لإدراك مدى الفرق الرهيب بين الحقيقة والتمثيل)[٢]. الحقيقة بما هي تجربة مكابدة القرآن بالقرآن وللقرآن، وعدم الاستعاضة عنه بمخاييل الاستواء على الصراط المستقيم، بابتداع الأساليب التنظيمية غير القرآنية الدائرة حول القرآن، « المتوهمة »عملها بالقرآن وللقرآن.

إن هذه الخلاصات التي سطرها الأنصاري لم تكن لتمر على العاملين في حقل الدعوة دون أن يرفعوا عقيرتهم دفاعًا عن سلامة تاريخهم، وتصوراتهم من مثل هذه « الخوارم » بحسب بعضهم[٣]؛ لأنه غير معني بالزمن بقدر ما هو معني بالتصور والمنهاج؛ لذا فهو يرى أنه قد آن الأوان فعلًا لمراجعة مسيرة هذه الحركات، التي فشلت في الإجابة على سؤال « الإصلاح الوجداني »؛ لأن (الوجدان أو القلب بمفهومه القرآني لا العاطفي هو مناط الإصلاح الديني في الإسلام، وهو الذي منه تنبع - على الحقيقة - المواقف والتصورات والتصرفات (...)، وهذا الأمر لا تصل إليه الحركات الإسلامية بمناهجها الشكلانية هذه،

(١، ٢) فريد الأنصاري، الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب (ص ١٦ - ١٨).

(٣) انظر: ردود الدكتور الريسوني، وكذا الحمداوي على سبيل المثال.

فالوجدان لا يصنع إلا في مختبرات الدين، بما هو دعوة إسلامية بالدرجة الأولى، ومن هنا تكون الحركة الإسلامية عملًا محدودًا بحدود اجتهادية وتنظيمية وبشرية. إنها تصور بشري وضعي ذو أصول علمانية، لمنهج العمل في ترجمة قيم الدين ومقاصده، وهما أمران لا يجتمعان)[١]. (وعليه فإننا نحسب أن الحركة الإسلامية في صيغتها التقليدية هذه، قد استنفدت أغراضها أو بالتعبير الأدق هي على وشك ذلك)[٢].

إن التناقض الصارخ الذي يراه صاحب الفطرية يكمن إذن في توسل الحركة الإسلامية لأواليّات بشرية علمانية، مع العلم أن من بين ما تعنيه العلمانية استبعاد الدين والخطاب الديني عن الشأن الزمني الإنساني الدنيوي، فكيف الجمع بين الاستبعاد والاستدعاء، وبين المحاربة والمناصرة؟

٥ - الحركة الإسلامية وتحدي الخطاب:

سعيًا لتلمس السيرورة التاريخية للحركة الإسلامية، وبغض النظر عن الخلاصة التي أثبتها المؤلف، يمكن ملاحظة السمات المميزة للنموذج الأول للحركة الإسلامية، التي أثبتت قدرتها النسبية على مقاومة التحولات المتتالية التي طرأت على الساحة العربية والإسلامية، إنْ على مستوى مناهضة حالات الاستعمار المتفشية على امتداد الخريطة العربية والإسلامية للقرنين التاسع عشر والعشرين، أو على مستوى التدافع الداخلي بصوره المختلفة، السياسية منها والاجتماعية والثقافية والعقدية.

إن مياهًا كثيرةً جرت تحت الجسر، لكن المكون الإسلامي ظل حاضرًا يتراوح بين الأفول والصعود، التراجع والتقدم، الظهور والضمور، يحافظ على سمة الوجود والبقاء.

---

(١) الأنصاري، الفطرية (ص ٧٤).

(٢) نفس المرجع (ص ٧٥). يقصد بالصيغة التقليدية الصورة الحزبية.

وينضاف إلى هذا المشهد سعي الغرب صاحب المشروع الحضاري المناقض، إلى تبئير المكون الإسلامي، حتى يبقى هو مركز السياسات الاستراتيجية، ومصدر إنتاج المقولات المفهومية التي أطرت وتؤطر العلاقات الدولية، وتحدد قرارات الحرب والسلم عبر المصطلح المفتاح، مصطلح « الإرهاب » وما ارتبط به من مفاهيم الحروب الاستباقية، ومكافحة الإرهاب، وعولمة الإرهاب...

عبر هذا المسار التاريخي الطويلة عرف التنظيم بمفهومه العام تحولاتٍ فكريةً ومنهاجيةً، تطورت وتحولت للإجابة على التساؤلات الوجودية لكل مرحلة، فكانت بدايتها مع السؤال الدعوي الملح، ثم بعد ذلك تطور إلى الأبعاد السياسية المنظمة للعلاقة مع الأطراف المشكلة للمشهد السياسي الداخلي، وكذا صياغة أطروحات سياسية تجيب على تحديات الصراع الدولي، وعلى رأسها أم القضايا بالنسبة للحركة الإسلامية، إنها قضية فلسطين.

لقد كان لهذا التحول في الخطاب الإسلامي ما بعده، حيث عكست مراحل التطور هاته الانتقال من خطاب دعوي تربوي وعظي صرف، إلى خطاب سياسي اجتماعي بأساس تربوي أخلاقي يلامس قضايا الواقع، خطاب يدعو إلى البحث عن مقدار النضج والرشد فيه، وخاصةً ما يرتبط بالبعد النظري والمراجعة النقدية.

إن قطاعًا واسعًا من المتتبعين للشأن الإسلامي يرى أن الحركات الإسلامية لم تحقق ما يكفي من التراكمات النوعية، للإجابة على التحديات المستحدثة والأسئلة الكبرى لكل مرحلة، « ولعل ذلك كان بسبب تعقيد الظروف والأحوال والتشريد والفتنة بكل أنواعها ».

لذلك ترى الطبيعة الفكرية لمعظم القيادات السابقة سيادة فكر التحصن والصمود والمواجهة، وسادها الفكر التعبوي، وجاء إنتاجها الفكري - في الغالب - كرد فعل لما تعاني، مما يمكن أن نطلق عليه « فكر الأزمة »، وكذلك

بروز اتجاهات فقهية وتقنينية وعقدية في التيارات الإسلامية، وانحسار المنظور الحضاري، وضعف الاهتمام بقضايا الصراع الفكري، وإحساس الكثيرين من العاملين في الحقل الإسلامي بعدم الحاجة إلى الاجتهاد والإبداع، وأنه ما ترك السابق للاحق شيئًا، كل هذا وكثير غيره أدى إلى تضاؤل دور الكسب الفكري في توجه هذه الحركات، وفي البناء الثقافي لها؛ ولذلك فإن معظمها ينظر إلى القضية الفكرية والأزمة الفكرية على أنها ترف فكري، أو خطأ في تشخيص أزمة الأمة، أو تجاوز لوسائلها التنظيمية ونظمها الحركية[١].

إن ما عُبر عنه بالكسب الفكري قد لا يكتسي أهميته في ذاته فحسب، بل في آفاته الخطيرة إذا ما عطل وتوقف عن أداء وظيفته الاستشرافية، وكذا في صياغة التوجه العام للمبادئ الكبرى للخطاب المبشر بالإصلاح.

ومما قد يكون مسهمًا في تزايد حدة هذه الأزمة الفكرية الانشغال المتزايد بالحقل السياسي، على حساب الأساس التربوي والدعوي، على الرغم من أن العمل السياسي ليس من الأصول في التشريع الإسلامي كما قرر ذلك الأنصاري - رحمه اللَّه -. فـ (إذا كان الدين - من حيث هو نصوص وتشريع - لا يعير للعمل السياسي في إطار التعبد - وإنما الدين تعبد - إلا هامشًا تبعيًّا غير أصيل، فكيف (تسيس) العمل الإسلامي المعاصر في كثير من صوره، حتى كانت له ردود أفعال ذات طابع عنيف على شاكلة (العنف الثوري) الوارد في الأدبيات الماركسية؟

إن تساؤلنا هذا ليس بمعنى استشكال كون العمل الإسلامي قد انخرط في العمل السياسي، وصار له وجود على الساحة الانتخابية (...)، وإنما استشكالنا مبني على كونه يعتمد العمل السياسي هدفًا وغايةً)[٢].

مما يعيد طرح مبدأ الأولويات وترتيبها بحسب التصور القرآني للإصلاح

---

(١) طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي (ص ٥٧).

(٢) فريد الأنصاري، البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي (ص ١٣٣).

الشامل، وضرورة التعامل مع البعد السياسي بمقدار حجمه داخل هذا التصور. **خاصةً وأن للخطاب السياسي سمات يمكن إجمالها في ثلاث على الأقل:**

- **ملحٌّ ضاغط**، إذ يعتمد أساسًا على إبراز الآراء، وإعطاء المواقف، وإصدار الأحكام بخصوص قضايا آنية ولحظية ومعاشة، مما يستوجب قدرةً كافيةً على المواكبة اليقظة التي وقودها الجهد الكبير والوقت الكثير.

- **مستقطبٍ مثير**، بحكم ملامسته لقضايا تهم شرائح واسعةً من المجتمع، إذ يستجلب قطاعاتٍ عريضةً من الناس، قد لا يكونون حاملين بالضرورة للأفكار المبشَّر بها عند البدء، وهو ما يقتضي استيعابًا شاملًا وواعيًا، تفاديًا لبروز أفكار مناقضة أو ناسفة للمبدأ الأصلي.

- **مَوْئِل الخلافات**، حيث ارتبط الخطاب السياسي دائمًا بمصالح فكرية أيديولوجية، أو مادية اقتصادية، أو بالرغبة في الحفاظ على مراكز النفوذ والسلطة، مما يستدعي ثقافةً عميقةً من تدبير الخلاف، ومكنةً في توجيه الدفة دومًا صوب المصلحة العامة.

وبهذا استطاع الخطاب السياسي، أن يظهر الحركة الإسلامية بحجم قد يفوق حجمها الحقيقي، مما يغري البعض بغنائم قريبة يمكن أن تؤثر على الأهداف الاستراتيجية التي صيغ من أجلها الخطاب، وهكذا ينسحب ذلك على الخطاب السياسي المشارك والفاعل في الواقع بشكل مباشر، كما ينسحب على الخطاب السياسي المعارض والمنكفئ المراقب للواقع على سبيل النقد والترشيد.

ولئن حاز هذا الطرح بعض التفهم والقبول لدى قطاع من الفصائل الإسلامية، فإن الربط شبه الحتمي بين الاهتمام بالعمل السياسي وأولويته من جهة، والتوجه الثوري العنيف من جهة أخرى، لم يجد ما يدعمه من التجارب الواقعية للحركات الكبرى في العالم العربي، التي تأسست اجتهاداتها السياسية على توافق مبدأي الشورى والديمقراطية، ثم نبذ العنف وسيلة لفرض الآراء والاجتهادات السياسية.

ومهما يكن، فبالنظر إلى العمر القصير نسبيًّا للحركة الإسلامية بالمغرب، فإنه قد يصعب الخروج باستنتاجات مرجحة وجازمة بخصوص خطابها السياسي، إلا أنه يمكن الإقرار بنوع من التطور الهادئ، الموسوم بشيء من التعثر والبطء، إذ إن أهم ما يميزه تمحوره حول الهوية بالحفاظ عليها، وتثبيتها من خلال المدخل الأخلاقي والتربوي، بالإضافة إلى الارتباط بقضايا الأمة الكبرى، خاصةً بعد الاستفراد الأمريكي بزعامة العالم من خلال وضع مخططاتٍ تعيد تشكيل خارطة العالم الإسلامي، بدءًا من أفغانستان شرقًا، إلى المحيط الأطلسي غربًا، مرورًا بفلسطين والعراق وسوريا وإيران، وذلك لضمان الاستقواء المطلق للكيان الصهيوني في المنطقة.

٦ - أي بقاء، وبأي ثمن؟

يبدو أن جبهات بهذا التضخم والتنوع لا تحتاج فقط إلى قدرة كبيرة على قوة التحدي وطول النفس، بل تحتاج إلى ما هو أهم من ذلك، إنها القدرة على التجديد المستمر، والتحديث الدائم الذي لا يكتفي بالحفاظ على الثوابت والمبادئ الكبرى، بل يفتح آفاقًا جديدةً ومساحاتٍ للاشتغال واسعةً لم تكن مطروقةً ولا معلومةً من ذي قبل.

وقد قضت سنة اللَّه في خلقه أن يكون الخطأ جبلة في الإنسان، وكذا في التنظيم والجماعة، إلا أن تتمتع بالعصمة المستمدة من حالة التيقظ لدور التصويب والتقويم. فهل تصل حركة التصويب والتقويم إلى ضرورة الهدم والنقض التامين بدءًا بالأسماء والأشكال، ثم إعادة البناء من جديد على أسٍّ جديد؟ إنه الأمر الوجودي الذي يعيد إنتاج السؤال البدائي: هل يجوز أن يتجه السؤال إلى هوية الابتداء والتأسيس؟ أم إلى تقييم التراكم التاريخي والاجتهادي طيلة عقود؟

ويبدو أنه بعد استعراض الدكتور الأنصاري لمفهوم الحركة الاجتماعية من خلال كتاب «المقاومة المدنية» وغيره، يخلص إلى دحض مفهوم «الحركة»

عنوانًا للعمل الإسلامي، لما يحمله هذا المصطلح من تبعات دلالية وخلفيات أيديولوجية، حيث يقول: (ذلك هو مفهوم « الحركة » في المجال الاجتماعي كما ظهر في سياق الصيرورة الغربية الحديثة، ولا غبش في أن الخلفية المادية العلمانية واضحة فيه جدًّا، (...) ثم إن مصطلح « الحركة » متهم بتضخيم بعض معاني العمل الإسلامي على حساب بعض؛ لتضخيمها عند أصحابها أصلًا من واضعي المصطلح في منظومته الغربية، كما أنه بتجويز وسائل للعمل قد لا تقبلها - كليًّا أو جزئيًّا - أحكام الشريعة إلا باستصلاح أو (أسلمة) كما يعبرون اليوم)[1].

وسيرًا على درب النقد المسؤول البناء، لم يكتف صاحب الفطرية بتوضيح « عورات » الحركات الإسلامية، وبيان فساد أسسها التي تكاد لا تقوم على شيء، بل دعا إلى بديل يكمن في الأوبة إلى ما وصفه بالتنظيم الفطري، وهو الآلة الإجرائية للمفهوم النظري للفطرية، التي لا تنفي ضرورة التنظيم وإلحاحيته، ولا تدعو إلى الارتجال والفوضى، بل هو بديل عما أسماه الأنصاري - رحمه اللَّه -، بالتنظيم الميكانيكي. ذلك بأن (التنظيم ذا الطبيعة الميكانيكية، كما اعتمدته أغلب الحركات الإسلامية المعاصرة صار إلى ما ذكرناه من الحزبية الضيقة، إذ آل أمره إلى محاصرة الدعوة الإسلامية حصارًا ذاتيًّا. كيف الحل إذن؟ إنه الوسط، الوسط دائمًا حلٌّ لكل انحراف سببه الغلو؛ ولذلك جعلنا تسمية هذا المعلم بـ « التنظيم الفطري » تحرزًا عن التنظيم الحزبي أو الميكانيكي.

إن التنظيم الفطري هو النسق الديني الجميل الذي ينظم العبادات والمعاملات، وسائر بنى المجتمع في الإسلام، كما يتجلى ذلك مثلًا في الصلاة والجمعة والجماعة.

فالتنظيم الفطري عمل ديني محض، غاية ووسيلة (...) إنه إذن تنظيم الإسلام، من حيث هو دين للإنسان فردًا أو جماعةً (...) فهيكلته هي هيكلة الشريعة نفسها،

---

(١) الأنصاري، الفطرية (ص ٣٠، ٣١).

وإدارته هي نسيج العلماء والدعاة والحكماء (...)، وسائر المتفاعلين مع نُظم الإسلام دينًا ودعوةً.

فالتنظيم الفطري دين بذاته؛ ولذلك لم تكن الدعوة إليه وبه إلا عبادةً للَّه رب العالمين، وأما الميكانيكي فالدعوة به مغامرة، إذ كثيرًا ما تنجر بصورة تلقائية إلى الدعوة إليه وهو ليس بدين في ذاته، بل هو عمل بشري محض (...)، فدع بصائر القرآن العظيم تصنع خريطتها الفطرية في المجتمع، كل المجتمع)[١].

وبين جدلية الدعوة إلى اللَّه والدعوة إلى التنظيم، تباينت المواقف والآراء، وقد نهض كل ذلك سببًا لإصدار مواقف واضحة تنفي عن الحركة الإسلامية هذا الانزياح التصوري والمنهاجي، وفي ذلك يقول الدكتور أحمد الريسوني - أحد القيادات الإسلامية بالمغرب -: (لا أظن الحركة الإسلامية هي مجرد دعوة إلى التنظيم، لا، هذا غير صحيح، الحركة الإسلامية قد تكون دعوةً إلى العمل بالتنظيم، دعوة إلى العمل من خلال التنظيم، وعلى هذا الأساس لا أحد مسلمًا أو غير مسلم أو مسلمًا من هذا النوع أو من هذا النوع يمكن أن يجادل في أهمية التنظيم وفائدته وقدرته على الصمود وعلى تجميع الطاقات (...) فمن هذا الباب إذا دعونا إنسانًا ليعمل عملًا منظمًا، فهو كالذي يدعونا إليه المؤذن حينما يدعونا إلى المسجد وإلى إقامة الصلاة جماعيًّا وفي صفوف منظمة، فهو لا يدعو إلى المسجد، ولا إلى الصفوف، ولا يدعو إلى نفسه، ولا إلى إمامه، ولا يدعو إلى المكان الذي هو فيه، وإنما يدعو الناس إلى طريقةٍ يجتمعون فيها، وينتظمون فيها، وينظمون أمرهم فيها، ويقفون وراء إمام لهم، فهذه هي العملية بكل بساطة!!)[٢].

قد يكون هذا الطرح صحيحًا ومقبولًا من الناحية المبدئية والنظرية، ولكن ذلك لا ينفي بعض الانحرافات الفكرية المتجسدة في أن بعض منتسبي هذه الحركات

---

(١) الأنصاري، الفطرية (ص ١٦٠ - ١٦٣).

(٢) أحمد الريسوني، الحركة الإسلامية المغربية صعود أم أفول؟ (ص ٢٦).

يعاني قدرًا من البلبلة والخلط بين الغايات والوسائل، وكثيرًا ما نلاحظ أن مصلحة الجماعة أصبحت معيارًا للعمل والنجاح، رغم أن الجماعة ما هي في الحقيقة إلا وسيلةً لخدمة هدف إسلامية المجتمع، وقد أدى ذلك إلى انشغال الجماعة بنفسها أكثر من انشغالها بالمجتمع الذي تقوم من أجل إصلاحه وخدمته.

(لقد أصبحت الجماعة حزبًا مقدسًا لذاته، كما لو كان الحزب قد تأسس من أجل نفسه، الشيء الذي جعله لا يختلف أساسًا عن أي نادٍ رياضي أو جمعيةٍ تعاونية تقتصر خدماتها على أعضائها فحسب)[١].

مما يعني أن المبدأ التنظيمي العام في تجرده لا تختلف الآراء - رغم تباينها - على أهميته وضرورته لتنظيم الأعمال، وتحقيق نسب للإنجاز مقاربة للكمال، إنما الاختلاف في سلَّم الأولويات، وتحقيق المقاصد الأصيلة من العمل الإسلامي، أو الدعوة كما يقترح الدكتور الأنصاري.

ومهما يكن من اختلاف في وجهات النظر، وتباين في التقديرات الاجتهادية لكل الأطراف العاملة في الحقل الإسلامي، فإن هذا فضاء فيه متسع لجميع المبادرات، وفسحة لكل الأطروحات، إلا أن ما لا سعة فيه ولا فسحة غض الطرف عن النقد والمراجعة، والاستكانة إلى المعتاد من التقليد والاستتباع، واستسهال المعروف والمألوف.

إن تجديد المناهج وتعهد الفهوم والتصورات، لا يمكن اعتباره من المكملات التحسينية للأعمال الجماعية المنظمة، بل لا يمكن اعتباره إلا من صميم سيرورتها التطورية، وضمانًا لاستقامتها على أقوم السبل لتحقيق المبتغى والمأمول.

* * *
* *
*

---

(١) هشام الطالب، دليل التدريب القيادي (ص ٣١).

ملاحق الكتاب

وتشتمل على ما يلي:

الملحق الأول: مفهوم الفطرية.

الملحق الثاني: معجم بعض المصطلحات المرتبطة بالفطرية.

الملحق الأول

مفهوم الفطرية

(الفطريَّة مصدر صناعي أخذناه من الفطرة، وهو دال - بمصدريته تلك - على معنى دعوي، أي على « فعلٍ » واقع في الفطرة ومن أجلها، سواء في النفس أو في المجتمع، حدُّه إقامة الوجه للدِّين حنيفًا، خالصًا للَّه، وذلك بمكابدة القرآن ومجاهدة النَّفس به تلقيًا وبلاغًا؛ قصد إخراجها من تشوُّهات الهوى إلى هدى الدِّين القيِّم، ومن ظلمات الضَّلال إلى نور العلم باللَّه. وأما أركانه فهي الإخلاص مجاهدةً، والآخرةُ غايةً، والقرآن مدرسةً، والربانية برنامجًا، والعلم طريقةً، والحكمة صبغةً.

والفطريَّة عملية إصلاحية وجدانية، تقوم أساسًا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلًا على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوهات تصورية وسلوكية في شتى امتداداتها العمرانية، وهي دائرة من حيث المنهج على تلقي رسالات القرآن، من خلال تلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية مَنْزِلَةً مَنْـزِلَةً، إذ لا تَخَلُّقَ للنفس إلا بمعاناة، ولا تخلُّص لها من أهوائها إلا بمجاهدة. فالقرآن هو خطاب الفطرة، من حيث هي راجعة إلى « إقامة الوجه للدين »، وقد كان ذلك - منذ كان - بتلقي آيات القرآن، وما تجدد قط في التاريخ إلا بتجديد التلقي لها بناءً وتربيةً وتثبيتًا، على مُكْثٍ من الزمان، ذلك هو المنهج الدعوي الأصيل الذي يصرح به القرآن، وتلك هي الحكمة الأولى من تنجيم القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة.

والمصطلح المفتاح لمنهج التعامل مع القرآن في مدرسة « الفطرية » هو مصطلح « التلقي »؛ لأن التربية القرآنية في مجالس القرآن لا تكون إلا بتلقي الرسالات الكامنة في الآيات، تلك الرسالات هي التي تتضمن حقائق الإيمان

المقصودة بالتخلق والتحقق، في طريق الدعوة والسير إلى اللَّه صلاحًا وإصلاحًا. فمن قرأ سورة الإخلاص ولم يتخلق بالإخلاص، ولا هو تحقق به، فمعناه أنه لم يَتَلَقَّ سورةَ الإخلاص، ولا هو ممن تلاها حقًّا، ولو ظل يرددها آلاف المرات. وكذلك من قرأ المعوذتين ولم يتحقق بما فيهما من أمان، ولا نزلت عليه سكينتهما، فإنه لم يتلق شيئًا من السورتين. ومن قرأ سورة الفاتحة ولم يجد نفسه قد تخلق بالحمد، ثم اندرج بمدارج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] طلبًا لهداية الرضا والتثبيت، فإنه لم يتلق الفاتحة بعد.

بهذا المنهج إذن تتلقى عزيمتُك رسالةَ الكلمات، فتشعر بمعاناتها، ويتلقى قلبُك هدايةَ الآيات، فيشعر بمكابداتها، وتجد نفسَكَ أنك تترقى حقيقةً بمدارج الإيمان، تشاهد ذلك وتبصره، فلا يمضي عليها إلا وقت وجيز حتى تراها قد تحولت إلى منزلة أعلى من منازل الصلاح والإصلاح، فتتحول المعاناة إلى لذة، وتصير المكابدة إلى حلاوة، ويصير الخوف إلى أمان)[١].

(والفطرية محاولة لإعادة بناء النفس على ما بُنيت عليه أول ما خُلقت، وقد كان أول بنائها على الفطرة، وقد سبق أن أصل الفطرة الإنسانية إنما هو إخلاص التوحيد للَّه رب العالمين، فكان مدارُ الفطرية - دعوةً وتربيةً - إنما هو على إفراد اللَّه ﷻ بالعبودية، وحده دون سواه، ونبذ سائر ضروب الشرك والشركاء ظاهرًا وباطنًا.

وتتميز الفطرية بأنها تجعل لكل حقيقة من حقائق الدين ما جعله اللَّه لها من الحجم والقَدْرِ، في الصورة الكلية للإسلام دينًا ودعوةً؛ لأن ذلك من خصائص الفطرة، ومن صفاتها الذاتية، بما هي الهيأة الأولى للدين، قبل أن يصيبها التغيير والتحريف، حيث كانت الصبغة العامة للفطرية هي القرآن، بما هي قائمة أساسًا

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٠٥ - ١١٠).

على تلقي رسالات القرآن، سواء عبر برامج الربانية أو عبر مجالس القرآن. وقد تبين ألا إمكان لإصلاح الفطرة الإنسانية إلا بالقرآن؛ لأنه إنما أُنْزِلَ أساسًا لهذا القصد الرباني العظيم. فالقرآن هو كتاب إصلاح الفطرة الإنسانية وصيانتها، ومن هنا كانت الفطرية مدرسة قرآنية بالدرجة الأولى، لا مكان فيها للخرافية، ولا للأهوائية الشخصانية.

لذلك وجب أن تحمل رسالات الفطرية لكل المسلمين الحد الأدنى من العلم الشرعي، الذي لا يُعبد اللَّه إلا به عقيدةً وشريعةً، وذلك هو المسمى عند العلماء بـ« المعلوم من الدين بالضرورة »، أو « ما لا يَسَعُ المسلمَ جهلُه ». ثم تحرض - في الوقت نفسه - نبغاء الشباب على تحقيق واجب الوقت من التفرغ لطلب العلم الشرعي، بشروطه التخصصية؛ وذلك لمد الأمة بأجيال العلماء الربانيين، على ما بيناه في كتابنا « مفهوم العَالِمِيَّةِ ». فذلك هدف استراتيجي، وجب أن يكون عمودًا فقريًّا في كل مشروع دعوي، انتصب لتجديد الدين بصدق وبجدية، إلى جانب الحكمة بما هي صمام الأمان لسير العمل الدعوي.

كما وجب على الداخل في مدرسة الفطرية أن يحرص على التحقق بأسباب منزلة العلم الرباني، والتخلق بشروطها؛ عسى أن يكون من أهلها، ولو على مستوى المنهج في المجال الدعوي، إن لم يكن من أهل الاختصاص الشرعي والاجتهاد الفقهي. ومدرسة القرآن - بما هي مَشْرَبٌ رباني صافٍ - كفيلة بتحقيق ذلك للصادقين من طلابها، بما يجعل الحكمة صفةً جوهريةً في التصرفات الدعوية لأبنائها)[1].

(وأما المسالك التربوية للفطرية فثلاثة، وهي مجالس القرآن لتلقِّي حقائق الإيمان، وبلاغ رسالات اللَّه بدعوة الناس إليه، ورباطات الفطرية. وهي مَسَالِكُ

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١٠ - ١١٥).

تربويةٌ لتجديدِ بناءِ الفطرة، عبر مجموعة من المسالك التعبدية التي تقود العبد إلى اللَّه، فتقوِّم ما شاه من أخلاقه وطباعه، وتُصلح ما فسد من مزاجه وأفكاره؛ ليستقيم على خالص فطرته، وصفاء سريرته، عبدًا خالصًا لله، ثم ترتقي به عبر مدارج الربانية إلى أن يتخلَّق بمقام الصِّدِّيقيَّة ويتحقَّق به.

فالدخول في مجالس القرآن، بما هي مجالس تربوية لتلقِّي آيات القرآن، والتخلق بأخلاقها وبحقائقها الإيمانية، والتحقق بها تعلمًا وتعليمًا، وتدبرًا ومدارسةً، فتقوم على وظائف النبوة الثلاث، التي هي التلاوة بمنهج التلقي، والتزكية بمنهج التدبر، وتعليم الكتاب والحكمة بمنهج التدارس.

على أن المسلك يلحق به فرع أصيل، وهو مجالس قرآنية لتخريج الدعاة القائمين على مجالس القرآن في الناس، والمؤطرين لها، يعتمدون فيه برنامجًا تربويًّا خاصًّا، منتقى من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

أما بلاغ الرسالات، فهو راجع إلى واجب الالتزام الدعوي للإنسان المسلم، ومنه كان المجتمع الإسلامي كله جماعةً دعويةً بطبيعته، وحياةً إصلاحيةً بفطرته، مادته ما ذكرناه من أصول الرسالة القرآنية، وبلاغات القرآن من اكتشاف القرآن العظيم، والتعرف إلى اللَّه والتعريف به، واكتشاف الحياة الآخرة، واكتشاف روح الصلوات وحفظ الأوقات، وحقيقة الدعوة إلى الخير، وحكمة اتباع السنة تزكيةً وتعلمًا وتحلمًا، وكل ذلك مفاتيحه في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، وتلك هي وظيفة مجالس القرآن.

وأما رباط الفطريَّة، بما يتضمنه من صلوات وأوراد معنوية؛ للتغذية الفردية، وما يلزم عن ذلك كله من فعل الصالحات وترك الموبقات، فهو أعمال واجبات، وتروك لازمات، وأذكار مندوبات، مما صح أن الرسول ﷺ التزمه وداوم عليه. فالرباط الفطري هو معراج المؤمن الدائم إلى اللَّه، وحصنه المنيع من كل فتنة

أو آفة؛ ولذلك فهو يتضمن بالأساس، أفعالًا واجبةً وأخرى محرمةً - من المعلوم من الدين بالضرورة - يلتزمها المؤمنُ فعلًا وتركًا أبدًا، على أنها أذكار معنوية تذكِّره أبدًا باللَّه؛ إذْ لا يصح سيره إلى اللَّه إلا بها. والغايةُ منه إنما هي إصلاح صورة النفس بتهذيبها وتشذيبها، وكذا تزكيتها بتغذية لطائفها؛ حتى تعود إلى أصل فطرتها)[1].

* * *
* *
*

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١١٥ - ١٢٠).

الملحق الثاني
معجم بعض المصطلحات المرتبطة بالفطرية(*)

- **الإنسان**: الإنسان المقصود بالدعوة الفطرية نوعان: إنسان فاعل، وإنسان متفاعل.

فالإنسان الفاعل: هو العالِم الرباني الحامل لرسالة القرآن، الفقيه المجدد، الداعية الحكيم، فخطابه هو على وزان خطاب القرآن عام شامل، يحمل إلى المجتمع - بكل شرائحه وطبقاته - كليات الدين، وأصوله الإيمانية والعملية، وقيمه الأخلاقية، تلاوةً وتزكيةً وتعليمًا؛ ولذلك كان هو الإنسان المركزي في دعوة الفطرية.

وأما الإنسان المتفاعل: فهو الإنسان المتلقي لخطاب الدعوة عن الإنسان الفاعل، ليحملها باعتباره فاعلًا أيضًا، لكن في مجال متخصص محدد، كالمجال التعليمي، أو المجال الإعلامي، أو المجال الاقتصادي، أو السياسي... إلخ. فالإنسان المتفاعل إذن هو: إنسان التعليم، أو إنسان الإعلام، أو إنسان المال، أو إنسان الاقتصاد، أو إنسان السياسة(١).

- **بعثة التجديد**: دعوة كلية تعيد صياغة الإنسان من خلال استعادة إنتاج التنزيل القرآني بمنهجيته التربوية الربانية الشاملة بوعي علمي راشد، قوامه الفقه في الدين بمعناه الكلي بتوجيه من العلماء والحكماء، يهدف إلى تحرير الإنسان قبل تحرير السلطان، وإلى تحرير الوجدان قبل تحرير الأوطان (٢).

(*) يحتاج كتاب الفطرية للدكتور فريد الأنصاري إلى جرد تام، وكامل لكل المصطلحات التي اعتمدها بمعانيها، وضمها في كتاب مستقل، يكون ثمرةً مسهمةً في التعريف باهتمامه المصطلحي.

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٤١).

(٢) نفس المرجع (ص ٧٢).

- **بعث الثقافة الفقهية التراثية**: بعث المفاهيم والمصطلحات الضرورية في العلم، وتجديد تداولها؛ ذلك أن دروس معاني المصطلحات الفقهية وضياعها، هو مما يسبب غاية الاختلال في الفهم والانحراف في التطبيق(١).

- **التداولية (تداول القرآن)**: الاشتغال الشامل بالقرآن الكريم، الاشتغال الذي يعمر الحياة حتى يطغى على كل شيء سواه تلاوةً، وتعلمًا، وتدارسًا، وتدبرًا، وتزكية، إلى أن يفشو ذلك فشوا بين سائر فئات المجتمع وطبقاته، بما يؤسس تربيةً قرآنيةً تعبديةً واجتماعيةً، تقوم بين الناس بصورة تلقائية؛ مادةً ومنهجًا، تبث قيمَ القرآن وأخلاقَه بينهم بثًّا يتغلغل في الأنفس، ويتسرب إلى أنسجة المجتمع الداخلية، وخلاياه الشعورية واللاشعورية، بما يجعل مفاهيم القرآن متحكمةً في صيرورته، وفي حركته التاريخية. فيصبح القرآن بذلك هو « محرك الإصلاح » و « دينامو » العمل الدعوي، القائم على المنهاج النبوي الحق(٢).

- **التلقي**: تلقي القرآن هو استقبال القلب للوحي، إما على سبيل النبوءة، وإما أن يكون تلقي القرآن بمعنى استقبال القلب للوحي على سبيل الذِّكْر، وهو عام في كل مؤمن أخذ القرآن بمنهج التلقي(٣).

- **التنظيم الفطري**: عمل دعوي يجمع بين التلقائي وبين التوجيه، كما يجمع بين البساطة وبين العمق، وهو عمل تعبدي بذاته، ومسلك إيماني بطبيعته؛ ولذلك فهو يقوم على ركنين أساسين، الأول منهما: بشري، وهم حُمَّال الدعوة من الفاعلين فيها والمتفاعلين معها. والثاني: معنوي، وهو الإطار الروحي التداولي للرسالات الدعوية(٤).

- **الحركة**: تيار سياسي منظم فكريًّا وبشريًّا، يناضل من أجل فكرة محددة؛

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ١٧٦).
(٢) نفس المرجع (ص ١٥٠).
(٣) نفس المرجع (ص ١٠٨).
(٤) نفس المرجع (ص ١٦٣).

لتغيير وضع معين بأساليب سياسية في الغالب، لكنها قد تتطور إلى أساليب عسكرية أو ثورية دموية[١].

- **الحكمة**: حسن التقدير والتدبير، واتخاذ الإجراء المناسب في الوقت المناسب بالقدر المناسب، وجودها صمام أمان، وغيابها هلاك وانحراف، فهي تُحقَّق بأمر كسبي أي الفقه في الدين بمعناه المنهجي (تحقيق المناط)، وبأمر وهبي أي التخلق بمقامات التقوى والورع[٢].

- **الدعوة**: تعبير إلهي منزل وحيًا؛ للدلالة على طبيعة الرسالة القرآنية في الأرض تأسيسًا وتجديدًا[٣].

- **رباط الفطرية**: هو أعمال واجبات، وتروك لازمات، وأذكار مندوبات، مما صح أن الرسول ﷺ التزمه وداوم عليه. فالرباط الفطري هو معراج المؤمن الدائم إلى اللَّه، وحصنه المنيع من كل فتنة أو آفة[٤].

- **الرباني**: هو العالِمي الداعية الحكيم، الذي يربي بصغار العلم قبل كباره. ولا يكون كذلك إلا إذا كان جامعًا للمعنيين، أي « عالِمًا باللَّه، عالِمًا بأمر اللَّه ». وهو معنى « الإمام ». ثم إن هذا وذاك لا يكون إلا بالدخول في ابتلاءات العمل بكلمات اللَّه، والاستجابة الصادقة لرسالاته قولًا وعملًا، وهو يتجلى أول - ما يتجلى - في صلاة العبد وخشوعه[٥].

- **الربانية**: مرتبة الإمامة في مجاهدة النفس بالقرآن على الالتزام بحقائقه الإيمانية، والتخلق بحكمته الرحمانية، إخلاصًا للَّه أولًا؛ حتى تفنى في دعوتها عن كل حظوظها، فلا يقوم شيء منها إلا للَّه وبه، ثم شهادة بذلك على الناس تربيةً ودعوةً، ثم صبرًا واحتسابًا[٦]. وهي معنى تربوي كلي، ومصطلح دعوي شمولي،

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٢٨).
(٢) نفس المرجع (ص ١١٤).
(٣) نفس المرجع (ص ٢٨).
(٤) نفس المرجع (ص ١١٩، ١٢٠).
(٥) نفس المرجع (ص ٢٠٦).
(٦) نفس المرجع (ص ١٩٠).

يجمع بين دلالتين، الأولى: هي الانتساب إلى الرب - سبحانه - بتربية القلب على توحيد اللَّه وتفريده، خشيةً وخشوعًا ومحبةً، ومجاهدةً للنفس في سبيله، بتخليتها من باطن الإثم، وذلك هو « العلم باللَّه ». والثانية: هي الانتساب إلى الرَّبَّاني، وهو قائد السفينة، وهو معنى الإمامة الدعوي[١].

- **الرحم**: بالمعنى اللغوي: الغشاء البطني الداخلي الذي يحتضن الجنين في بطن أمه. والرحم في السياق التشريعي: مجموع العلاقات الشرعية التعبدية، التي تنشأ عن الزواج الشرعي، وعما يترتب عنه من نسل، وهي علاقات الأبوة، والأمومة، والبنوة، والجدودة، والعمومة، والخؤولة... إلخ. وهذه علاقات تعبدية، بمعنى أنها راجعة إلى اعتبار الشرع لها بالدرجة الأولى، لا إلى مجرد الاعتبارات الطبيعية والبيولوجية[٢].

- **سنن الاجتماع البشري**: سنن التاريخ أو قوانين العمران البشري هي سنن تحكم كل تجربة بشرية (الحركات والدول والحضارات)، بما هي حركة متولدة في التاريخ، محكومة بالسنن الربانية التي تحكم كل التجارب والمكاسب البشرية في المجتمع، فهي سنن ثابتة لا تحابي أحدًا، ولا تتحامل على أحد[٣].

- **العمران**: ليس المقصود بالعمران - في كتاب الفطرية - هو تخطيط البناء المادي وهندسته فحسب، وإنما المقصود به هندسته الحضارية الكامنة في الإنسان، التي كان بمقتضاها كما كان، إنه البناء بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس ونسيج اجتماعي[٤].

- **الفطرة**: هي الدين، وما الدين إلا وحي من اللَّه، وما الوحي إلا نص من كتاب اللَّه أو نص من سنة رسول اللَّه ﷺ، فآل أمر الدين كل الدين إلى أنه نص[٥]، وهي

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٢٠٦).

(٢) نفس المرجع (ص ١٧٣).

(٣) نفس المرجع (ص ٧٥).

(٤) نفس المرجع (ص ١٦٨).

(٥) نفس المرجع (ص ٣٣).

السر الكامن في قلب الروح، إنها الجوهر المكنون للخلق الإنساني، والسر المصون للوجود البشري، فهي أم اللطائف، ومرجع الأسرار في المعنى الوجودي لحقيقة « الإنسان »، بكمالها يكمل مفهوم الإنسان، وبنقصها ينقص معناه، وبانخرامها الكلي يخرج عن طبعه وحده إلى دَرَك المعنى البهِمِيّ لجنس الحيوان[١].

- **الفطرية**: مصدر صناعي من الفطرة، وهو دال - بمصدريته تلك - على معنى دعوي، أي على « فعلٍ » واقعٍ في الفطرة ومن أجلها، سواء في النفس أو في المجتمع، ومن هنا سككناه مصطلحًا نعبر به عن مشروع دعوي عام، وعن تصور كلي للعمل الإسلامي. وحدُّها إقامة الوجه للدين حنيفًا، خالصًا للَّه؛ وذلك بمكابدة القرآن ومجاهدة النفس به تلقيًا وبلاغًا؛ قصد إخراجها من تشوهات الهوى إلى هدى الدين القيم، ومن ظلمات الضلال إلى نور العلم باللَّه.

فبناءً على هذا التعريف تكون « الفطرية » بمثابة عملية إصلاحية وجدانية، تقوم أساسًا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلًا على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوهات تصورية وسلوكية، في شتى امتداداتها العمرانية[٢].

- **الفقه**: المقصود به المعنى المصدري للفظ لا الاسمي، أي الفقه من حيث هو حركة عقلية، ونشاط ذهني بالقصد الأول، ينتجها العقل المسلم[٣].

- **الوجدان أو القلب**: بمفهومه القرآني لا العاطفي، هو مناط الإصلاح الديني في الإسلام. وهو الذي منه تنبع - على الحقيقة - المواقف والتصورات والتصرفات، والذي عنه تنشأ العلاقات الأفقية والعمودية، التي هي أساس بناء النسيج الاجتماعي في صلة الإنسان بربه، وفي صلته بأخيه الإنسان، على سائر المستويات العقدية، والتعبدية، والاقتصادية، والسياسية، والعمرانية[٤].

---

(١) فريد الأنصاري، الفطرية (ص ٩٥).
(٢) نفس المرجع (ص ١٠٥).
(٣) نفس المرجع (ص ١٧٦).
(٤) نفس المرجع (ص ٧٤).

لائحة المصادر والمراجع

- أحمد الريسوني، الحركة الإسلامية المغربية صعود أم أفول؟، منشورات ألوان مغربية (٢٠٠٤م).
- الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت (ط٤)، (١٣٩٧هـ).
- سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة (ط٦)، (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).
- طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، فرجينيا (ط١)، (١٩٩٤م).
- فريد الأنصاري، الفطرية بعثة التجديد المقبلة، دار السلام، القاهرة (ط١)، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).
- فريد الأنصاري، المصطلح الأصولي عند الشاطبي، دار السلام، القاهرة (ط١)، (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).
- فريد الأنصاري، بلاغ الرسالة القرآنية (من أجل إبصار لآيات الطريق)، دار السلام، القاهرة (ط١)، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).
- فريد الأنصاري، مجالس القرآن (مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ)، دار السلام، القاهرة، الجزء الأول (ط١)، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م). الجزء الثاني (ط١)، (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).
- فريد الأنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعية، دار السلام، القاهرة (ط١)، (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).
- فريد الأنصاري، مفهوم العالمية (من الكتاب إلى الربانية)، دار السلام، القاهرة (ط١)، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).
- فريد الأنصاري، التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، دار السلام، القاهرة (ط١)، (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).
- فريد الأنصاري، الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب (انحراف استصنامي في الفكر والممارسة)، منشورات رسالة القرآن، مطبعة الكلمة، مكناس (ط١)، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).
- فريد الأنصاري، آخر الفرسان، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة (ط١)، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
- فريد الأنصاري، البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، دار السلام القاهرة (ط١)، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

- فريد الأنصاري، جمالية الدين (معارج القلب إلى حياة الروح)، دار السلام، القاهرة (ط١)، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).
- ماجد الكيلاني، مناهج التربية الإسلامية، مؤسسة الريان (ط١).
- مجموعة من المؤلفين، معجم علوم التربية، مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك، سلسلة علوم التربية (٩ و ١٠)، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء (ط١)، (١٩٩٤م).
- محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت (ط٢)، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
- محمد البركة وسعيد بنحمادة، فقه التاريخ عند الدكتور فريد الأنصاري (المفهوم والمنهج والقضايا)، دار السلام، القاهرة (ط١)، (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت (د.ت).
- هشام الطالب، دليل التدريب القيادي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبعة المغرب الثانية (٢٠٠٣م).
- أبو الوليد الباجي، رسالة في بيان حدود الألفاظ الدائرة بين المتناظرين، مخطوط بالمكتبة العامة بتطوان المغرب، تحت رقم (٣٥٣).
- أبو يعرب المرزوقي، آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة، دار الطليعة، بيروت (ط١)، (١٩٩٩م).

مقالات:

- مجلة حراء، مجلة علمية ثقافية فصلية، اسطنبول، الأعدد (١٢يوليو - سبتمبر ٢٠٠٨م)، (١٣ أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٨م)، (١٤يناير - مارس ٢٠٠٩م) (٢٤مايو - يونيو ٢٠١١م).
- جريدة المحجة المغربية، جريدة نصف شهرية، عدد (٣٣٠ - ٣٣١)، (١٥محرم ١٤٣١هـ/ ١ يناير ٢٠١٠م)، (عدد خاص بالدكتور فريد الأنصاري).

* * *
* *
*

السيرة الذاتية

د. محمد البركة:

- من مواليد مدينة مكناس وسط المغرب سنة (١٩٧١م).
- حاصل على شهادة الأهلية الجامعية، تخصص تاريخ، من جامعة السلطان سيدي محمد ابن عبد اللّه، كلية الآداب- فاس سنة (٢٠١٠م)، في موضوع: « معالم البنية المرجعية للدولة المرابطية أصول وفصول ».
- حاصل على شهادة الدكتوراه، تخصص تاريخ المغرب، من جامعة السلطان سيدي محمد ابن عبد اللّه، كلية الآداب - فاس سنة (٢٠٠٢م)، في موضوع: « الدولة المرابطية مساهمة في دراسة نظام الكتابة الديوانية ».
- حاصل على شهادة استكمال الدروس، تخصص التاريخ الوسيط، من جامعة السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه، كلية الآداب - فاس سنة (١٩٩٧م).
- حاصل على شهادة الإجازة، تخصص تاريخ، من جامعة السلطان المولى إسماعيل، كلية الآداب - مكناس (١٩٩٦م).
- أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه، الكلية متعددة التخصصات تازة - المغرب.
- عضو - سابقًا - بمجلس إدارة الكلية متعددة التخصصات (تازة).
- منسق - سابقًا - لمجموعة البحث في الحضارة والبيئة بنفس الكلية.
- عضو - سابقًا - بمجلس إدارة مختبر البحث في البيئة والتراث والتنمية بنفس الكلية.
- عضو مختبر البحث في العلاقات الثقافية المغربية الأيبيرية بنفس الكلية.
- عضو الجمعية المغربية للبحث التاريخي.
- نائب رئيس المكتب المحلي للنقابة الوطنية للتعليم العالي.
- مشارك في العديد من الندوات الوطنية والدولية.

صدر له:

- الدولة المرابطية: ملامح نظام الكتابة الديوانية، أفريقيا الشرق البيضاء (ط١)، (٢٠٠٨م).
- حوارات شاهد على الواقع المغربي (جمع وتقديم)، المطبعة الوطنية مراكش (ط١)، (٢٠٠٨م).
- فقه النوازل على المذهب المالكي « فتاوى أبي عمران الفاسي »، أفريقيا الشرق البيضاء (ط١)، (٢٠١٠م).
- التصوف السني في تاريخ المغرب (بالاشتراك)، سلسلة شرفات، منشورات الزمن الرباط (ط١)، (٢٠١٠م).

- فقه التاريخ عند الدكتور فريد الأنصاري: المفهوم المنهج والقضايا (بالاشتراك)، دار السلام القاهرة (ط١)، (٢٠١١م).

- الطوبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافية: مقدمات في الفهم والمنهج والعلائق (بالاشتراك)، دار أفريقيا الشرق البيضاء (ط١)، (٢٠١٢م).

قيد الطبع:

- النظام الغذائي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط: دراسات في سوسيولوجيا الأحكام والقيم والعوائد الغذائية (بالاشتراك).

- السياسة السلطانية عند لسان الدين ابن الخطيب، من خلال رسالته في أحوال خدمة الدولة ومصائرهم (بالاشتراك).



رقم الإيداع ١٠٢١٨/ ٢٠١٢ الترقيم الدولي I. S. B. N 978 - 977 - 214 - 060 - 2

الكتاب في سطور

المشروع الدعوي للدكتور فريد الأنصاري لا يمكن فهمه إلا بفهم أركانه الثلاثة، متمثلة في ثلاثة مؤلَّفات من مؤلفاته؛ وهي: " الفطرية والعَالِـمِيَّـة ومجالس القرآن "، وهي أركان متداخلة لا يمكن فهم الواحد منها أو مدارسته إلا باستحضار الركنين الآخرين، وأي محاولة تسعى لمدارسة المشروع بعيدًا عن هذه الأركان أو عن واحد منها، لا تكتمل جوانبها ولا تصل إلى عمق رؤيتها حتى لو نظرتُ إلى باقي كتابات الدكتور الأخرى، مما يجعل فكر الدكتور فريد الأنصاري - رحمه الله - المعبَّر عنه من خلال مجموع كتاباته عامة ومن خلال كتابه الفطرية خاصة، يمثل فقهًا منهجيًا جديدًا للدعوة، فقهًا يَخلُص عبر قراءة منهجية سطرها إلى أن الفطرية إنما هي ضرورة ونتيجة يمليها التاريخ وقوانين العمران البشري.

لمدارسة فقه وفكر ومشروع الدكتور فريد الأنصاري الدعوي من خلال كتبه الثلاثة السابقة الذِّكر ... يصدر هذا الكتاب.

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٣

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٦٠٤ (٢٠٣+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com



